الحداثة

في منظـور إيمـاني



الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الثانية

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

الطبعة الثالثة

١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م

أشرف على الإخراج / رضا محمود فرحان



دار النحوي للنشر والتوزيع

ت: ٤٠١٠٢٥٧ - ص.ب: ١٨٩١

الرياض ١١٤٤١

المملكة العربية السعودية


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

* إلى كل قلب يبحث عن الحق صادقاً.

* إلى كل فطرة تحب أن تستقيم على الحق ولا تنحرف عنـــه.

* إلى كل مؤمن، عسى أن يجد فيه حقاً يزيده الله به إيمانـــاً.

* إلـــى من كاد الشيـــطان أن يزيّن له هوى الضلال . . .

* فعسى أن يتذكر فتنفعه الذكرى.





أما الأدب الذي نريده فهو الأدب الذي ارتفعت فيه الكلمة إلى الإشراقة الفنية، وإلى إشراقة المعنى الكريم، حتى أصبحت من القول الطيب على صراط الحميد:

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

(الحج: ٢٤)

والأدب الذي لا نريده هو الذي يحمل زخرفاً فنياً زيَّنَتْه شياطين الإنس والجنّ، ويحمل المعنى الخبيث في زخرف من الغرور والفتنة، فمالت إليه قلوب الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ورضوا به، واقترفوا من الآثام ما اقترفوه:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

(الأنعام ١١٢، ١١٣)



الطبعة الأولى والثانية

كان هذا البحث في أساسه فصلاً في كتابي «الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته» في طبعتيه الأولى والثانية، وكلاهما كان في عام ١٤٠٧ هـ (١٩٨٧ م).

لقد تلقيت رسائل كثيرة حول كتابي «الأدب الإسلامي» فحمدت الله سبحانه وتعالى على ما ناله الكتاب من تقدير وقبول، وذلك بفضل الله وحده، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

ولقد رأيت أوّلاً أن أخرج الفصل الخاص بالحداثة في كتاب مستقل، استجابة لعدد غير قليل من القراء في المملكة العربية السعودية وخارجها. وما كدت أبدأ بذلك حتى رأيت أن هناك تعديلات وإضافات يقتضيها البحث المستقل.

ثم دَفَعتْ كل زيادة أو تعديل إضافة أخرى، حتى شعرت بالضرورة إلى إضافة أبواب جديدة وفصول جديدة. فكان لابد من استعراض بعض كتب الحداثة الهامة، خلاف كتاب أدونيس، حتى نرى امتداد الفكر الحداثيّ وارتباطه، والأسس العامة التي يقوم عليها، ذلك كله من أقوال كتابهم ومفكريهم، فلا يكون هنالك ظنٌّ ولا تخمين، وإنما نصوص ويقين. فتناولت كتاب «**جدلية الخفاء والتجلي**» للدكتور «كمال أبو ديب»، وكذلك كتاب «**الخطيئة والتكفير**» للدكتور «عبدالله الغذامي»، وأخذت من كلّ نصوصاً رأيت ضرورة الوقوف عندها ومناقشتها.

والحداثة لفظة محببة، ولكنها أخذت اليوم أبعاداً واسعة في بلادنا وخارجها، وأصبحت تحمل من الامتداد ما أبعدها عن أصلها اللغوي، ومن الغرابة ما أبعدها عن الأمة الإسلامية وتاريخها ودينها، ثم إنها حملتْ في فكرها غموضاً يجب توضيحه، وشراً يجب دفعه، ومكراً يجب رَدُّه.



إني أقدم هذا البحث إلى الشباب المسلمين، عسى أن يكون فيه عبرة تجنِّب العامِلين المزالق، وتحمي الصفّ من فتنة.

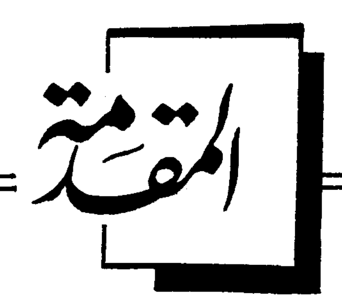
وإني أجدِّد العزيمة والنيّة على أن يظل عملنا كله خالصاً لله، نقياً من شوائب الدنيا، طاهراً من الشهوة والزخرف، على رهبة وخشوع لله، وخشية من عذابه، ورجاء ممتد برحمته، ويقين بعدله، وثبات على دينه ودعوته.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل عملنا، وأن يهدينا سواء السبيل، إنه هو البَرُّ الرَّحيم.

والحمد لله رب العالمين

د. عدنان علي رضا النحوي

الرياض: ١/٢/١٤٠٩ هـ
١٢/٩/١٩٨٨ م



الطبعة الثالثة

وأنا أُعد الطبعة الثالثة من هذا الكتاب، كنتُ أتأمّل في جدِّية الاهتمام الذي تبديه أمَّتنا نحو هذة القضية ـ قضية الحداثة ـ وشعورها الواضح في مدى الخطر الذي يتهددها منها، حين نفدت الطبعة الأولى والثانية خلال أشهر قليلة من صدورهما.

تمثل الحداثة اليوم في بعض الأقطار الإسلامية واقعاً قائماً، حتى كأنَّ بعض الناس قد استسلموا له، أو كأنَّ هدنة قامت بين مختلف الجبهات، أو كأنَّ الصراع أخذ صورة هادئة أو أسلوبا خفيًا. مما لاشك فيه أن رجال الحداثة جادون نشطون في كل قطر، وأنهم متعاونون، وأنهم تجاوزوا قدراً غير قليل من العقبات في طريقهم، وأنهم أقاموا نقاطاً ثابتة عليها.

«والحداثة» كما نبيّن في ثنايا الكتاب ليست حديثة، إلا بما جدَّ من تعابير ومصطلحات، وأساليب وشعارات. أما جوهر الفكر والتصوّر فهو قديم في حياة الانسان، يحمل مع كل عصر ما يلائمه من الأصباغ والزخارف والزينة. ولذلك لن يجد رجال الحداثة ما يعُينهم على النجاة من فتنة هذه الزخارف والأصباغ المضللة إلا في الإسلام. ذلك لأن الإسلام هو العقيدة الوحيدة لدى الإنسان في الأرض كلها، العقيدة الوحيدة التي تستطيع أن تفعل ذلك، وقد فعلته في التاريخ البشري مع كل نبوة ورسالة، ومضت تفعل ذلك بعد أن حملتْ الأمة الإسلامية الرسالة، حين خُتِمت النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم، وحين حملت الأمة الإسلامية أمانة الدعوة في الأرض، وأمانة الكلمة، وصدق النصيحة للناس كلهم.

من هذا المنطلق كان حرصي على عرض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مع القضية هذه أو تلك، حتى نرى الحجة البالغة في منهاج الله نوراً يزيح الظلمة

عن العيون ويرفع الغفلة عن القلوب. وحتى تطرق هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة القلوب، فترفع عنها الرّان.

ومن ناحية ثانية فإني أعتبر كل كلمة قلتها نصحاً صادقاً أخلص به النية لله سبحانه وتعالى، ودعوة صادقة إلى رجال الحداثة ليعيدوا النظر في فكر وراية وأسلوب وموقف، حتى تجمع الأمة زنود أبنائها كلهم في مجرى واحد صادق، ثم لتقف الأمة المسلمة كلها صفّاً واحدا وبنياناً مرصوصا.

وهي نصح خالص ودعوة صادقة إلى كل رجال الحداثة في الأرض، أينما كانوا، نصح ودعوة ليعيدوا النظر في موقفهم وفكرهم ومعتقداتهم، وليتفكروا أن كلّ إنسان سيموت، سيطويه القبر، ولا مجال هناك أبدا لإصلاح موقف أو تصحيح رأي، وأن كل إنسان سيجني ما كسبت يداه، وأن بعد الموت بعثاً وقيامة، وحساباً، وجنة أو ناراً. وليتذكروا أن حقائق الكون ماضية لا تتأثر بمن يكذب أو يصدّق، فالموت حق ظاهر سواء في ذلك من اعترف ومن لم يعترف. إنه نصح خالص يرجو الخير الحق للناس كلهم.

لا نعني بالدعوة أن يصلي الأديب ويؤدي سائر الشعائر الإسلامية ثمّ يأخذ فكره ونهجه وأدبه عن الغرب أو الشرق. فالإسلام منهج حياة، وقواعد إيمانية لكلّ ميادينها، ومنه فقط يصوغ المؤمن فكره ونهجه وأدبه.

إننا نريد من المسلم أن يصوغ له القرآن والسنة فكره وأدبه، وأن تقوم مناهجُنَا على أساس من منهاج الله، لتتميَّز بنور الإيمان، فتلمس خفقة الإيمان في القصيدة، وحلاوة التوحيد في القصة، وأدب النصيحة في المقالة.

إننا نريد أن نرى السياسة التي يصوغها القرآن، والاقتصاد الذي يصوغه القرآن، والأدب الذي يصوغه القرآن. وهذا كله يحتاج إلى المواهب المؤمنة لتشق درب الإيمان، وتفتح أبواب الحياة للإيمان وجنوده، لينزلوا ميدان الجهاد الصادق

الأمين في سبيل الله، قلوباً صَدَقَتْ وأخلصت النية لله، تطرق أبواب الجنة، من ميادين الجهاد كلها حتى يَرَوا أن كلمة الله هي العليا.

مع كثرة ما نعانيه اليوم في واقعنا من تناقضات واضطراب، فإن من بين هذه التناقضات تناقضاً أخطر من تناقض، واضطراباً أعتى من اضطراب.

ومن أخطر ذلك وأسوأه على حياة الأمة ما يمكن تسميته «**بالطبقة العائمة**» من الناس. «**والطبقة العائمة**» مصطلح أطرحه لأعني به أولئك الذين يأتون شيئا من الإسلام ويذرون شيئا، على صورة تجعلك في حيرة وأنت تحاول أن تضعهم في هذا الموقف أو ذاك. فمن الناس من يصلي ولا يصوم، أو يصوم ولا يصلي. ومنهم من يُسمعُك الشهادتين ثم إذا هو بعيد عن الصلاة والصوم، قريب من بعض السوء أو كلِّه. أما في ميدان الفكر والمناهج فإن «الأوراق» أشد اختلاطا وأوسع اضطرابا لدى كثير من الناس. وذلك لأن الفكر والنهج هما أكثر الميادين حملاً للرايات والشعارات، والرايات والشعارات أكثر ما يحرِّك عواطف الناس، حتى يُقْبِل الناس في حُمَّى العاطفة الهائجة على ما يناقض شعاراً أو يعارض راية، وحتى يَقْبَل الناس ما يرفضونه، أو يرفضوا ما كانوا يقبلونه.

لذلك كان من خصائص الحياة الإسلامية والنهج الإيماني هو التناسق والتكامل في الفكر والنهج، والراية والكلمة، والموقف والخطوة، هو التكامل بين نهج وشعار وممارسة، هو التكامل الذي يكشف عن جمال الحياة الإيمانية، وجمال السعي والمعاناة في خشوع وإنابة. في هذا الجو الكريم تصبح الأخطاء مدرسة، والهفوات موعظة، حتى لا يعود هنالك «طبقة عائمة» أو أجواء مرتبكة مربكة، أو غموض وحيرة، وشكوك وفتنة. إنها أجواء جلاء ووضوح، وبيان ونور.

هذه «**الطبقة العائمة**» تكون ميدانا صالحا لنشاط الأعداء، وجواً ملائماً لنمو الطفيليات، ومواطن الشبهات، يتجمع فيها الماء الراكد وما ينمو فيه من فتن ومفاسد.

لذلك ندفع الكلمات لننصح بها، ولنذكر ونعين، وما آحوجنا كلنا أن نجعل من النصيحة أبواب نجاة، ومنافذ حياة، تجمع الناس على درب واحد في نور الحق.

ولقد رأيت أن أزيد صورة الحداثة وضوحاً بإضافة تعريفات أوسع لها، ومعلومات أبعد، وذلك في الفصل الثاني من الباب الأول. كما أني أضفت فصلين جديدين في الباب الأول. والفصلان هما: «**ولادة الحداثة، ظروفها ونموها**» و «**بعض مذاهب الحداثة وحركاتها**» وأضفت فصلاً جديد إلى الباب الثاني هو: «**دخول الحداثة إلى العالم الإسلامي**».

وقد أشرت في هذه الفصول الجديدة الى مقتبسات من كتاب «**الحداثة**» فكتاب (الحداثة ١٨٩٠ ـ ١٩٣٠) هو من تحرير مالكوم برادبري وجيمس ماكفارلن صدر من دار (بنجوين Penguin) سنة ١٩٧٨، وقام بترجمته مؤيد حسن فوزي ـ وأخرجته دار المأمون للترجمة والنشر ونشرته وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد ١٩٨٧ م.

مالكوم برادبري هو أستاذ الدراسات الأمريكية في جامعة إيست انكليا، **وجيمس ماكفارلن** هو أستاذ الأدب الأوروبي في الجامعة نفسها. قام بتأليف هذا الكتاب تسعة أساتذة آخرين من جامعات وكليات متعددة ولكل أستاذ تخصص محدَّد كتب فيه، وشارك في إعداده.

خلال دراسة بعض الفصول سأشير إلى هذا الكتاب «**الحداثة**»: وأهمية هذا الكتاب تنبع من عدد المتخصصين في إعداده وجمعه وتحريره حتى بلغوا أحد عشر أستاذا. والناحية الثانية هي أنه بسبب هذا العدد وتنوع الاختصاص طاف الكتاب بأهم ملامح الأدب والفكر في انكلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا وأمريكا، وقدّم نماذج من نصوص ونماذج من معلومات. الذي يهمنا نحن: هذه النماذج التي أشرنا إليها في مكانها، ولايهمنا وجهة نظر هؤلاء الأساتذة في الحداثة نفسها. فوجهة النظر والتحليل نقوم به نحن مستندين على المعلومات المتوافرة والنماذج بعد أن نردَّها إلى



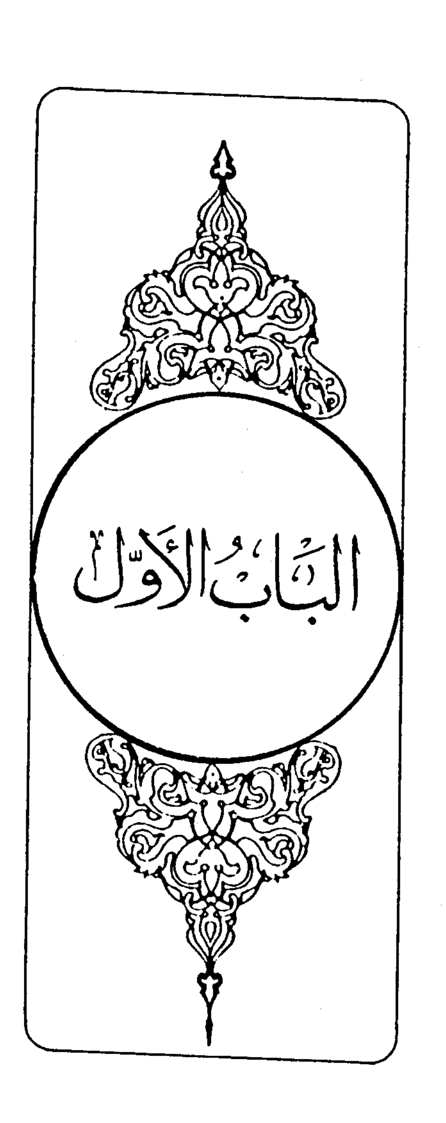
منهاج الله قرآنا وسنة ردّا نرجو به الطاعة لله والإنابة إليه.

أرجو أن أكون بهذه الاضافات كلها قدمّت إيضاحاً أوسع وجلاءً أكبر، داعياً الله سبحانه وتعالى أن يجعل عملنا كله خالصا لوجهه الكريم، ونصرة لدينه، وإعلاء لكلمته، والحمد لله رب العالمين.

د. عدنان علي رضا النحوي

الرياض : ١/ ٩/ ١٤٠٩هـ
٧/ ٥/ ١٩٨٩م





الحداثة
بين القديم والجديد

الفصل الأول

كلمة الحداثة ومحتواها اللغوي

انتشرت لفظة الحَدَاثة في عصرنا الحاليّ انتشاراً واسعاً، واحتلّت رقعة واسعة من وسائل الإعلام، ومساحة واسعة في دنيا الأدب. انتشرت مع بريق جذاب، أخذ بالنفوس والألباب.

«والحَـدَاثـة» في اللغـة: مصدر حَدَثَ، وهي تعني نقيض القديم، وتعني «الحَدَاثةُ» كذلك أوَّلَ الأمر وابتداءَه، وتعني كذلك الشبابَ وأولَ العمر[١]. ومن هذه الظلال حملت جاذبيّتها في وقتنا الحاليّ، مع ما يحمل عصرنا من عُقَد نفسيّة حول القديم، عقدٍ عقدها القلق والخوف، والاضطراب والضياع، والظلمة والتيه. وزيّن شياطينُ الإنس والجنّ الرغبة في التخلّص من كل قديم، حتى لايبقى في حياة الإنسان ركائز يستقرّ عليها، بل يظلّ يهدم ما يبني، ويقطع ما يغرس، ويقتل ما يُرَبّي، دون رويّة وتمحيص، أو تمهُّل وتدقيق.

وفي هذا الخضمِّ الهائج من القلق أخذت لفظة الحداثة مفهومات متعددة وتعريفات مختلفة، وظلالاً متباينة. وفي جميع حالاتها لا نستطيع أن نراها أكثر من أنها امتداد طبيعي للقلق الأوروبي، لاضطراب أفكاره ومبادئه، وفلسفاته وآدابه. ولقد رأينا تطّور هذا القلق والاضطراب ابتداء من عصر الظلمات ممتدّاً في ظلمة تغشاها ظلمة، إلى **الكلاسيكية والرومانسيّة، والواقعية والبرناسيّة، والرمزيّة والسريالية والوجودية**[٢]. وتكاد تكون الوجوديّة مرحلة متقدّمة من هذا القلق والاضطراب، واليأس والحيرة. وهذه المذاهب الأدبية، ومعها المذاهب الفكرية

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس.

(٢) الأدب الإسلامي انسانيته وعالميته ـ ط ٢ الباب الرابع ـ الفصل الأول ص (١٧٩ ـ ٢١١).

والفلسفيّة، لم تكن أكثر من أمواج عاتية من الظلام، لا يُفلت الناس موجة إلا ليمسكوا بأخرى، فتطويهم في هدير جبار، ويبتلعهم ديجور مفزع، وكلّ موجة أشد من سابقتها هديراً، وأشدُّ منها حلكة. حتى يئس الناس من التقليد، ومن الطبيعة، ومن الواقع، فهربوا إلى غموض الرمز وثاروا على كل ما سبق. وكانت هذه الثورة تتمثل في الوجودية التي كفرت بكل شيء وأباحت كل شيء وظنّ الناس أنها آخر المطاف. ولكنّ الاصطلاحات توالت حتى لا تكاد تمسك لها بطرف أو نهاية. **فجاءت البنائية والتفكيكية، والتصويرية، والنزعة الإنسانية، والسميولوجية**، وامتدت المدارس والمذاهب، كلّ مدرسة تنعي سابقتها. ثم جاءت «**الحداثة**» جاءت من الغرب، من أمواج ظلامه، لترفض كلَّ قديم، كلَّ حاضر، وتفلت العنان في بيداء واسعة، دون ركائز من تاريخ وعقيدة وسنن.

لقد كان العلم يتطور في حياة الإنسان، وكذلك الصناعة. ولكن العلم حين كان يتطور كان لا يرمي نظرية سابقة ليأخذ بجديدة. لقد كان التطور يعني أن النظرية الواحدة باب لنظرية ثانية جديدة تقوم على الأولى وترتبط معها. مهما تطورت الهندسة والرياضيات فإنها لا تلغى نظرية فيثاغوروس، ومهما تطورت علوم الطبيعة فإنها لا تلغي قانون أرخميدس، وإن ماكسويل لم يكن ليصل إلى قوانينه المشهورة لولا النظريات والقوانين السابقة. ولو نظرت إلى أحدث سيارة اليوم، فإنها تستفيد من أقدم النظريات العلمية في حياة الإنسان دون أن تلغيها. فلا يلغي التطور جهود السابقين، ولكنه يبني عليها، ولا يلغي إلا ما يثبت فساده وخطؤه في أسلوب علمي محدد لا يعبث به الهوى. فهذا النمو والتطور والتجديد على هذا الأساس، إن هذا الأساس، إن صحّت التسمية، يُمثل خطّاً نامياً في حياة الإنسان، يبني ولا يهدم.

فما بال الفكر جنح إلى أسلوب مغاير، لا يجد طرافته إلا بهدم ما سبق، وسحق ما تقدم، وإزالة ما نهض. وما بال كل فكر جديد لا يجد متعته إلا في لعن سابقه، وتحطيم ذاته، ماضيه وحاضره ومستقبله. إذا أردنا التجديد في الشعر مثلاً فإنّ التجديد يُصبح إلغاء البحور والأوزان، والرويّ والقافية، وقواعد البيان والصياغة، واللفظة والتعبير. إنه يريد أن يمسح تاريخ آلاف السنين بضربة واحدة نسميها

الحَـدَاثـة. وإذا جاءت الحـداثة للقصة ألغت جهود الإنسان السابقة كلها. وإذا دخلت الفكر ألغت الإيمان، وأزالت الأخلاق، وقطعت الحبال والأواصر، وفكّت العُرا، ورمت الناس في صحراء من التيه. فأين التطور؟.

وقبل أن نتابع هذا الحديث لابدَّ من وقفة قصيرة هنا لندرس لفظة أخرى أو لفظتين. فقد يتساءل أحدهم: **وما علاقة الإسلام بالحَدَاثة ليكون له رأي فيها، والإسلام دين؟** وربما قال قائل: **ما لكم تحشرون الدين في كلّ قضية، والإسلام في كلّ مشكلة؟** فلابد من تصفية هذه القضيّة أولاً حتى يستقيم بنا الحديث، ويعتدل بأيدينا الميزان. فكلمة «الدين» لا ينحصر معناها في اللغة العربيّة في معني الشعائر التعبدّية والطقوس، وإن كان هذا المعنى هو أحد معانيها. ولكن معناها يمتدّ بعيداً في أغوار اللغة والحياة. فمن معاني الدين: **الجزاء، العبادة، المواظب من الأمطار واللينَ منهـا، الحساب، القهر، الغلبة، الاستعلاء، السلطان، الملك، الحكم، السيرة، التدبير، التوحيد، واسم لجميع ما يُتَعَبَّدُ الله عزّ وجلّ به، والملّة، والورع، والقضاء**، إلى غير ذلك من المعاني الممتدّة. وقد استعملت هذه الكلمة في القرآن الكـريم على معـانٍ كثـيرة، منهـا: الجزاء والحساب، والسلطان والملك، والتدبير والسـيرة... إلخ: هذا من حيث اللفظة ذاتها ومعانيها فإنها تحمل هذا الشمول والامتداد، سواء في اللغة وقواميسها، وفي القرآن والسنة. فهي لفظة ممتدة شاملة تتسـع لتعني منهاج الحياة كلها من دنيا وآخرة، وحساب وجزاء وعقاب، وسلطان وملك، وسيادة وتدبير. وإذا أخذنا معنى الكلمة من حقيقة الدين الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ، فإننا نجد أن الإسلام دين بكل ما تحمل هذه اللفظة من امتداد وشمول. فعندما نتدبر منهاج الله قرآنا وسنّة، نجد أن ما بين أيدينا ليس نظام شعائر وطقوس فحسب، وإنما نظام حياة متكاملة، ونهج متناسق للإنسان والبشريّة، يجمع كل ما يحتاجه الإنسان في حياته ليبني سعادته في الدنيا والآخرة. إنه يجمع الفكر والاجتماع والسياسة والاقتصاد والقانون، والإدارة، والنظام، والحكم والسلم والحرب والهدنة، وعلاقة الإنسان بالإنسان، وصلات الرحم والقربى، وعلاقات الشعـوب والأمم وغـير ذلـك مما يتعـذّر تعداده هنا. إلا أنه نظام شامل متكامل

متناسق، ما فرط في شيء. **فكلمة الدين، والدين الإسلامي، تختلف عما رسخ في أذهان الناس،** وعما توحيه الكلمة الأجنبيّة «Religion» وما تروِّجه الجمل الطائرة، والتعابير السائرة، التي يحملها الإعلام والإشاعة، من مثل «**الدين لله والوطن للجميع**».

لا بّد من أن يستقرّ في ذهننا أولاً المعنى الصحيح لكلمة الدين، ولمعنى الإسلام، ولحقيقة المنهاج الرّبانّي - قرآنا وسنّة. لابدّ من أن يستقرّ المعنى أولاً، ثمّ لا يعجبنَّ أحد إن قدّم أبناءُ الإسلام رأيَهم في الحداثة أو غيرها. ذلك لأنه من حق أبناء هذا الدين أن يردُّوا أمور الحياة كلها، صغيرها وكبيرها، إلى دينهم، بل هو واجب عليهم، فَرْضٌ فرضه الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله وبيّنه أدقّ بيان، حتى لا يعجبِ أحد أبداً، ولا يجد أحدٌ حَرَجاً.

ومع ذلك فنحن هنا لا ندرس الحداثة دراسة مفصّلة، ولكننا نعرض القدر الذي نراه كافياً لهذا البحث منسجماً معه متمماً له. وكذلك فإننا نمرّ في مرحلة خاصة نشط فيها أعداء للأمة كثيرون، وأحاطت بها القضايا والملمات. **ومن واجب الأدب الإسلاميّ اليوم أن يُعنى كلَّ العناية بقضايا الأمة، ويعرضها العرض الدقيق الأمين، ويردّها إلى قواعد الإيمان.**

إذا عرفنا معنى كلمة «الدين» واستقرّ هذا المعنى في نفوسنا، وإذا عرفنا المنهج الربانّي الذي يرسمه الدين الإسلاميّ للبشريّة كلها، ندرك عندئذ أن الدين، أن الإيمان الصادق، يضع الأسس الحقيقية لنمو الجهد البشري وتطوره، ولنمو عطائه وتجدده، ويصبح «الجديد» في حياة الإنسان نموّاً متصلاً، وتطوراً مترابطاً، وأجيالاً تتماسك، وجهداً يتناسق، في إشراقة طهر وخير، وإشراقة صدق ووضوح. وتمضي الحياة على نمو وتطور، وعطاء عبقري، دون الحاجة إلى أن نضع فلسفة جديدة، لمذهب جديد، يخلط بين الهدم والبناء، فنحيطه بلفظة محببة حلوة حتى نخفي ما يحمله من تدمير وفساد.

لذلك لم تعد لفظة «الحداثة» في واقعنا اليوم تدل على المعنى اللغوي لها، ولم

تعد تحمل في حقيقتها طلاوة الجديد ولا سلامة الرغبة في التجديد. إنها أصبحت رمزاً لفكر جديد نجد تعريفه في كتابات دعاتها وكتبهم.

«**فالحداثة» لفظة تدل اليوم على مذهب فكري جديد يحمل جذوره وأصوله من الغرب، بعيداً عن حياة المسلمين، بعيداً عن حقيقة دينهم، ونهج حياتهم في ظلال الإيمان، والخشوع للخالق الرحمن**. كما سيتضح معنا بعد قليل. فمن الخطأ الكبير أن نحاول أن نستنتج مذهب «الحداثة» من المعنى اللغوي المجرد، فنستنبط المبررات، ونبحث عن الحسنات، من خلال ظلال معنى. ولكنّ المذهب والفكر والمنحى يؤخذ من دعاته، لا من مجرّد تعبير لغوي قد يحمل معه جمال الظلال والإشارة، ولكنه يدفع الناس إلى تيهٍ مظلم، يهدمون فيه ما لديهم، ثم لايجدون من «حديث» أو «جديد» إلا الدمعة والأنة من مصاب، وعضّ الأكف من ندامة.

ولا يحسَبَنَّ أحدٌ أنَّ «الحَداثة» تعني الأخذ بكلِّ جديد نافع، فيقبل اللفظة والدعوة وينساق فلا يكتشف الحقيقة إلا في وقت متأخر. لذلك نؤكد أن «الحداثة» التي نتحدث عنها هي المذهب الجديد الذي يدعو له أهله ودعاته. ونأخذ تعريفه والحكم عليه مما يقولون هم. أما المعنى اللغوي للفظة «الحداثة» كما هي في قواميس اللغة، فتظل تحمل إشراقها وجمالها، نستمده من جمال اللغة العربية وتاريخها العظيم، لنستخدمها في أدب الأمة الملتزم، النابع من عقيدتها الإسلامية وجهادها العظيم.

وقد ورد استخدام مشتقات من هذه الكلمة في مواقف متعددة، ولعله يكون من المناسب أن نورد حديث رسول الله ﷺ، حتى نعلم من النبوّة القائدة أنّ من الجديد والحديث ما يكون ضلالاً وإضلالاً، وفساداً وإفساداً، مما يكبّ صاحبه والداعي إليه ومتبعه في النار.

ففي حديث رسول الله ﷺ عن العرباض بن سارية رضى الله عنه يقول: قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم، فوعظنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون. . . . إلى أن يقول رسول الله ﷺ: «**وسترون من بعدي اختلافاً شديداً**.

فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين. عضّوا عليها بالنواجذ. وإياكم والأمور المحدثات. فإن كل بدعة ضلالة». (رواه الترمذي وابن ماجة)[1]

وفي الحديث الشريف عن عبدالله بن مسعود قال: إن رسول الله ﷺ قال: **«إنما هما اثنتان الكلام والهديُ. فأحسن الكلام كلام الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ. ألا وإياكم ومحدثات الأمور. فإن شرَّ الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة».** (رواه ابن ماجة)[2]

ويتكرر المعنى في الحديث المشابه الذي يرويه جابر بن عبدالله في سنن ابن ماجة. ولخطورة هذا الأمر يصوغه الرسول ﷺ لنا صياغات متعددة، حتى يطرق النفوس المؤمنة من كل جوانبها، فلا تفتن بالجديد إلا أن يكون خيراً يمد المؤمنين قوة، ويقربهم من طاعة، ويسدد لهم فكراً وخطاً.

عن كثير بن عبدالله، عن أبيه، عن جده، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من أحيا سنة من سنتي قد أميتَتْ بعدي، فإن له من الأجر مثل أجر من عمل بها من الناس لا ينقص من أجور الناس شيئاً. ومن ابتدع بدعة لا يرضاها الله عز وجلّ ورسوله، فإنّ عليه مثل إثم من عمل بها من الناس، لاينقص من آثام الناس شيئاً».** (رواه ابن ماجه)[3]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من داعٍ يدعو إلى شيء إلا وقف يوم القيامة لازماً لدعوته، ما دعا إليه، وإن دعا رجل رجلاً»**
(رواه ابن ماجه)[4]

ونختم كلمتنا هذه بأمر الله إلينا يأمرنا أن نقول قولاً سديداً حتى يصلح الله

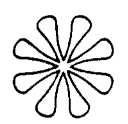
---

(١) سنن ابن ماجة: المقدمة: باب (٦) حديث (٣٤). سنن الترمذي: (٥/٤٤) حديث (٢٦٧٦)
(٢) سنن ابن ماجة المقدمة. باب (٦) حديث (٣٧
(٣) سنن ابن ماجة المقدمة باب (١٥). حديث (١٩٨).
(٤) سنن ابن ماجة. المقدمة - باب (١٤). حديث (١٩٦).

لنا أعمالنا، ويغفر الله لنا ذنوبنا:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١ ﴾ (الاحزاب: ٧٠، ٧١)

هكذا يمتد أثر القول الذي يقوله الإنسان بين الدنيا والآخرة، حتى يكون القول السديد باباً يهدي به الله إلى العمل الصالح في الدنيا، ويغفر الله به الذنوب في الآخرة، ويقرب من طاعة الله ورسوله ومن الفوز العظيم. فالله سبحانه وتعالى يأمرنا بالقول السديد. والقول السديد يبدأ بصدق الإيمان وصفاء النية وحسن التوجه إلى الله سبحانه وتعالى، ثم يكون كلمة طيبة أصلها ثابت غير متحول وفرعها في السماء، ثم يكون بياناً واضحاً يسعى إلى هدف واضح، يتعبدّ المؤمن به ربّه. وما عدا ذلك ففساد وضلال.



الفصل الثاني

تعريف الحداثة. جذورها وآفاقها

لقد ظهرت الحداثة في العالم الغربيّ امتداداً طبيعياً للتيه الذي دخلته أوروبا منذ العصور الوثنية عند اليونان والرومان، امتداداً إلى عصر الظلمات، ثم امتداداً إلى العصور اللاحقة، بكل أمواج المذاهب والفلسفات المتناقضة المتصارعة. ولقد بيِّنا في كتاب «الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته»، كيف أن كل مذهب كان ردّ فعل للمذهب السابق. وكل مذهب كان يحمل في ذاته عناصر موته. لم يبق شيء في حياة الإنسان الغربيٍّ لم يعشقه ثم يكفر به. عشق التقليد للوثنية ثم نقم عليها وكفر بها. عشق المسيحية ثم كفر بها وبالكنيسة وبكل مفاسدها وظلمها وظلامها. عشق الطبيعة، ثم هجرها، وعشق الواقع ففرَّ منه مذعوراً، ودخل التيه المظلم. كفر بالله كفراً صريحاً، وحمل المادية التاريخية والجدلية وبدأ يكفر بها، قال إن الفنّ للفنّ ثم كفر بذلك، دعا إلى الحرية والإخاء والمساواة دعوة طلاء وغشاوة، حتى جاءت الوجودية فأزالت الطلاء والغشاوة، وجعلت الحرية فوضى، والالتزام تفلتاً، والإيمان بأي شيء كفراً. فلم يعد في حياة الغَرْبيٍّ إلا أن تنفجر هذه المذاهب انفجاراً رهيباً يحطم كل قيمة، لتعلن يأس الإنسان الغَرْبيٍّ وفشله في أن يجد أمناً أو أمانا. لقد كانت «الحداثة» تمثل هذا الانفجار الرهيب، الانفجار اليائس، انفجار الإنسان الذي لم يعرف الأمن في ذاته آلاف السنين. جرّب كل ما أوحت به الشياطين، جرَّب العلم، والمال، والطبيعة وغير ذلك مما عددنا، فما أفادته بشيء. كفر بكل شيء وعبّر عن كفره ذلك بالحداثة.

فلا عجب إذن في أن عرَّف رولان بارت (١٩١٥ ـ ١٩٨١ م) الحداثة بأنها انفجار معرفيّ لم يتوصل الإنسان المعاصر إلى السيطرة عليه. ويقول: «في الحداثة تنفجر الطاقات الكامنة، وتتحرر شهوات الإبداع، في الثورة المعرفيّة، مولِّدة في

سرعة مذهلة وكثافة مدهشة أفكاراً جديدة، وأشكالاً غير مألوفة، وتكوينات غريبة، وأقنعة عجيبة. فيقف بعض الناس منبهراً بها، ويقف بعضهم الآخر خائفاً منها، هذا الطوفان المعرفيّ يولّد خصوبة لا مثيل لها، ولكنه يغرق أيضاً»[١].

نعم إنه انفجار رهيب للطاقات الكامنة التي لم تستطع الفلسفات السابقة كلها أن توجهها. وهو انفجار لم يستطع الإنسان المعاصر السيطرة عليه، لأنه انفجار اليأس والقنوط والكفر بكل شيء. وتتحرر شهوات الإبداع لتغيب في تيه ممتد لا نهائي، تولد أفكاراً جديدة، وأشكالاً وأقنعة، وكل شيء تجده جديداً حتى لو كان قاتلاً، مدمراً، مهلكاً، شيطانياً . . . إنه انفجار اليأس والكفر.

يصفها بعض الباحثين الأوروبيين: بأنها زلزلة حضاريّة عنيفة، وانقلاب ثقافي شامل، وأنها جعلت الإنسان الغربيّ يشك في حضارته بأكملها، ويرفض حتى أرسخ معتقداته المتوارثة.

نعم. إنها إن لم تكن انفجاراً فهي زلزلة عظيمة تدمر كل شيء. إنها زلزلة النفوس اليائسة الكافرة، وهي تبحث عن أمنها وأمانها. فتدمر نفسها، وتدمر كلّ شيء.

(فمالكوم برادبري) و (جيمس ماكفرلن) يقولان: «إننا نعتقد بأن هذا الفنّ الجديد جاء نتيجة لهذا النوع من الهزّات الكاسحة (Cataclysmic Order) ، أو ربما هو هزّة كاسحة في حد ذاته»[٢].

ويقول (هربرت ريد) في كتابه «الفن الآن»: «إننا نلمس الآن ابتعاداً عن كل أنواع التراث، ولا يمكن أن ندعو هذا الابتعاد بالتطور المنطقي لفن الرسم في أوروبا لأنه ليس هناك ما يوازيه تاريخيا. لقد وجدنا أنفسنا فجأة نكفر بجهود خمسة قرون من الإبداع الفنيّ»[٣]

---

(١) محاضرة الحداثة والتراث ـ د. محمد مصطفى هدارة.

(٢) الحداثة: مالكوم برادبري وجيمس ماكفلرن : ص ١٩

(٣) هربرت ريد وكتابه الفن الآن (لندن ١٩٣٣) وأعيدت طباعته ١٩٦٠.

ويقول (فلوبير): «كل ما أريد أن أفعله هو أن أنتج كتابا جميلاً حول لا شيء وغير مترابط إلا مع نفسه وليس مع عوالم خارجية . . »[1]

أما (جوس اورتيكاكاست) في كتابه: «النزعة اللاإنسانيّة في الفن»، فإنه يقول: «إنها هدم تقدمي لكل القيم الإنسانية التي كانت سائدة في الأدب الرومانسي والطبيعي. إنها لا تعيد صياغة الشكل بل تأخذ الفن الى ظلمات الفوضى واليأس». وكذلك يقول (فرانك كيرمود) في كتابه «مقالات حديثه». وهذا يعني، كما يقول (مالكوم برادبري)، **أن الحداثة لا تأخذ بيد الفنّ إلى مواطن الإبداع، ولكن إلى التهلكة**.[2]

ومن الطريف ما يقوله (ارفنك هاو) في مقاله «المدخل الى فكرة الحداثة: «لم تأت الحداثة بأسلوبها الخاص المؤثر وإذا أتت بذلك تكون قد انتهت كحداثة»[3].

ومنذ سنين طويلة، وبحدود عام (١٨٩٢ م) أفرغ م.ج كونراد في مقاله: «طموحات حديثة» تهكمه المرير على الحداثة وهو يقول: «الشعر الحقيقى الآن هو فنّ بارع في تحطيم الأعصاب. . . . نحن سحرة العالم الشهواني. نحن الذين يباركنا العجز والحماقة. إن رجالنا المتخصصين الآن لا يهمهم ما يقدمه إليهم المتخصصون في الحداثة من توافه. لا يهمهم إذا ما انتجت التفاهات في الكنائس أو في بيوت الدعارة، المهم أنهم يعثرون على كلمات تنتهي بـ (ية ـ ism) كالرمزية والشيطانية والكلاسيكية الجديدة والهلوسيّة، . . . إذا أمدنا الله بالصبر الجميل سنجد بعد بضع سنوات أن كل هذه الثرثرة التي يمارسها أناس يسمون أنفسهم زورا وبهتانا بالأدباء أو الفنانين ستنتهي إلى زاوية الإهمال والاستهجان . »[4]

ولم يكن (كونراد) وحده في هذا التصور. فعدد غير قليل من رجال الفكر

---

(١) كتاب الحداثة السابق ص ٢٥.

(٢) المرجع السابق ص ٢٦.

(٣) المرجع السابق ص ٢٩: وآرفنك هاو: المدخل إلى فكرة الحداثة مقال منشور في كتاب: «الحداثة الأدبية لأرفنك هاو (١٩٦٧).

(٤) المرجع السابق ص ٤٣. م.ج كونراد: «طموحات حديثة» أعيد طبع هذا المقال في «الظواهر الأدبية للمذهب الطبيعي» (١٨٨٠ - ١٨٩٢).

والأدب أخذهم الذهول من هول ما كانوا يرون من شطط الحداثة. وامتدّ تصوُّر (كونراد) سنين طويلة بعده. فـ (ليونيل تيرلنك) يقول: إن ما تعنيه الحداثة لنا هو تقريباً خلاف ما كانت تعنيه لآرنولد. فالحداثة، بالنسبة إلينا، تعني العدمية والموقف المعادي للحضارة، وتعني كذلك التحرر من كل ما يمت إلى الحضارة بصلة»[1]

وفي الحقيقة، فإن المسار الذي اتخذته الحداثة هو تدمير كل ما يمت إلى الواقعية بصلة، وهذا ما نجده في الحركات التي تنضوي تحت لواء هذه التسمية «الحداثة». فقد جمعت هذه اللفظة في مسيرتها حركات متعددة أهمها: الانطباعية (Impressionism)، ما بعد الانطباعية (Post-Impressionism)، التعبيرية (Expres- sionism)، التكعيبية (Cubism)، المستقبلية (Futurism)، الرمزية (Symbolism)، التصويرية (Imigism)، الدوامية (Vorticism)، الدادائية (Dadaism)، والسريالية (Surrealism).

وهذه الحركات كلها لم تمثل أبداً مساراً نامياً متطوراً موحداً. فبعضها كان ثورة كاسحة على بعضها الآخر، وتدميراً لقواعدها وأسسها، وتناقضاً كلياً معها، كما سنرى ملامح ذلك في فصول مقبلة.

لقد درس الحداثة عدد غير قليل من النقاد والأدباء والمفكرين في أوروبا وروسيا وأمريكا، وحاولوا الوصول إلى جذورها وأسباب ظهورها وتعريفها فأصاب كل واحد طرفاً منها وغابت عنهم أطراف. لقد تحدث (ماثيو آرنولد) بحدود سنة (١٨٥٦) في محاضرته «العنصر الحديث في الأدب» عن الحداثة. وظهر اصطلاح «الحديث The Modern » بحدود عام ١٨٨٦. وتحدث عن هذا الاصطلاح والتعبير (يوجين ولف) في محاضراته في برلين وكتب عنها في مقالاته في عام ١٨٨٨. واشتد الحديث عنها في ألمانيا وفينا وأوسلو بين عامي ١٨٩٠ و ١٨٩١. ونشط الكُتَّاب في ذلك كثيراً مثل (هيرمان بار) و (يوجين دوهرنك) وغيرهما. واستمر النشاط وانتقل إلى بلاد أخرى، ونَما وازداد مع القرن العشرين فكتب (صاموئيل لبلنسكي) كتابه «ميزانية الحداثة»، ثم كتابه «رحيل الحداثة». وكتب (جورج براندز وستيوارت

---

(١) المرجع السابق ص (٤١/٤٢). ليونيل تيرلنك كتب مقاله سنة ١٩٦١: العنصر الحديث في الأدب الحديث».

هيوز)، وتوالى في القرن العشرين كتاب كثيرون تناولوا الحداثة بالنقد والدراسة منهم على سبيل المثال لا الحصر: (سي. س. لوس)، (أندريه مارلو)، (ج. س. فريزر)، (ستيفن سبندر)، و(الفرد نورث وايتهيد)، (ولي سايفر)، (رولان بارت)، وسيرلى كونولي)، و(إدموند ولسون)، (رومان ياكوبسون)، (جفري هافمان)، (روبرت لانكباوم). وامتدت الدراسات لتشغل حيزاً غير قليل.

ومهما كان بين الكتّاب من اختلاف في وجهات النظر، فقد كان هنالك نقاط واضحة تنال الإجماع أو شبه الإجماع. ولقد رأينا نماذج من هذه الآراء في الصفحات السابقة. ويمكن أن نعرض نقاطاً أخرى تمثل خصائص هامة في منحى الحداثة.

فمن قائل: إن الحداثة هي فن التحديث. **ومن قائل**: إنها فن الابتعاد الصارم عن المجتمع. أو إنها، كما يعتقد الفنانون التعبيريون، فنّ اللافن الذي يحطم الأطر التقليدية، ويتبنى رغبات الإنسان الفوضوية التي لا يحدّها حدّ.

و (كوتغريد بن) يسمّي الحداثة تكافؤ الضدّين. فهي تحمل مساراً مزدوجاً لانواع كثيرة من التناقض.

كان جميع الحداثيين يرون الأدب قوة ضاربة نارية، يهاجمون بها كل ما كان يعتبر تقليدياً ليقوِّضوه، يهاجمون المعتقدات والمؤسسات، ويهاجمون اللغة، يهاجمون هذا كله ليهدِّموه ويحطموه، وتنطلق كوابيس الجنس والمخدرات في الشعر والرواية والسلوك الواقعي، وينطلق أدب «اللامعقول» و «اللاتخطيط» و «اللارواية»، و«اللافن»، لينقل الإنسان إلى عالم مجهول.

أغرقت «الحداثة» بمصطلحاتها وتعبيراتها، وغاصت في أوحال فكر المخدرات والجنس، وضربت في تيه الشذوذ وفلسفة الضياع، في تيه بعيد مظلم، لم يعد الإنسان يعرف نفسه ولا ماضيه، ولا حاضره وواقعه، ولا مستقبله ولا نهجه. لقد جعلت الحداثة عالم الإنسان عالما مجهولاً مظلما!

ويقول آخر بأنها «شغف بالمجهول يؤدي إلى تحطيم الواقع» نعم. إنها شغف

بالمجهول، بالتيه، بالظلام، شغف يحطم الواقع ويدمره، ولكن لا ينقلك إلى واقع أفضل، إلا في خدر السكر، وغيبوبة المخدرات، وأحلام السكارى. فلا عجب إذن أن يحسب بعضهم أن أصولها تعود إلى شاعر المخدرات الفرنسي شارل بودلير (١٨٢١ ـ ١٨٦٧ م).

لقد نشأ **بودلير** في أحضان المخدِّرات والمسكرات، والشهوة الجنسية الفاجرة بين اليهودية سارة وزنجية أخرى، ونشأ في أحضان اليتم في مجتمع قاس مضطرب هائج، لا يجد فيه حنان الأبوة والأمومة، ولا حنان المجتمع، ولا حنان الإنسان. لم يجد إلا حنان الجنس الداعر، والخدر الفاجر. فقذف **بودلير** مآسيه كلها وفجوره وسكره وعهره في ديوانه الذي سمّاه «أزهار الشّر».

لقد عرضنا في كتاب «الأدب الإسلاميّ إنسانيته وعالميته» الأسباب الرئيسية لاضطراب الفكر في أوروبا هذه الحقبة الطويلة من الزمن، وعزونا ذلك إلى ثلاثة أسباب رئيسية :ـ

أولاً : سيطرة الفكر الوَثنيّ وأدبه على اليونان فترة طويلة، ثم على الإمبراطورية الرومانية حين غلبت فيها الحضارة اليونانية وآثارها وفكرها، ثم استمرار هذا التأثير في أوروبا حتى يومنا هذا، على تفاوت في درجة التأثير.

ثانياً : فشل «المسيحية» التي ظهرت في أوروبا في تقديم البديل العملي الناجح للوثنية اليونانية. فالمسيحية جاءت في أساسها إلى قوم محدودين وبيئة محدودة، ولم تأت إلى البشرية كلها، فلم تحمل معها علاج مشاكل المجتمع الأوروبي على مدى التاريخ. وعندما دعم قسطنطين «المسيحية» في أوروبا، دعمها نفوذاً وسلطاناً، ولم يدعمها فكرة وعقيدة وإيماناً وتوحيداً. وكان حكم قسطنطين أقرب الى الوثنية منه إلى التوحيد والإيمان. فنتجت ردود فعل عديدة زادت من الاضطراب والقلق.

ثالثاً : توقف المد الإسلامي سواء أكان من الشرق أم الغرب، فحُرِمتْ أوروبا، لحكمة يريدها الله سبحانه وتعالى، من نور الإيمان في مرحلة كانت هي في

أشد الحاجة إليه.

فكونت هذه الأسباب الثلاثة الجو الذي زرع القلق والاضطراب في حياة أوروبا، وأنبت المذاهب الأدبية المتلاحقة، كلٌّ مذهب هو ردُّ فعل للمذهب السابق، رد فعل لا يجمع إلا القلق إلى قلق، والحيرة إلى حيرة. فظهرت في الأدب المذاهب المتلاحقة: **الكلاسيكي، الرومانسي، الواقعي، البرناسي، الرمزي، السريالي، الوجودي**. وتتابعت المذاهب بعد ذلك، كل مذهب أدبيّ له في ساحة الفكر والفلسفة مددٌ وحبال، يحمل ذلك كله رجال سقطوا في وحل الفساد والفاحشة والظلم. وعمّ في أوروبا، في جميع عهودها، اضطراب وقلق وظلام، لم ترفعه المصانع والآلات، ولا العلوم والدراسات. هناك ظهرت «الحداثة» لتمثل ذروة الضياع والقلق، وذروة الرمزية والوجودية والسريالية، وهناك كانت جذورها في تاريخ طويل.

وفي هذا التاريخ الطويل لا يقف (بودلير) وحده، وإنما يقف معه عدد في مختلف أقطار أوروبا. يقف معه في فرنسا **(مالارميه)**، و **(فيرلين)**، وفي أمريكا **(ألن بو)** و **(آرنست همنغواي)**، وفي انكلترا **(ت. إس. إليوت)**، وفي ألمانيا **(ريلكة)**، وآخرون هنا وهناك.

من هذا نرى أن الحداثة في أوروبا نشأت في أجواء من الظلم والاضطراب. ولم يكن (بودلير) وحده يعاني في تلك المجتمعات. لقد كان القلق والخوف يمسّ عدداً غير قليل، إذا قسنا ذلك المجتمع بميزان الإيمان والتوحيد. ومن هنا نستطيع أن نستنتج أن المذاهب الفلسفية والأدبية في أوروبا كانت أشبه بردود الفعل، ولم تكن تمثل حركة نمو طبيعيّ. وكان كل مذهب يحمل في ذاته بذور سقوطه ليقوم مكانه مذهب جديد يعارضه ويناقضه.

فكانت هذه المذاهب الفلسفية والأدبية لا تمثّل في حياة الإنسان خَطًّا نامياً مستمّراً، كما تمثل دعوة الإيمان والتوحيد، إنها تُمثِّلُ فورات سرعان ما تهمد، حتى ولو قام غيرها، ليهمد هو بعد حين.

واختلفت آراء النقاد في تحديد تاريخ نشوء الحداثة وفي تحديد مكان نشوئها أيضا. فرأى بعضهم أنها بدأت مع عام ١٨٣٠ م في باريس. ورأى بعضهم أنها ابتدأت مع (إميل زولا) في كتابه «الرواية التجريبية» سنة ١٨٨٠. وبعضهم يعتبر مؤسسها (بودلير)، كما ذكرنا. ويعتبر (سيرل كونلي) أن فرنسا هي مهد الحداثة الانكلوأميركية. فمنها انتقلت بطيئة إلى انكلترا، ثم ازدهرت في أمريكا. ويعتقد (أ. الفير) بأن من يطلب دراسة الحداثة فعليه الرجوع إلى الثلاثين سنة الأولى من القرن العشرين. وأما (فرانك كيرمود) فيرى بأنها السنوات العشر الأولى، فهي التى تمثل في رأيه البداية الحقيقية. أما (فرجينيا وولف) فإنها تنتخب سنة (١٩١٠ م) كنقطة بداية للحداثة. فهي تقول: «إنه حدث تغيير كبير في العلاقات بين الناس: بين السيد والمسود، والزوج والزوجة، والابن وأبويه». و (د. هـ. لورنس) يقول: «لقد انتهى العالم القديم في عام ١٩١٥». ويرى المفكرون الانكليز والأمريكان أن سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى هي سنوات تكوين لهذه الحركة.

ومع اختلاف النقاد حول ميلاد الحداثة فهناك اختلاف آخر نشأ بعد ذلك حول موت الحداثة. ولذلك أخذت تظهر تعبيرات مثل: (ما بعد الحداثة Post Modernism) ولعلّ «المستقبلية» الروسية كانت تمثل شكل الحداثة التي ظهرت في روسيا حين منح فلاديمير مايا كوفسكي نفسه لقب «زرادشت زماننا الصخاب» بحدود سنة ١٩١٥، إلا أنه مع سنة ١٩٣٠ كانت الحداثة الروسية تنتهي مع انتحار مايا كوفسكي نفسه. وما بين ١٩١٩ و ١٩٢٢ كانت الدادائية تنتهي كذلك في زيوريخ وبرلين وكولون. والدادائية نموذج من نماذج الحداثة المتأخرة كذلك، كما سنبين في فصول مقبلة إن شاء الله.

وبتتبع حركة الحداثة مابين ميلادها وموتها، نرى أنها حركة ابتدأت من نقطة في أوروبا ثم انتقلت من بلد إلى بلد، تموت هنا وتولد هناك. فمرت في رحلتها على معظم دول أوروبا الغربية مثل فرنسا وألمانيا وانكلترا، وتحركت إلى روسيا وإلى أمريكا. وخلال هذه الرحلة الطويلة قذفت العالم الإسلامي ببعض سمومها. وتتميز الصورة الحداثية التي غزت بلاد العالم الإسلامي بأنها جمعت سموم النظريات

المادية، كالمادية الجدلية والمادية التاريخية، وسموم النظريات الرأسمالية، جمعت هذا وذاك بأسلوب يبدو محيّرا أحيانا، لا تكاد معه تعرف حقيقة اللون والطعم، إلا أنه لون معتم على كل حال، وطعم مرّ، وشرّ كبير على الإنسان في الأرض كلها.

وتسللت الحداثة إلى عالمنا على بريق الرغبة في النمو والتطور، والتجديد والتحديث. تسللت وهي تقلب معاني النمّو والتطور في ظل دَعاوَة واسعة قوية، وتعابير غامضة، مُحَيِّرة، تصيب بالدّوار والضياع. والغموضُ نفسه يكون أحياناً قوة قنص، وأداة جذب.

ولم تَفدِ الحداثة إلينا موجة واحدة مفاجئة. ولكنها حاولت التسلل إلى ديارنا وعقولنا وقلوبنا على دفعات ومراحل. ولم تأت كذلك بزيّ واحد ثابت نعرفه، ولكنها حملت أزياء الوطنية والتقدمية، وتزينت بزخرف الحرية والعدالة والإنسانية، وصبغت نفسها بأصباغ الفكر والفلسفة، والسياسة والاقتصاد، والاجتماع والتربية، وجاءتنا كذلك في أزياء وزخارف وأصباغ الأدب من جميع أبوابه، دون أن تفقد صلتها وارتباطها بجذورها الفكرية.

وفدت إلينا، إلى مجتمعاتنا، لتحمل في كل مجتمع أيسر المداخل إليه، وأسلم المنافذ لدياره وأبنائه.

ولم يكن الحديث عن التجديد في الغرب والشرق حديثاً مفاجئاً. ولكنه أمر متصل بتاريخ طويل، حتى انك تشعر بالارتباط بين هذا الفكر وذاك، والاتصال بين داعية قديم وداعية جديد. فالوجودية، والرمزية، والسريالية، والمادية الجدلية، والمادية التاريخية، والاشتراكية العلمية، وكثير غيرها من الأفكار والمبادىء، هي قاعدة لها ومنطلق، أو هي امتداد وتلّون.

من دعاتها في الغرب: لوي أراجون، هنري لوفيفر، أوجين جرندال، رولان بارت، رومان ياكوبسون، ليفي شتراوس، بياجيه، وغيرهم.

أما دعاتها في العالم العربي: فحدث ولا حرج. فكاهنهم الأول يبدو أنه

أدونيس (علي أحمد سعيد)، وزوجته خالدة سعيد، والشيوعي عبدالله العروي، والدكتور كمال أبوديب، ومحمد عفيفي مطر، ومحمود درويش، وسميح القاسم، وحسين مروة، وصلاح عبدالصبور، وعبد العزيز المقالح، وعبدالوهاب البياتي، ونزار قباني وغيرهم.

ولقد دفع رجال الحداثة مصطلحات في دنيا الفكر والأدب، وقذفوا بأسماء كأنها الطلاسم: **غموض في الفكر والكلمة، وغموض في الأسماء والمصطلحات.** إنها أسماء سموها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان. إنها دفقات الشهوة والخدر من الإنسان الضائع، الإنسان الخائف القلق الحائر. تتزاحم الألفاظ والمسميات في دنيا الفلسفة والأدب والاجتماع، تتزاحم وتختلط حتى تكاد تضيع المعالم والملامح. إنها جميعها تلتقي في بوتقة الوثنية والكفر، والماديّة والشرك. ذلك لأنها كلها لم تستضيء بنور الإسلام، ولم تهتد بهدي الإيمان. فإذا كان غياب الإسلام عن العالم الغربيّ تلك القرون الطويلة، وإذا كان فشل المسيحية في أن تقدم أيّ بديل صالح عن الوثنية، وإذا كانت الوثنية اليونانية والرومانية أفسدت جذور الحياة الغربيّة، إذا كان هذا كله يقف أسباباً توضح هذه الظاهرة العنيفة من القلق والحيرة والانفجار في الغرب، فما هو عُذرنا هنا في أرض النبوات، وإشراق الإيمان، وميادين الإسلام؟.

إننا لن نجد هنا أسباباً إلا أن تكون امتداداً لفكر على سنّة من سنن الحياة، وتقليداً أعمى لمذهب، وتبعيّة الضائع المتفلّت، وذلة الضعيف أمام القويّ، واندفاعة الجهل، وحميّ عاطفة غير واعية. إن أسباب هذه التبعيّة في ديارنا لا تقوم على صحّة ما نتبعه ونُدعَى إليه من فكر، ولا تقوم على حاجة التابع الذليل إلى ما يلهث وراءه.

إن الحداثة، إذا ظهرتْ في البلاد الإسلامية، فلن تمثل الحاجة إلى انفجار أو زلزال كما حدث في أوروبا، أو كما عرفها (رولان بارت)، ذلك لوجود قواعد إيمانية مستقرة تظلُّ تترك أثرها مهما اضطربت الظروف. ولكنها قد تمثل تسللاً خفياً، وانسياباً هادئاً، تدفعه قوى شيطانية في الأرض مع سائر ما تدفعه من مكر وعدوان.

إنها تسللت مع وهج الرغبة في التجديد، الرغبة الثابتة في فطرة الإنسان. فالإنسان بطبعه يحب التجديد والتغيير، ويحبّ النمو والتطور، وهذا كله من سنّة الحياة، من سنن الله في حياة الإنسان. ولكنّ هذه الرغبة لا يجوز أن نفصلها عن سائر خصائص فطرة ابن آدم. فإن الرغبات والقوى تعمل كلها في الفطرة السويّة عملاً متوازناً، عملا هو يدفع النمّو والتطور والتجديد في دربه القويم، ليبني حياة الإنسان، وعمارة الأرض وحضارة الإيمان. إن هذه الفطرة السويّة في الإنسان تحمل الإيمان بالله الـواحـد الأحد، الفطرة التي تعرف مهمتها في الحياة الدنيا، وأمانتها وعبادتها، واستخلافها، ومسئولية عمارة الأرض. إن هذه الفطرة تجعل التجديد بناءً يستفيد من كل عمل صالح في تاريخ الإنسان. ويظلّ العمل الصالح يمثل خطاً نامياً متـطوراً في حياة الإنســان يبني ولا يهدم، يصــل ولا يقطع. سَيَظَلُّ في حياة الإنســان على الأرض ثوابت وحقائق، لا ينقضها علم ولا زمن ولا نزوة طائش. ستظل في ا لحياة الدنيا سنناً ثابتة لا تتبدّل:

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (فاطر : ٤٣)

ستــظل حركـة الشمس، والقمـر، وستظل الولادة والنمو والنشأة والحياة، وسيظل المـوت، وسيظل الإنســان على نوازعه وطبيعته التي خلق عليها، وستظل النباتات والحيوانات والأنهار والبحار والسموات والأرض، ستظل هذه حقائق حتى تقوم الساعة. سيظل هنالك نظام في الكون، ومهمة الإنسان أن يتعرف على هذا النظام وعلى أسسه. ولو لم يكن هنالك سنن ثابتة في الحياة، لما استطاع الإنسان أن يفعل شيئاً في الحياة الدنيا، ولا استطاع أن يكتشف أو يخترع. فالحقائق والثوابت أمـر بدهي، أمر يفرضه الواقع الذي عاشه الإنسان على الأرض، أمر نصل إليه بالعلم والبحث، أمر علمنا إياه الله في وحيه المتنزل على عبده محمد ﷺ. إن هذه السنن تمثل رحمة من الله سبحانه وتعالى على كل المخلوقات، ورحمة واسعة للإنسان. فلو لم يكن للكون نظام ثابت لاستحال على الإنسان أن يصل إلى نتيجة يبني عليها خطوة، لينتقل منها إلى خطوة أخرى. إن أساس النمو والتطور، وأساس التجديد

والإبداع، هو هذه السنن الربانية الثابتة، والنظام الثابت. ويمضي العلم في حياة الإنسان ليثبت كل يوم وجود هذه السنن الثابتة والقوانين. للريح وحركتها قوانينها، للأمطار قوانينها، للشمس وحركتها قوانينها، للقمر، لسائر النجوم والكواكب. ولولا أن نظامها ثابت لما استطاع الإنسان أن يتطور في علمه وبحثه حتى ينزل على القمر، ويجوب الآفاق في الكون.

النمو والتطور، التحديث الطاهر والتجديد النافع، كل ذلك يقوم على أساس وجود السنن الربانية الثابتة، ووجود النظام الكوني الثابت. هذه حقيقة يثبتها العلم، ويعلمنا إياها الدين، ويقر بها العقل الصاحي الذي لم تقتله المخدّرات والمسكرات، ولا الشهوات والنزوات.

لقد قدمنا لمحات عن تعريف الحداثة عند الغرب. ولقد تسللت الحداثة إلى عالمنا مع سائر ما تسلل من موبقات العالم الغربي. ونهض أنصار لها كما نهض أنصار للسفور ولمحاربة اللغة العربية والدين والأخلاق، تحت شعار التجديد والنمو والتطور. لقد كان الغرب يهدف، وهو ينشر هذه الموبقات، إلى أن تستهلك الأمة طاقتها في حمى الفتنة والشهوة، وتيه الضياع والقلق والاضطراب. ولكن يبدو أن الدعوات في الأرض مهما ضلت فستجد أنصاراً. ألم تجد عبادة القرود أنصارا، والبقر، والحجر، والأصنام؟. ألم يعبد الإنسانُ الإنسانَ؟ مهما تدنت الأفكار وضلت فستجد لها أنصاراً، مهما كان عددهم قليلاً!

فمن هذا العرض السريع لتعريف متنوع للحداثة، ووجهات نظر متعددة، نضع تعريفنا الخاص لها على أساس من تصورنا الإيماني:

« (إن الحداثة) اليوم تمثل الصورة المنحرفة لسعي الإنسان إلى الجديد، سعياً متفلتاً من الإيمان والتوحيد، غارقاً في ظلام الشرك والإلحاد، سعياً يجمع خبرة آلاف السنين من الانحراف والشذوذ، والأمراض النفسية والعصبية، والشر والفساد في الأرض، وطغيان الشهوة الجنسية الملتهبة، وفورة سائر الشهوات، وسيطرة الأفيون

والخمر والمخدرات، لتدفع هذه كلُّها ردودَ فعل نفسيّة عنيفة غير واعية، تظهر في الفكـر والأدب والسلوك، في ثورة هائجـة تحاول هدم المـاضي والحـاضر بصـورة مستمرّة متتالية، مع القلق والخوف القاتل من المستقبل، في هجوم جنوني على الدين واللغة، وعلى التراث كله بما فيه من خير وشر، وثورة على الحياة، وعلى سنن الله في الكـون، بين قلق الشـك والـريبـة، وفجـور الكـبر والغرور. إنها تمثل انحطاط الإنسان إلى أسفل سافلين».

ومهـما فعلت «الحداثة» في خطها هذا، فإن الإيمان والتوحيد، ماضيان في الأرض، يمدان الإنسان بالخير والإحسان. وستظل «الفئة الظاهرة» تجاهد في الحياة الدنيا في سبيل الله، قدراً من عند الله، وسنّة ثابتة من سننه، حتى يرث الله الأرض ومن عليها:

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

(هود: ١١٦، ١١٧)



الفصل الثالث
ولادة الحداثة: ظروفها ونموّها

١ . ظروف الولادة والنشأة وأرضها:

أخذ القرن التاسع عشر يزحف نحو نهايته، وهو مثقل بالأحمال، من أحداثٍ وعلوم ومفاجآت، أحمال اضطربت فيه واختلطت حتى بدا كأنه لم يَعُدْ يقوى على ضبطها وتنسيقها، فألقى بحمله هذا كله بين يدي القرن العشرين، ليبسط فيه فيض العطاء المضطرب، وليرتبط قرن بقرن، ولتمضي سنن الله في الكون والحياة، وتمضي سنّة الابتلاء والتمحيص لبني آدم في الحياة الدنيا، حتى تقوم عليهم الحجة في الآخرة، فلا يبقى عذر لباطل ولا حجة لشرك.

ولقد ظهرت بعض آيات الله للإنسان، وظهر فضل الله عليه في كل ميدان من ميادين الحياة، عسى أن يتدبَّر ويتذكَّر، ويتوبَ ويؤوب. آية بعد آية، كل آية تقرع القلوب والأحناء، وتقرع الآذان! لقد تتابعت الآيات، وتتابعت نعم الله تتابعا جعل بعض الناس يحسبها مفاجئة وماهي بمفاجئة، أو جديدة وماهي كذلك. ولكنها كانت سنناً ربانية متصلة، ونعماً ربانيّة متواصلة على الإنسان: كل عصر يمهّد للعصر بعده، وكل علم يتصل بالعلم قبله وبعده.

أ. تقدم العلوم التطبيقية:

امتدت علوم الكهرباء في حياة الإنسان مع غيرها من العلوم كالرياضيات والفيزياء والكيمياء وغيرها. امتدت هذه العلوم كلها حتى ولَّدت دفقة غنيّة في القرن التاسع عشر. فمن نظريات المقاومة والجهد والتيار الكهربائي على يد (سايمون اوم ت ١٨٥٤)، إلى نظرية البطاريات على يد (الكسندر فولتا ت ١٨٥١). ثم تمتد هذه الدراسات في الكهرباء والمغناطيس حتى تكتشف العلاقة الحميمة بينهما على يد علماء

مثل: (هانز كرايستان اورستد)، و (أندريه ماري أمبير) و (مايكل فارادي). وتنمو علوم الرياضيات في نفس الوقت حتى تجمع عبقرية (جيمس كلارك ماكسويل ت ١٨٧٩) نظرية الموجات الالكترومغناطيسية في معادلاته الشهيرة ونظرياته الهامة. وفي نفس الوقت ينطلق خط آخر من النشاط العلمي يستفيد من الكهرباء والمغناطيس والعلاقة بينهما، فتظهر المولدات الكهربائية والمحرّكات.

وكان من ألمع الأسماء في هذا الميدان (نيكولا تيسلا). وينتقل الإنسان بنعمة من الله وفضل ليدرس طبقات الجو والطبقات الأيونية فيه على يد علماء من أبرزهم: (ستيوارت) و (شاتر) و (كينللي) و (هيفي سايد), و (أبلتون). وبهذا الاكتشاف ينمو علم الاتصالات ويظهر نشاط (ماركوني ت ١٩٣٧) الهائل في هذا الميدان. وتزدحم أسماء العلماء في مختلف العلوم ازدحاماً كبيراً. وكان من أكثر الاكتشافات إثارة هو اكتشاف خواص الراديوم الاشعاعية، واكتشاف النظائر. وقدم (ماكس بلانك) نظرية الكم، واكتشف (رونتجن) أشعة إكس. وامتدت الدراسات الواسعة حول الذرة يقوم بها علماء على رأسهم (ج. تومسون) و (رذرفورد) و (سودي) و (نلس بوهر)، حتى نشأ التصور الجديد بإمكانية تجزئة الذرة، خلافاً للمعتقدات السابقة. وجاءت بعد ذلك النظرية النسبية الخاصة (لآنشتاين) سنة ١٩٠٥م، ثم النظرية النسبية العامة له سنة ١٩١٥م لتتوج النشاط العلمي.

ومع هذا التقدم السريع المتلاحق كانت أبحاث الطاقة وتوليدها في سباق كبير لتستفيد من الماء والفحم والبترول، ولتنطلق الصناعات في ثورة محمومة، فتهدر مكائن الديزل والمولدات الكهربائية والطوربينات. ثم تأتي السيارات والطائرات. ويرافق ذلك نمو في مختلف ميادين الصناعة كالصناعة الكيماوية التي قدمت الأقمشة الصناعية ومواد البلاستيك والأصباغ. ونَمَتْ كذلك صناعة الأسلحة الفتاكة، وظهرت السينما، وانطلقت الإذاعة والمبرقات والهاتف، وانطلقت الصحافة والكتب مع تطور في وسائل الطباعة وأجهزتها.

يضاف إلى هذا كله نمو في سائر ميادين العلوم البشرية كالطب والجراحة، والهندسة بمختلف فروعها. وكان كل علم يساعد في نمو العلوم الأخرى، حتى

أخذت العلوم كلها تتقارب وتفتح ميادين جديدة. ولقد كانت العلوم كلها تكشف للإنسان آية بعد آية، وسنّة من سنن الله بعد سنة، ذلك لمن كان له بصر وبصيرة.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ ﴾ (فصلت: ٥٣)

هذه الزحمة الظاهرة في العلوم التطبيقية أذهلت الناس حتى رأوا فيها سرعة خاطفة، وفجاءة مذهلة، هائلة، حتى كأنها حجم مستقل لايرتبط بشيء قبله، ولا يرى الناس شيئاً بعده. كالنائم الغافي إذا هزّه حدث وأيقظه، فلا يرى فيه إلا الفجاءة والذهول، والحيرة والاضطراب. هكذا شأن الإنسان اللاهي، حتى الموت لا يرى فيه إلا الحدث المفاجيء المذهل، الخاطف السريع، منفصلاً عن الولادة والحياة، معزولاً عن البعث والدار الآخرة. هكذا شأن الإنسان اللاهي، أمّا الإنسان المؤمن فإنه يرى الأقدار سنناً لله تتوالى، وآيات تعظ وتذكّر، حتى يخشع وينيب.

هكذا كانت أوروبا في القرن التاسع عشر غارقة في شهوات محمومة، لاهثة في سباق مادي جبّار، ملوّثة في جنس ورجس، ورغبات مجنونة في الثراء، بين خمر ونساء ومخدِّرات. لقد ساق أوروبا إلى هذه الغفلة تاريخ طويل. ابتدأت أوروبا نشاطها الفكري في إجلال الفكر اليوناني والروماني بكل ما يحمل من وثنيّة وإلحاد. وعلى هذا الفكر قام المذهب الكلاسيكي في الأدب ومن ورائه فلسفة وفكر. حتى إذا ملّ الناس هذا المذهب، وعجز عن تحقيق الأمن في النفوس والسكينة في القلوب ظهر المذهب الرومانسيّ رد فعل للمذهب الكلاسيكي، ثم أخذت المذاهب الأدبية تتوالى كل مذهب يمثل رد فعل لسابقه وممهداً للاحقه. ومع كل مذهب فلسفته المضطربة وفكره الحائر غير المستقر. فزادت هذه المذاهب والفلسفات في عمق التيه المظلم الذي دخلته أوروبا.

ب. عزل الدين عن المجتمع ومداه:

أما الدين النصراني فما كان يقوى على معالجة مشاكل أوروبا. فقد جاء في

أساسه إلى قوم محدودين وبيئة محدودة، كما يبين لنا هذا حديث رسول الله ﷺ:

عن أبي هريرة، رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**فُضِّلت على الأنبياء بست: أُعطيت جوامع الكلم، ونُصرتُ بالرعب، وأُحِلّت ليَ الغنائم، وجُعِلَتْ ليَ الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسِلْتُ إلى الخلق كافّة وخُتِمَ بيَ النبيّون**».

رواه مسلم[1]

يضاف إلى ذلك ما أدخله الناس في الدين النصراني، وما تأثر به الدين من الفكر اليوناني والروماني. وزاد الأمر سوءاً فشل حَمَلتهِ ودُعاتِه في تمثيله وممارسته في واقع الحياة، بعد أن غرقوا هم أنفسهم في حمأة الجنس الملوث، وشهوة السلطة الظالمة، وجنون الثراء الطاغي، وتوقفت الدعوة الإسلامية من الغرب على أبواب فرنسا ومن الشرق على أبواب النمسا، فحُرِمَتْ أوروبا من نور الإسلام في وقت كانت هي في أمس الحاجة إليه[2]. فأخذت النغمة على الدين تقوى حتى عزلته أوروبا وعزلت رجاله في الكنائس والصومعات، وفصلته عن الحياة قانوناً ونظاماً. لقد فشل الدين النصراني في هذا المعترك الرهيب، ولكن بقي له أثران عجيبان:

[أولاً]: الأثر النفسي العاطفي لدى الناس، الأثر الذي يقوى ويضعف على فترات تختلف من زمن إلى زمن ومن بلد إلى بلد.

[ثانياً]: استغلال أهل السلطة وأرباب المصالح للعاطفة الدينية ورجال الدين في تأمين مطامعهم الجشعة ودعم سلطانهم الظالم في الأرض. لقد انطلق القساوسة والرهبان في مقدمة الجيوش الأوروبية الغازية المعتدية، انطلقوا تحت شعار التنصير، ليمهّدوا الدرب ويشقوا المسالك للطغاة الظالمين المفسدين في أنحاء الأرض، في مؤامرات دنيئة وجرائم رهيبة. ولما وجد هؤلاء أن الدين الإسلامي هو الذي يقف في وجه عدوانهم وجرائمهم ومؤامراتهم، شنّوا عليه حرباً واسعة، وأخذوا

---

(١) صحيح مسلم. كتاب المساجد ومواضع الصلاة. حديث رقم (٥٢٣).

(٢) يراجع كتاب: الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته، ط (٢)، للمؤلف، الباب الرابع الفصل الأول: «الإسلام ومذاهب الأدب الغربي». لمزيد من الايضاحات.

يغرسون في نفوس الأجيال حقداً دفيناً ضد الإسلام، ويتعاون أهل السلطة وأرباب المصالح ورجال الدين والمستشرقون على غرس هذا الحقد الأسود الظالم في تاريخ طويل.

هكذا تحول الدين في أوروبا إلى عاطفة تقوى وتضعف في نفوس الناس، وإلى حقد على الإسلام، وأداة للاعتداء على الشعوب، ولنهب الثروات، ولنشر الفساد في الأرض. وفيما عدا ذلك فقد عُزل الدين عن المجتمع في نظام حياة علماني. واعتبر الكثيرون أن هذا كان تحرراً وتقدُّماً وتحديثا للحياة. وأصبح عزل الدين عن الحياة أساساً من أسس «الحداثة» التي نحن في صدد دراستها، بل أصبح في واقع الأمر أهم أساس وأخطره. وظلت أوروبا ومعها أمريكا وروسيا يعيشون كلهم في هذا المظهر من التناقض المحيّر: عزل للدين في نظام علماني، واستغلال للدين في أبواب الظلم. ومضت حياة التناقض تؤثر في النفوس والفكر تأثيراً ينمو مع الزمن.

من خلال هذا الظلام الدامس، ظهرت الاكتشافات والنظريات العلمية، على نحو ما ذكرنا من مسيرة العلوم التطبيقية، تدفعها الأبحاث والتجارب والمعامل والإحصاء، ويمضي بها السعي والبحث والتنقيب، فتجتمع «قواعد علمية» من خلال ذلك، يقبل عليها الناس بعد أن نفضوا أيديهم من الدين، يقبلون عليها ليجعلوا منها حقًّا مطلقا لا يأتيه الباطل أبداً. وظنّ الكثيرون أن «العقل» وحده هو الذي أوصل الناس إلى هذه العلوم. فأخذ «العقل» مكاناً مقدَّساً ومنزلة جليلة، كما أخذ العلم هذه المنزلة كذلك، في وسط ظلام وديجور من وثنية ممتدة، وعلمانية مسيطرة، تغلِّفها عواطف دينية مضطربة مبهمة! ومضت مسيرة هذه العلوم لتكتشف آيات الله في الكون، على سنن لله ثابتة لا يدركها الناس ولا العلماء. وفتح الله للناس هذا الميدان ابتلاءً منه لخلقه وتمحيصاً لهم، وبرهاناً مشرقاً أمامهم على التوحيد والإيمان، حتى يميز الله الخبيث من الطيب، وحتى تقوم الحجة على كل إنسان، فلا يبقى عذر لباطل ولا حجة لشرك أبدا. ومضت مسيرة العلوم التطبيقية هذه لتستقرّ بها قواعد وقوانين. ومع الأيام، وتوالي الأبحاث والدراسات، أخذت بعض النظريات العلمية تهتزّ، وبعض القوانين تسقط، وبعضها يتعدّل. فاهتزّت الثقة

المطلقة بالعلوم، وبدأ الناس والعلماء يشعرون، أو يشعر بعضهم، أن ما يكتشفونه قد لا يكون حقاً مطلقاً يسود الكون كله، ويصدق في جميع العصور والأجيال، وفي جميع آفاق الكون. فالحق المطلق إذن شيء آخر. وبدأت الريبة والشك تمتد في النفوس، وظهرت الحيرة والاضطراب، ووراء كل فكرة فلسفة تدعمها مذاهب.
وتابعت العلوم التطبيقية مسيرتها في هذا الظلام الدامس، بعيداً عن نور الإيمان والتوحيد، لتكتشف بعض آيات الله في الكون، معتمدة على التجارب والبحث والتنقيب، مما أدى إلى استقرار «قواعد علمية» في البحث والدراسة، والقبول والرفض، والبرهان والإنكار، قواعد أخذت صفة دولية عامة. ومع ذلك ففشل بعض النظريات والقوانين أو تعديلها ولّد صدمات نفسيّة زادت الحيرةُ معها والاضطراب. ولكن البناء العلمي التطبيقي ظل ينمو نموّاً مُطّرداً.

جـ. خصائص نمو العلوم الانسانية:

أما مسيرة العلوم الأُخرى، مما يمكن أن نسميه اصطلاحاً بالعلوم الإنسانية، فقد أخذ منحى آخر تجري فيه علوم التربية والاجتماع والأدب والفلسفة وعلم النفس. فقد أخذت هذه العلوم منحى المذاهب ووجهات النظر أكثر من منحى القواعد المستقرَّة التي تنهض عليها قواعد أُخرى. وفي كل علم كانت تتصارع المذاهب والآراء. ففي الأدب مثلا حين ظهر المذهب الكلاسيكي، كان يحمل معه بذور انهياره ليظهر المذهب الرومانسي ردّ فعل له. وهكذا تتوالى المذاهب، كل مذهب هو رد فعل للمذهب السابق. وكل مذهب كان يأخذ جزئية في الحياة، أو نظرة محدودة، ليجعل منها حقّاً مطلقاً يقوم عليه المذهب كله. يضاف إلى ذلك أن كل مذهب كانت تدعمه في غالب الأحيان فلسفة خاصة به، تبرر وجهة نظره وتضل مثل ضلاله. وظلت هذه الخصائص ملازمة للدراسات الإنسانية ومسيرتها في صراع مستمر لا يتوقف، حتى غرس هذا الصراع في النفوس شكاً يزيد مع الأيام، وحيرة تتسع، مع كبر وغرور، في متاهة مظلمة بعيدة كذلك عن نور الإيمان والتوحيد، بعيدة عن إشراقة الوحي المتنزِّل على محمد ﷺ، بعيدة عن ضياء الإسلام وانبلاجه.

فإذا كانت العلوم التطبيقية قد ولّدت في النفوس كبراً وغروراً مع صدمات نفسية أورثت حيرة وشكاً، فإن صراع المذاهب هنا ولّد عمقاً أبعد للحيرة والشك، والظلمة والاضطراب، والتناقض والتضارب، حتى أصبحت هذه كلها خصائص نامية في حياة أوروبا، وفي جميع ميادين نشاطها، لتكون كذلك خصائص أساسية في حركة الحداثة التي أخذت تنطلق من هذه الأجواء.

د. الثورة الصناعية وامتداد الطغيان والعدوان «الاستعمار»:

من أجواء الشرك والظلم والظلام، انطلقت العلوم التطبيقية لتتحول إلى آلات تدوّي ومصانع تهدر ومنتجات تطرح في الأسواق، وعلاقات جديدة تظهر في المجتمع بين عمال تلهث وراء رزقها، وأرباب مصالح تلهث في سباق ماديٍّ جبار، وثورة صناعية شاملة، قلبت موازين المجتمع وعلاقاته، وطرحت في أيدي الدول سلاحاً فتاكاً زاد من لهيب الصراع والتنافس. وانطلقت الدول الأوروبية، وعلى رأسها انكلترا، تدفع الجيوش في جميع أنحاء الأرض في حملات غزو واستعباد للشعوب، وطغيان وظلم، ونهب لثروات الأرض وخيراتها، وحملها إلى الطبقة المرفهة من أصحاب المصالح والسلطة، في حملات متتالية اعتاد الناس أن يسموها خطأً بالاستعمار. وكلمة الاستعمار في اللغة العربية تعني «طلب العمارة». ولقد حملت هذه الكلمة أجمل الظلال وأندى المعاني من امتداد الأمانة التي حملها الإنسان، والعبادة التي خلق لها، كما عبّر عنها كتاب الله:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ (هود: ٦١)

ولكنّ هذه اللفظة أصبحت تحمل اليوم أقبح الصور والظلال: من استرقاق للشعوب، ونهب للديار، وفتك بالعباد، بين مجازر تملأ الأرض وأطلال من الدمار والخراب. أصبحت هذه اللفظة اليوم مغمّسة بدم الجريمة وأوحال الفساد، تنشره في الأرض دول أوروبا أولاً مثل انكلترا وفرنسا وإيطاليا وهولندا وإسبانيا والبرتغال وروسيا، ثم تتولى أمريكا كبر ذلك. وإذا بالعلوم التطبيقية هذه كلها تصبح أداة

تدمير وإبادة، ومصدر شقاء وخوف، تبني ثم تهدم هي نفسها ما بنته، وتربّي ثم تسحق هي نفسها ما ربّته. ولذلك نؤثر أن لا نستعمل هذه اللفظة في ما درج الناس على استعمالها له، وعسى أن تكون كلمة استرقاق الشعوب أو الاستعباد، أو طغيان الغزاة ما يفيد في ذلك. وربّما أطلق المستشرقون أو بعض الأتباع لفظة الاستعمار تغطية لهول الجريمة التي يرتكبها الظالمون.

لقد أصبح هذا الطغيان، بقبحه الذي عرضناه، أساساً جديداً من أُسس «الحداثة» الآخذة بالنمو في أوروبا، «الحداثة» التي أخذت تنتقل من مدينة إلى مدينة، ليكون لها في كل مدينة قصة، ومع كل تجوال أحداث. وكانت مدن أوروبا، وهي تزخر بالعلوم التطبيقية كما أسميناها، والعلوم الإنسانية كذلك في ظلام الشرك والضلال، بين حيرة وشك، وقلق واضطراب، وتناقض وتضارب، مع موجات الفتك والدمار من طغيان الغزاة والعدوان، كانت مدن أوروبا تزخر بسكانها الملايين المتزايدين. فقد كان هنالك إحدى عشرة مدينة يبلغ سكان كل واحدة مليوناً من السكان. وبلغ سكان لندن سنة ١٩٠٠م خمس ملايين نسمة، وباريس ثلاث ملايين نسمة، وبرلين مليونين، ونيويورك خمساً. وأخذت هذه المدن وغيرها تهدر فيها المصانع والآلات ليغيب بين هديرها أنين الإنسان المسحوق، وزحفت الجيوش لتُطوى تحت أقدامها كل شكوى. وظهر في هذه المدن طبقة من الرجال عرفوا أبواب الربح الكبير، الربح الظالم فجمعوا فأوعَوا، وكنزوا وأثروا، ودارت بين أيديهم المصالح، وامتدت أمام أعينهم المطامح، وغلبت الشهوات، مثل (وليم ليفر) في انكلترا و (فورد) في أمريكا وغيرهما هنا وهناك. ودار الصراع بين الرجال وبين الدول، واشتدت حُمّى التنافس. وأصبحت بريطانيا وألمانيا وحدهما تدفعان إلى الأسواق بحدود ٦٠٪ من بضائع العالم، وضاعفت ألمانيا من انتاج الحديد والفولاذ والفحم. وكان الملك إدوارد السابع، ملك انكلترا، ابن الملكة فكتوريا هو حامي العالم الرأسمالي وراعي مصالح رجاله ومترفيه. وبرزت الفوارق الطبقية على صورة حادة جديدة، واتسعت الهوة بين الغنيّ والفقير، ونشأت طبقة العمال تصارع من أجل حقوقها، وتشكلت تنظيماتهم ومعارضتهم. ودُفعت المرأة إلى وسط هذا البحر المائج،

يستغل الواقع أنوثتها أقبح استغلال وأبشعه، وامتد الانحلال الخلقي، وثارت الشهوة الجنسية بين الخمور والمخدّرات، وظهر الفكر الذي يدافع عن هذا الفساد، والأدب الذي يُغَذّيه، والسلطة التي تلقي فيه بالوقود.

هـ- امتداد الظلم والفساد في الأرض على شكل قوى جديدة:

فلا عجب إذا ظهرت ردود فعل لهذه القوى الطاغية. فكانت الاشتراكية والمادية الجدلية والمادية التاريخية أعنف ردود الفعل التي ظهرت. فأخذت تنشط هذه القوى، خاصة بين طبقة العمال، ونادت النظرية الاشتراكية العلمية الماركسية بدكتاتورية البروليتاريا. وكلمة البروليتاريا تعني الطبقة العاملة. وقويت الحركة الاشتراكية ونمت وامتدت حتى تسلمت زمام الأمور في روسيا، فقامت لها دولة الاتحاد السوفياتي.

وفي هذا الخضم أخذت تظهر الحركة الصهيونيّة وتمتد شبكاتها ومؤسساتها في نواح متعددة من الأرض، ومن خلال مختلف المبادىء والنظريات، رأسمالية كانت أم اشتراكية. ولا نعتقد أن الحركة الصهيونية كانت جديدة كل الجدة، ولكننا نعتقد أنها كانت تمثل ذروة نمو النشاط اليهوديّ في الأرض، وذروة تجمعه في صيغة حركة تحشد خبرة آلاف السنين من الفساد والإجرام في الأرض. وخاضت الحركة الصهيونية مختلف الميادين: الاقتصادية والإعلامية والفكرية والصناعية والزراعية وبيوت المال والأندية. وفوق ذلك كله كانت تدفع كل أنواع الفجور والدعارة والإنحلال في الأرض كلها.

و: تخدير الانسان بالشهوات حتى يسهل سحقه:

وحتى تستطيع قوى الرأسمالية وقوى الاشتراكية من الاستمرار في استغلالها لقوى الإنسان والمجتمع، والاستمرار في بطشها وظلمها وعدوانها، فلم تكن تملك إلا أن تخدر الناس والخلق، تخدرهم حتى يفقدوا كل قدرة على المقاومة والاعتراض. وما كان يتيسَّر لها هذا التخدير إلا بنشر الفساد وإطلاق الشهوات، وعلى رأسها شهوة الجنس، من خلال شعارات وزخارف خادعة، من مثل الحرية الفرديّة، مساواة المرأة

بالرجل، العدالة الاجتماعية، حقوق الإنسان، الإخاء والحرية والمساواة. فانطلق لهيب الشهوات خدراً يسري مع الدماء في العروق، يخنق الصوت، ويقتل الكلمة، ويغلق العينين، ويصم الأذنين، حتى أصبح الناس كالقطيع، يساق فيجري لاهثاً وراء لقمة عيشه من الصباح حتى المساء، لا يجد فرصة لتأمل نظيف، ولا فرجة لفكر طاهر. وطلعت على الناس شعارات الديمقراطية في العالم الرأسمالي، وشعارات ديكتاتورية الطبقة العاملة في الاتحاد السوفياتي، وهذه وتلك، كل منهما يصوغ نظام الحياة صياغة تحمل من زخارف الإقناع الشيء الكثير. لقد عرضت الديمقراطية قدسية الحرية الفردية للقطيع المخدّر، ونجحت نجاحاً كبيراً في بناء الإدارة والنظام، مما سهل على الفرد معاملاته وإجراءاته. لقد كانت الإدارة والنظام جزءاً أساسياً في الحياة الديمقراطية، لتقنع الفرد بصلاح المجتمع من ناحية، ولتيسّر لأرباب المصالح قيادة القطيع المخدّر بالشهوات والخمور والمخدّرات، المخدّر بالحرية الفرديّة المتفلتة في الشهوة. ولقد نجح النظام الرأسمالي بصياغة الديمقراطية صياغة تربطه ربطاً وثيقاً عضوياً بالنظام الاقتصادي الجشع، والسياسيّ الظالم، والاجتماعي المنحل، وانصهرت هذه كلها في بوتقة واحدة انصهاراً كاملاً لا تستطيع معه أن تفصل جزءاً منها عن جزء. والتفت الناس يبحثون عن الحرية والاخاء والمساواة فلم يجدوها إلا في حانات الخمر ودور الدعارة وشهوات الجنس. ومع شدّة الخدر أحنو رؤوسهم كأنهم رضوا بما غنموا، وفرحوا بزخارف النظام الناجح والإدارة المنتجة، والحرية الفردية، بعد أن حرموا من حرية الايمان والتوحيد، وشملهم ظلام دامس من الشرك، أخذوا يعتادونه شيئاً فشيئاً.

وإذا كان النظام الرأسمالي قد نجح هذا النجاح في صياغة مصالحه وأطماعه من خلال النظام الديمقراطي، فإن الاشتراكية لم تكن أقل نجاحاً في صياغة مصالحها وأطماعها من خلال النظام الديكتاتوري ليقود الناس المخدّرين قطيعاً يُدفع في تيه عميق مظلم من الإلحاد والكفر الصريح. والتقى النظامان: الرأسمالي والاشتراكي في عزل الدين عن المجتمع، على الصورة التي عرضناها قبل صفحات في المجتمع الغربي، وعزلاً كاملاً في الاتحاد السوفياتي. كما عزل النظامان نور

الإسـلام عن مجتمعيهما، وغاصا في أوحال الشهوة الجنسية والخمور والمخدرات، ليجعلوا من هذه الأوحال ميدان الحرية والإخاء والمساواة. وظل النظامان يغرسان في مجتمعـاتهم أحقـاداً باطلة ضد الإسـلام، ليسهل عليهم تسخير هذا القطيع من شعوبهم في محاربة الإسلام، كلما اقتضت مصالحهم ذلك. ولا أدّل على ذلك من أنهم حين يفصلون الدين عن الدولة والمجتمع في بلادهم، وحين ينشرون المفاسد التي يحرمها الدين في بلادهم وفي الأرض كلها، فإنهم، في الوقت نفسه، يطلبون حماية النصارى المقيمين في دار الإسلام، يطلبون حمايتهم من مظالم كاذبة يدّعونها باطلاً، وينجحون في دعواهم أحياناً، بعد أن يشتروا ولاء بعض النصارى في دار الإسـلام. وفي الـوقت نفسه يظل القساوسة والرهبان ورجال الدين عندهم روّاد الجيوش الغازية المعتدية من خلال ما يسمونه حركات التنصير، ومبشّرين بالمجازر القادمة والهلاك المتلاحق.

في وسط هذا الظلام الدامس في أوروبا وأمريكا والاتحاد السوفياتي، في وسط هذا الـظلام من الشرك والإلحـاد، ربـما كانـت تظهـر بعض حقـائق العلوم والاكتشـافـات، أو بعض النـظريات والاجتهـادات، كأنها ومضـات نور سرعان ما تنطفىء، وسرعان ما يطويها ظلام الشرك والإلحاد، حين لايرى الناس في هذه العلوم آيات بيّنات تدل على التوحيد، وتهدي إلى الله الخالق الباريء المصور.

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(البقرة: ١٧، ١٨)

ز: ولادة الحداثة وتاريخ ولادتها:

هنا، من وسط ظلام الشرك الممتد ودَيْجُورِه، بين حَيْرَةٍ واضطراب، وتناقض وقلق وخوف، وكبر وغرور، وعدوان وطغيان، من هنا أخذت «الحداثة» التي ندرسها

تولد وتنمو. ومع ذلك فليست «الحداثة» هذه، بالرغم من الإسم الذي تحمله، شيئاً جديداً في حياة الإنسان على الأرض، إلا بمقدار ما جدَّ فيها من تعابير وأساليب، أو أحداث ومفاجآت، أو زينة وزخارف. ذلك لأن رغبة التجديد والبحث عن الحديث هو أمر قديم في حياة الإنسان، يحمل مع كل عصر زخرفه وزينته، وأساليبه وتعابيره. إنها سنّة الله، إنها فطرة الإنسان، لو أنها تابعت مسيرتها مع الفطرة السوية. فالإنسان إذن يبحث عن «الحديث»، ويسعى وراء الجديد. ولكنّ هذا البحث والسعي يأخذ في حياة الإنسان أحد مسارين: مسار يقوده الإيمان والتوحيد، والنبوة والوحي، ومنهاج الله الذي يُنير الدرب ويزيح الظلمات، يُعرِض عنه المكذبون المستهزءون، ويسيرُ فيهِ المؤمنون المصدقون:

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ ﴾ (الشعراء: ٥، ٦)

ومسار يقوده الشرك، بعيداً عن الإيمان والتوحيد، والنُبوة والوحي، بعيداً عن منهاج الله ونوره وضيائه. هذا المسار المنحرف هو الذي نسميه اليوم «الحداثة»، وهو المسار الذي ندرسه اليوم. إن هذا الانحراف كذلك قديم في حياة الإنسان على الأرض، بدأ مع انحراف الناس عن الإيمان والتوحيد، بعد أن كانوا أمة مؤمنة واحدة. فلما وقع الإنحراف عن الإيمان، أصبح السعي إلى الجديد والحديث سعياً منحرفاً، غارقاً في تيه الظلام، يرافقه ما يرافقه اليوم من ظلم وظلمات، وانحلال خلقي، وفساد جنسي، واندلاع لهيب الشهوات، في أمواج مضطربة من التناقض والحيرة والشك، كما سنرى.

ولكنّ كثيراً من دارسي الحداثة اليوم يعتبرون ولادتها في القرن التاسع عشر على اختلاف في تقدير السنة التي انطلقت فيها، والبلدة التي نشأت فيها. وفي هذا التقدير شيء من الصحة إذا حصرنا دراسة «الحداثة» في صورتها الأخيرة الحديثة، وزخرفها الجديد، وزينتها العصرية. متجاهلين هذه الظاهرة في تاريخ قديم

للإنحراف والضياع.

فالحداثة التي ندرسها هي إذن حركة أدبية فكرية كما سنرى. وقد قدَّمنا في الفصل الثاني من هذا الباب أهم ما نجده من تعريف لدى عدد من رجال الفكر والأدب في أوروبا وغيرها، ثم قَدَّمنا تعريفنا الذي نراه لها من وجهة نظر إيمانية.

إن الاختلاف حول تاريخ بدايتها الأخيرة ومكانه، اختلاف نابع من اختلاف تصورها وتعريفها. فإذا كانت الحداثة تمثلها تلك الحركات البوهيمية، فيرى بعضهم أن باريس مهدها، وأن عام ١٨٣٠م وما بعده هي أعوام كانت تعجّ هناك بالنشاط البوهيمي[١].

ويرى آخرون أن بدايتها هي السبعينات من القرن التاسع عشر إذا اعتبرنا الحداثة تعني الاصطدام بالمذهب الطبيعي. وبعضهم يرجعها إلى (نيتشة) إذا اعتبرنا الحداثة شيئاً لابد منه[٢].

أما (سيرل كونولي) فقد نشر سنة ١٩٦٥م كتابه: (الحركة الحديثة) يقول فيه «إن فرنسا هي المنشأ الحقيقي للحداثة الانكلو اميركية». ويقترح تاريخاً تقريبياً لها هو عام ١٨٨٠م[٣]، كما ذكرنا في الفصل الثاني.

ويرى (فرانك كيرمود) أن السنوات العشر الأولى من القرن العشرين تمثل البدايات الحقيقية لهذه الحركة. أما (ستيفن سبندر) و (جراهام هف) فيعتقدان أن فترة نشاط هذه الحركة الحقيقي هي الفترة الممتدة من عام ١٩١٠م إلى بداية الحرب الكونية الأولى. وهكذا تعددت الآراء في مكان بدايتها وفترتها على ضوء التصور الذي يحمله المفكر أو الأديب. ولكننا نعتقد، من خلال التعريف الذي قدمناه من وجهة نظر إيمانية، أن هذه الحركة بخصائصها الرئيسية كانت تظهر في فترات كثيرة في حياة الإنسان.

٢ ـ نمو الحداثة وظهور معالمها:

لقد أوضحنا في الصفحات السابقة الظروف التي ولدت فيها الحداثة مع أهم

(١)،(٢) الحداثة. (ص: ٣٠). (٣) الحداثة. (ص: ٣١).

خصائصها، وهي :

أ .عزل الدين عن الدولة والمجتمع مع بقاء استغلاله واستغلال رجاله في أكثر من ميدان، وغياب التصور الإيماني ونور التوحيد.

ب.زعزعة الثقة المطلقة بالنظريات العلمية وبروز الشك والريبة، والقلق والاضطراب، مع الصدمات النفسية حين تنهار نظرية أو يدخلها تعديل.

جـ.ظهور المذاهب في الدراسات الإنسانية، كل مذهب يمثل رد فعل لمذهب سابق، وكل مذهب يأخذ جزءاً يجعل منه حقاً مطلقاً يقوم عليه المذهب.

د .ظهور الثورة الصناعية واضطراب العلاقات الاجتماعية، وامتداد الظلم والعدوان مما يسميه الناس استعماراً، مع انتشار الانحلال الخلقي والفساد الجنسي، وانتشار الخمور والمخدرات، ونزول المرأة إلى ميدان العمل لتلهب الانحلال الجنسي والخلقي. وظهور النظرية المادية الجدلية والمادية التاريخية والاشتراكية لتتبنى الانحلال ذاته.

هـ.ظهور الحركة الصهيونية ومؤسساتها وامتدادها في مختلف الميادين والمبادىء والمذاهب، ومساهمتها الواسعة أو تبنيها للفساد في الأرض.

إن النجاح الذي أحرزته طرق البحث العلمي في آفاق الكون، شجع العلماء على دراسة طبيعة السلوك الفردي والجماعي، وعلى دراسة الإنسان نفسه، والوجود الفني والحضاري، مستخدمين القوانين العلمية العامة للعالم المادي في دراساتهم الجديدة هذه. ظهر (أوجست كونت)، بعد أن نفض يديه مما يسميه الظواهر الميتافيزيقية والصوفية الخارقة، ومن دراستها ونتائجها، وهي كلها دراسات تمّت بعيدة عن نور التوحيد وعظمة الإسلام. ظهر (أوجست كونت) ليدرس التجارب الإنسانية، ويدعو إلى الإيمان بوجود عالم وضعي شامل، ويدعو إلى المذهب الوضعي. يرى (كونت) أنه يجب أن يحل «العلم الواقعي» محل «اللاهوت» وهنا نرى مثلا حيًّا على كيفية قيام مذهب كامل على جزئية في الحياة، يريد المذهب أن يجعلها

حقاً مطلقاً يسود الكون والحياة بجميع عصورها وأماكنها. من بيئة محدودة، وعلم محدود، وزمن محدود، يريد المذهب وأصحابه أن يضعوا من أوهامهم حقاً مطلقاً، وغاب عن بالهم أن الحق المطلق لا يمكن أن يصدر إلا عن رب العصور والأجيال، رب السموات والأرض وما بينهما، العليم الخبير.

وأخذ «العقل» يحتل مكانة كبيرة في مختلف ميادين الفكر والأدب والعلم. وأعلن (تين) إخلاصه للأمور التجريدية في منهجه الفكري، حيث لا تظهر الأناقة والجمال عنده إلا بسيادة «العقل». وكان يكرر كلما يستهويه شيء جميل: «إنه جميل جمال القياس المنطقي». ويُنقص (تين) من دور الفرد ويُعلي من دور المجتمع والعوامل الخارجية. وجاء موقف (بكل) كذلك مطابقاً لموقف (تين) في معاداة دراسة مشاعر الأفراد ودوافعهم. ونجد أن (هربرت سبنسر) في كتابيه: «علم السكون الاجتماعي» ١٨٥٠م و «مبادىء علم النفس» ١٨٥٥م، وفي كتابه الثالث «الفلسفة الدمجية» ١٨٩٦م، نجد أن (سبنسر) في كتبه هذه يؤمن بالتقدم القائم على أساس العقل والعلم[1].

هذا التصور والتقديس للعلم يبدو أنه طبيعي في جو ابتعد عن إشراقة التوحيد، فأخذ الناس يبحثون عن إله جديد لهم وعن صنم جديد، فنصبوا العقل أو العلم. ولكننا سنرى أنَّ هذا التقديس سينهار حين تبدأ النظريات العلمية تضطرب وتفشل. وسنرى كذلك اضطراب الموازنة بين دور الفرد ودور المجتمع.

ولد (فرويد) سنة ١٨٥٦م. وتنقل بين مهنة طبيب للأمراض العصبية وبين باحث في علم النفس. ونشر أبحاثه «دراسات في الهستيريا» بالتعاون مع (بروير)، ونشر بحثه عن «النشاط الجنسي عند الرضع» ١٨٩٨م، وفي سنة ١٨٩٩م نشر بحثه في: «تفسير الأحلام»، ثم نشر كتباً أخرى: «الأمراض النفسية الشائعة» و «النشاط الجنسي» ١٩٠٥م و «الطوطم والتابو» ١٩١٣م. ومن بين خلافاته مع زملائه (إدلر) و (ينك)، وضع آراءه المتحدية في علم النفس. وكذلك نجد (ماكس فيبر) و (إميل

---

(١) الحداثة. (ص: ٧٤ ـ ٧٥).

دوركهايم) يضعان أُسس علم الاجتماع الحديث. وتوالت الدراسات في أوروبا وأمريكا، حيث يضع أصحاب هذه الدراسات آراءهم كأنها حقٌّ مطلق في غالب الأحيان! وطلع كذلك (داروين) بنظرياته في النشوء والارتقاء، حيث يهبط بهذه النظريات هبوطاً شديداً بالإنسان الذي كرّمه الله سبحانه وتعالى وفضله على كثير من خلقه تفضيلاً. إن هذا الهبوط طبيعيٌّ حين يغيب الإيمان والتوحيد، ويسود الشرك وظلامه، فيهبط (داروين) نفسه، ويهبط المشركون إلى درك منحط، إلى أسفل سافلين:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ (التين: ٤ ـ ٨)

وامتدت هذه الدراسات في مختلف العلوم الإنسانية على هذا النحو لتتخذ من العقل إلهاً، أو من العلم إلهاً، أو من الواقع إلهاً، إفكاً وأوثاناً وضلالاً!

لعل (فيشته) (١٧٦٢م ـ ١٨١٤م) صاحب نظرية النقيض في تصور الإنسان لنفسه كان من أوائل من أراد إبراز قيمة العقل وتأليهه. وأخذ (هيجل) بعد ذلك عنه نظرية النقيض لتأكيد قيمة العقل حتى اعتبر «العقل المطلق» هو الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وجاء (لودفيج فيورباخ) (١٨٠٤م ـ ١٨٧٢م) فألّه «الواقع» واعتبر أن الفلسفة هي «علم الواقع»، وأن جوهر الواقع هو الطبيعة الشاملة التي تدرك بالحواس. فالحقيقة عنده ليست ما كانوا يسمونه المثالية النظرية، ولا هي علم الطبيعة، ولا هي علم النفس، ولكنها هي علم الإنسان فقط. ومضى خطوات في تأليه الإنسان. وجاء (كارل ماركس) (١٨١٨م ـ ١٨٨٣م) ليستخدم مبدأ النقيض ومبدأ الديالكتيك (الجدلي) الذي أطلقه هيجل، في مجال الاقتصاد. ثم يأخذ جزئية من الحياة يجعل منها حقاً مطلقاً عاماً، كما فعل غيره من قبل، وليدعو إلى أن كل شيء يتحول إلى نقيضه تدريجياً حتى يصل التغير إلى لحظة معينة فيحدث التغيير المفاجىء في الكيف والصفات. وحين أصبح يرفض بناء على ذلك وجود قيم خالدة أو قوانين

مطلقة، وقع في تناقض واضح مع نفسه حين اعتبر نظريته هذه قانوناً مطلقاً. واعتبر أن المادة موجودة قبل «العقل»، وأنها أكثر أهمية من «العقل». وامتدت النظرية لتنكر وجود الله، وتكفر بالدين، فسبحان الله الذي لا إله إلا هو، وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وظلت كثير من التعابير والكلمات غامضاً غير محدد تحديداً علمياً، بالرغم من ادعاء أتباع المنهج العلمي خلافَ ذلك. فما هو «العقل» الذي يتحدثون عنه، وما هي «المادة»، وما هي «الطبيعة». غابت هذه كلها في غموض وإبهام، تختلف في مفهومها من مذهب إلى مذهب، ولكنها غامضة في المذاهب كلها. وامتد نمو المذاهب والحركات بصورة سريعة واسعة.

لقد ولّد تبدل المذاهب هذه وتصادمها، والتناقض المستمر، لقد ولّد هذا كله عمقاً أبعد للشك والحيرة في النفوس، وولّد صدمات نفسيّة عنيفة تنقل الناس بحركات عنيفة من كبر وغرور إلى حيرة وشك، ومن ثمة إلى زعزعة في المعتقدات، حتى أخذت الثورة تزداد على «القديم» والنقمة تشتد على «الماضى»، وربّما تمتد النقمة لتنال «الحاضر» أيضاً. وأخذت تنمو الحوافز والبواعث للبحث عن جديد، للسعي وراء الحديث، في ظلام دامس يشتد مع الأيام. وأخذت «الحداثة» تنمو في هذا الجو وتكتسب خصائصها. وكان من أهم هذه الخصائص الثورة على القديم، أوله الدين، ثم تمتد هذه الثورة لتعطي «الحداثة» خصائص جديدة كل يوم.

ومن الخصائص التي حملتها مع نموها في هذا الجو، مبدأ التناقض للاستفادة منه في التدمير والهدم، والهجوم والثورة، والتبديل والتغيير.

لقد كان لزعزعة الثقة في الصدق المطلق للعلوم صدمات نفسية كما ذكرنا، صدمات ولّدت آثاراً بعيدة. لقد رأينا بعض الاتجاهات التي أهملت دور الأفراد ومشاعرهم، وغالت في دور المجتمع والظروف، على نحو فقد الموازنة العادلة. لذلك كان لابد من رد فعل معاكس لهذه المغالاة. فعندما تأسست «الجمعية الثيوصوفية» في أمريكا عام ١٨٧٥م بدأ الاهتمام يتحول من الجماعات إلى الأفراد[١]، واستفادت

(١) الحداثة. (ص: ٧٥).

من بعض المصادر الشرقية كالبوذية والفيداوية (Vedic)، واليونانية، استفادت من المصادر الوثنية لتبرز المغالاة بالعناية بالفرد وليس بالجماعة. وجاء كتاب «الفرد وصفاته المميزة» ١٨٤٥م لـ (ماكس سترايز) ليؤكد الاتجاه إلى الفردية. ودعا هذا الكتاب لإطلاق العنان لقدرات الإنسان الذاتية التي يسيّرها فهم الإنسان لذاته، ودعا بذلك إلى إرخاء العنان للحرية الفردية وإلى الاتجاه إلى «الفوضوية»[1]، وحتى أصبحت الفوضوية والتناقض والحرية الفردية المتفلتة من أي ضوابط خصائص نامية مع حركات الحداثة كلها، مرتبطة بالنزعة الأساسية من الثورة على القديم، والانطلاق وراء أوهام «الحديث» و «الحداثة» في ظلام التيه من الوثنية والشرك.

أمام هذا التناقض في الاتجاهات لانجد عجباً إذا ظهر من أخذ يشكك في طرق البحث العلمي ويعترض عليها. وربما ظهر من يرفضها. لقد بدأ (برونتير) حياته العلمية وهو يؤمن بوجوب التطبيق الواضح لمبادىء الارتقاء على علم الأحياء والأدب على حد سواء. ولكنه ارتدّ عن ذلك ليعلن عداءه لكل الموازين العلمية وليرفع شعار «إفلاس العلم»، وليناديي بإحلال «الحدس الصرف» محل العلم[2].

عندما تغيب دقة الموازنة وأمانتها، فلا عجب أن تبرز المغالاة هنا أو هناك، ويسود التطرف، تحت شعارات العلم أو العقل أو البحث. ثمَّ تختلط الاصطلاحات والموازين. فحين ركّزت بعض المذاهب على «الجماعة» ودور الأكثرية وحقوق الشعب وغير ذلك من الاصطلاحات، ظهرت لها ردود فعل معاكسة. وأكثر ما تظهر ردود الفعل حين تشتد المغالاة. فجاءت مسرحية «عدو الشعب» لِـ(إبسن) سنة ١٨٨٢م تكشف شخصية بطل المسرحية وهو يقول: «إنّ الأغلبية لا يمكن أن تكون على صواب. أنا ونفر قليل من الناس على صواب». ويقول الفيلسوف (جورج سانتابيا) إنه عندما كان شاباً كان يرى أن العلم له قوانين مطلقة لا يطالها التغيير. ولكن بعد وقت قصير رأى النظريات العلمية تمر بأطوار من التغيّر السريع[3].

أمام هذه التغيّرات السريعة ازدادت الريبة، وأظلمت النفوس، واضطربت

---

(١) الحداثة. (ص: ٧٥/٧٦). (٢) الحداثة. (ص: ٧٧). (٣) الحداثة. (ص: ٧٩).

الحياة، والمفكرون والعلماء والأدباء يركضون بحثاً عن الجديد والحديث، ناقمين على الماضي، حائرين أمام المتناقضات، يبحثون عن أسلوب مناسب للتوفيق بينها. فحاول بعضهم أن يُدخل أسلوب الحدس والخيال الشاعري إلى العلوم، كما سبق أن حاول آخرون إدخال الأسلوب العلمي للدراسات الإنسانية. ولعلهم أرادوا بذلك محاولة الجمع بين المتناقضات عن طريق الخيال بعد أن فشلوا في الواقع. وستظل هذه السمة، وهي محاولة الهروب من الواقع إلى عالم من الخيال والوهم، ستظل هذه السمة ظاهرة بارزة في حركات «الحداثة» وفكرها وتصوراتها. ولعلها محاولة لا شعورية للعودة إلى التناسق القديم في حياة الناس، التناسق الغائر في أعماق النفس. وطرح (فرويد) مبدأ «تكافؤ الضدين» الذي يصهر مشاعر الحب والكراهة في بوتقة واحدة. واعتبر (كوتفريدن) أن القرن التاسع عشر يمتاز بالإتيان بما يكافىء الضدين. ولعل محاولة التوفيق بين المتناقضات كانت أمراً قديماً في حياة الناس. ولعل (هيروقليدس) كان من أوائل من فكر في ذلك، وامتدت هذه الفكرة إلى (غوته) الذي ادعى أنه اكتشف في الطبيعة قوة شيطانية خارقة تتألف من المتناقضات القسرية الضرورية، ثم إلى (هيغل) الذي جمع في نظرية «المطلق» بين الأشياء المتناقضة، إلى (كير كجارد) الذي أخذ يدعو إلى إيجاد علاقات حميمة بين المتناقضات. وحاول (سترنبرك) أن يطبق منطق الأحلام في مسرحياته حيث كان يقول إنه لا رابط بين تلك الأشياء المتناقضة المتناثرة سوى الحلم[1]. ولكن هذه المحاولات كلها لم تكن إلا لتزيد الغموض والحيرة والقلق. يقول (هيرمان هسه): «. . . . فإن أفضل ما قالته البشرية هو تلك العبارات والصور الشعرية التي تعكس تناقضات العالم. . .». لقد وقع (هيرمان هسه) فيما وقع فيه غيره من تناقض وكبر وغرور. فاسمعه يقول: «إن أفضل ما قالته البشرية. . . .»، فهل تتبع هو كل ما قالته البشرية؟! ألم يشعر هو أن أمامه الكثير الكثير مما قالته البشرية ولم يسمعه؟! إنه لم يسمع ما قالته الرسل والأنبياء!

وهكذا أصبح التناقض والمتناقضات من خصائص حركة «الحداثة» النامية، الحركة التي تبحث عن جديد في تيه عميق من ظلام الشرك والوثنية. وازدادت الحيرة

(١) الحداثة. (ص: ٨١ ـ ٨٨).

والشك مع هذا البحث عن الجديد، مع هذه الحركة النامية، وازدادت الثورة على القديم. وأخذ بعض المفكرين يحاول تحطيم النظم والأُطر والأنماط كلها والقواعد المطلقة. أثار (سترنبرك) في أكثر مسرحياته الدرامية الأشياء المبعثرة، رافضاً الأشياء الثابتة من مفاهيم القرن التاسع عشر. ورسم شخصيات محدَثة تعيش في فترة انتقالية أشدّ هستيرية من الفترات السابقة، ورسم شخصيات غامضة غير واضحة، شخصيات محطمة، وحاول تفكيك الأشياء والأحداث كما يريد المذهب الطبيعي، وحاول تسجيل أعمال العقل كما تريد الحركة الانطباعية[(١)].

ويزداد الغموض، الغموض في الفكر والتعبير، حتى تحار في المعنى الذي تحمله الألفاظ، وهي تموج بين متناقضات، وتسبح في فراغ. أخرج (ت. س. إليوت) قصيدته «الأرض اليباب» سنة ١٩٢٢م، يقول فيها: «أنا تايرسياس أعيش حياتين على الرغم من العمى. أنا رجل عجوز ذو ثديين انثويين متغضنين، إلا أنني استطيع الرؤية في اللحظة الحاسمة»[(٢)]. ربما حاول الكثيرون تفسير هذه الكلمات. وربما اشتد الخلاف بين الآراء المتحمسة. لا داعي للخلاف فليطمئنوا جميعاً إلى أن (إليوت) نفسه لا يعي ما يقول. إنه يستطيع الرؤية في اللحظة الحاسمة. نعم! إنه يستطيع ذلك في اللحظة الحاسمة التي حدثنا عنها القرآن الكريم، لا في اللحظة الحاسمة التائهة في أوهام (إليوت):

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾ (ق: ١٩ - ٢٢)

نعم! هذه هي اللحظة الحاسمة، بعد أن جاءت سكرة الموت بالحق، ونفخ في الصور، وكشف الله عن البصر الغطاء، هنالك، في هذه اللحظة الحاسمة سيرى ويبصر (إليوت) وغيره. إنهم لايريدون أن يروا ولا أن يبصروا ولا أن يتعرفوا إلى الحق. إنهم يفرّون من ذلك. يقول (ر. م. رلكة) في الجزء الأول من ديوانه:

(١) الحداثة. (ص: ٨١).
(٢) الحداثة. (ص: ٨٩).

«كل الأحياء ترتكب خطأ التمييز الدقيق». وفي رواية كتبها (إلياس كانيتي) سنة ١٩٣٥م، يحاول بطل الرواية أن يدرب نفسه على تلمس الطريق بين رفوف مكتبته وهو مغمض العينين، حتى لايشغله الأثاث الجميل، ولا يشتت أفكاره. ثمَّ يبدأ باختيار كتبه كالأعمى، ويرتكب الأخطاء التي يرتكبها الأعمى، فأخذ يدرك، حسب وهمه، قيمة الحظ والمصادفة في اكتشاف الأشياء[٢]. أظلمت النفوس، وغشيت العيون، وسكِّرت البصائر، فكيف يرون؟!

ويقول (بارثس) في هذا المجال: «إن الفكرة وليدة المصادقة وإن الحظ يساعدك على قطف ثمار المعنى»[١]. عمى وظلام، وغموض وإبهام، وبحث يتم من خلال ذلك، فلا أمَل للباحث إلا بالمصادفة والحظ. فالمصادفة والحظ هما مأوى العاجزين اليائسين، وسيلة المفلسين وسبيل التائهين. إنهما فلسفة الظلام والتيه والديجور في هذه الحياة الدنيا، إنهما إفراز الشرك والوثنية. وبذلك أصبح الغموض والإبهام سمة بارزة من سمات «الحداثة» في سعيها للبحث عن جديد.

النفوس تبحث في تيه وظلام عن «حديث» يخرجها من الشك والحيرة، ومن القلق والاضطراب. وأنّى لها ذلك؟! فكلما أمسكت بجديد تظن فيه نجاة ومنقذاً، زادها الجديد ظلمة وشكاً وضلالاً! ظن الناس حيناً أن تأليه العقل نورٌ كافٍ، وحيناً آخر ظنوا ذلك بالعلم، وفزعوا حيناً آخر إلى الواقع والواقعية، فما أنجدهم من ذلك شيء. وامتدت هذه الرحلة القاسية في الظلام الحالك! وأخذ البحث يتحول إلى رغبة مجنونة في التحطيم، في التدمير، في الثورة على القديم، في الحقد على كل تراث، لا لشيء إلا لأنه قديم، لأنه تراث. وهربوا إلى «الرمز» عسى أن يسعفهم، فتاهت فيه الكلمات وغابت في ظلمات. فثار الحقد على اللغة، على الكلمة، على النحو والصرف، على أُسس اللغة كلها.

يعلن (نيتشه) في إحدى رسائله إلى (جورج براندز) و (سترنبرك) سنة ١٨٨٨م عن مبدئه الذي يدعو فيه إلى إعادة «تقييم القيم». وأعلن كذلك أنه لا بُدّ من إعادة

---

(١) الحداثة (ص: ٩٠ ـ ٩٢). (٢) الحداثة (ص: ٩٠ ـ ٩٢).

النظر في جميع القيم الإنسانية. ويقول (نيتشه) عن ذلك: «إنني أُقسم بأن اضطراباً عنيفاً بسببي سيعم العالم خلال العامين القادمين». وتولى (براندز) الدعاية إلى (نيتشه) وأفكاره في محاضراته المتابعة في الدانمارك.

وامتدت ثورة الحداثة على اللغة. لقد زاد التناقض، واضطربت الموازين، واختلطت الأفكار، وتصارعت المذاهب، حتى ظهر العجز والفشل في التوفيق بينها.

هربوا إلى الرمز كما ذكرنا عسى أن يجدوا هناك راحة أو أسلوباً للتوفيق، هربوا إلى الخيال، تركوا الواقع، عادوا للواقع، فما أغنى شيء. لقد بلغ العجز حدّاً جعل اللغة نفسها تبدو عاجزة عن بيان ما يتوهمونه في واقع أو في خيال، عاجزة عن بيان الأفكار المتنافرة المتناثرة المحطمة، الأفكار المتناقضة المتصارعة. فحسب بعضهم أن هذا العجز هو عجز أصليٌّ في اللغة نفسها، أو هكذا أوهمهم ضلالهم، فأخذوا يبحثون عن لغة يعتبرونها أسمى، وعن أساليب في التعبير أوسع، أساليب تحطم اللغة والنحو والقواعد. فبدأت حملة واسعة ضد اللغة وأُسسها وجذورها، حملة تقودها الأمراض النفسية والاضطرابات العقلية، والحيرة والشك، لتحاول تحطيم اللغة وتفكيكها، وتجريد الكلمات من معانيها، حتى تصبح الكلمة تعني أي شيء في عالم فوضويٍّ هائج ثائر. وامتد الهجوم على الشعر وقواعدها كلها في ثورة محمومة.

لقد أصبحت القضية الأساسية في الحركة المستقبلية، التي سندرسها في فصل مقبل إن شاء الله، هي السعي إلى تطهير الكلمة من طلاء التراث الأدبي، وتحرير الشاعر للكلمة من شوائب الحدث اليومي، ليدخلها بعد ذلك في البناء المحرر لنصّه[1]. ويصيب (هـ. د. لورنس) هجومه على «النحو الإنساني»، وينادي (أُورتيكا كاست) بتجريد الفنّ من «الصفات الإنسانية»، ليؤكدوا كلهم الخصائص الصوتية والتصويرية للكلمات، بعد تفكيكها لينفصل الصوت والنحو والمعنى والقواعد إلى أجزاء متفلتة لا رابط بينها، لتنمو الكلمات من خلال هذا التفكيك، ثم تتلاشى إلى شظايا مبعثرة، إلى لا شيء، لترسم الغموض والابهام في أمواج من فوقها أمواج من

(١) الحداثة. (ص: ٢٥٤).

ظلام كثيف وضباب شديد السواد. يهاجم (باوند) التراث، وكذلك يهاجمه (إليوت)، وتقوم ضجّة واسعة في فرنسا تطلب التحرر من الماضي كله في الموسيقى والشعر والأدب وسائر النشاطات. وسنرى في الفصول المقبلة كيف أن حداثيي بلادنا نقلوا لنا هذا الهوس والجنون كأنه علم جديد ابتدعوه، واستخدموا نفس التعابير من غسل الكلمة وتطهيرها!

لقد غاب عن هذه المجتمعات نور الإيمان والتوحيد، ونهج الوحي والنبوة، ففقد الناس الميزان العادل الأمين لفهم الماضي والواقع والمستقبل بموازنة عادلة صادقة، وصورة كريمة تطمئن لها النفس وترتاح، وتهدأ الفطرة وتستقيم. فاضطربت النظرة إلى الماضي وثار عليه ليحطمه، ويئس من واقعه فحقد عليه، وفزع من مستقبله فأراد الهروب منه. لم يجد في ماضيه ما يرتاح إليه، لا في تراث اليونان والرومان ولا في تراث أمته، وحار في واقعه بين استغلال بشع، وظلم قاتل، وعدوان ممتد، وخاف من مستقبل مظلم مرعب.

لقد كان أول من جاء بتعبير «الشعر الحر» هو (كوستاف كان) الذي أُعجب به (مارتيني)، أبرز رجال الحركة المستقبلية في ايطاليا. فقد وعد المستقبليون الناس «بابتكار الخيال اللاسلكي لعمل توليف متجانس لعناصر الكون...». وقالوا: «بعد الشعر الحر أصبح عندنا كلمات حرة»[1]. والكلمات الحرّة هي التي شرحناها قبل قليل، الكلمات التائهة عن المعنى والنحو والقواعد والتاريخ. ويصف (مارتيني) رحلة بالقطار إلى صقلية عن طريق الأصوات التالية: «سي سي سي سي سي».

وتمتدُّ الثورة على القديم في حُمّى هذا الجنون حتى طالت الأرحام والوشائج، وانحلت الأُسرة ودُمِّرت قواعدها، ومزِّقت روابطها. وأصبح الأدب يمثل السلطة الظالمة التي يراها الناس في المجتمع باستغلالها وجشعها. كتب (جورج هيم) في يومياته ٣ كانون أول سنة ١٩١١م: «كان باستطاعتي أن أُصبح واحداً من أعظم الشعراء، لو لم يكن لي مثل هذا الأب الخنزير»[2]. شرٌّ واسع يمتدُّ، يهدد حياة

---

(١) الحداثة. (ص: ٢٣٧).

(٢) الحداثة. (ص: ٢٦٩).

الإنسان حيثما كان.

يقول (ماياكوفسكي) الشيوعي الروسي، رجل الحركة المستقبلية في روسيا، يقول في كتابه: «كيف يصنع الشعر» سنة ١٩٢٦: «إذا أردت أن تكتب عن الرقة في الحبّ عليك بركوب الحافلة رقم (٧) من ساحة لبيانسكي والتوجه إلى ساحة نوكين. إن ارتجاج الحافلة المروع هو أحسن مايوضح لك سحر الحياة»[1]. كأنه يحاول أن يعبّر في هذه الصورة عن طبيعة التناقض التي يعيشها، وعن الرغبة في الارتجاج والثورة، والاضطراب والفوضى.

وامتدت هذه الثورة المجنونة إلى جميع أبواب الفنون والنشاطات أو معظمها. جاءت لوحة (بيكاسو) سنة ١٩٠٧م: «آنسات من مدينة أفينون» لتكشف هذا الامتداد واتساعه. تكشف هذه اللوحة عن خمس نساء عاريات رسمهن (بيكاسو) بخطوط خاصة مثلثة تمثل الطريقة التكعيبية الجديدة. عريٌ، وتكعيب، وغموض، واضطراب، أسموه فنّاً حديثاً. لم تقدم شيئاً جديداً بقدر ما عبرت عن الثورة الحاقدة على الماضي، والحيرة والاضطراب في الواقع، وفقد القواعد والميزان والتناسق.

وامتدت الثورة بصورتها المهووسة المجنونة إلى الثورة على الكون، على الطبيعة، لتحاول أن تجعل من الإنسان قاهراً للطبيعة، مسيطراً عليها، في صورة واهية مضطربة. أما (مايا كوفسكي) رجل الحركة المستقبلية في روسيا، في قصيدة له أسماها: «مغامرة خارقة قام بها (مايا كوفسكي) في كوخ صيفي»، فإنه يدعو الشمس إلى قدح شاي لكي يعوق شروقها وغروبها الأبديين اللذين ملّهما الشاعر. وتعترف الشمس عبر مجاز شعري طويل بأن (ماياكوفسكي) يكدح آناء الليل وأطراف النهار من أجل صنع «بوسترات دعائية». وستولد هذه البوسترات الضوء والدفء اللذين سيُنْشَران كما تُنشَر حرارة الشمس. وكأن الشاعر المهووس يريد أن يعبِّر عن انتصار الإنسان على الطبيعة، وعن ثورته على قوانينها الثابتة. ولكن هذا الهوس انهار انهياراً كاملاً أمام حقائق الحياة وسنن الله الماضية فيها. فالشمس ظلت تتابع شروقها

(١) الحداثة. (ص: ٢ ٢

وغروبها. أما (ماياكوفسكي) فقد انتحر، وأمثاله طواهم الردى. وجاء الزلزال المدمر الذي حدث مؤخراً في ولاية أرمينيا في الاتحاد السوفياتي، حيث عجزت قوى الاتحاد السوفياتي كلها عن تخفيف مصابه، فاستعانت بدول الأرض كلها. وشاء الله أن تصطدم طائرتان في الجو كانتا ذاهبتين للاسعافات، فزادت النكبة، ووقفت حضارة القرن العشرين محطمة مشلولة أمام قدر الله، ليكون آية للناس وحجة على الكافرين.

ولقد احتج (ليون تروتسكي) في كتابه «الأدب والثورة» على بوهيمية المستقبليين ومبالغاتهم، إلا أن احتجاجه كان على أساس أن ثورتهم لم تكن بروليتارية.

هكذا امتدت الظلمة في تيه واسع من الشرك، وامتدت الأرض الجرداء لا تحمل لهم إلا سرابا يلهثون خلفه:

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ (النور: ٣٩، ٤٠)

وتمضي سنن الله في الحياة لتطوى هذا الكبر القاتل في نفس المشركين، والغرور المميت، ولتعظه وتوقظه، ولتضع الحقيقة الجليّة المطلقة بين يدي الإنسان، ليخشع وينيب:

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ (الأنعام: ١٨)

(هيوكوبول) متصوف دادائي، وسنوجز الحركة الدادائية في فصل مقبل، أخرج صحيفة أسماها: «الهروب من الزمن» ودادائيٌّ آخر، (هانز آرب)، يقول:

«نحن نفتش عن فنٍّ قائم على أُسس ثابتة من أجل معالجة جنون العصر»[1].

في هذه الأجواء المحمومة نفسياً وفكرياً، المظلمة اجتماعياً، الجشعة اقتصادياً، كان لا يعقل أن يُضبط هوى، أو تُكبح شهوة، أو تدور حكمة. في هذه الأجواء ينشأ عادة الصراع والتنافس بين الأهواء الملتهبة والمصالح المتضاربة. ووقع هذا الصراع فعلاً، صراع خفيٌّ وعلنيٌّ، ملوَّث بالجريمة والشهوة والظلم. ولم يكن من متنفَّس لذلك إلا الحرب. ولقد أخذ عدد من رجال الحداثة يرون أن الحرب هي مخرج للناس مما هم فيه. ووقعت الحرب العالمية الأولى تقذف بآلات الموت والدمار والإبادة. وانتهت الحرب بعد أن استمرت سنين. ولكنها لم تقدم حلولاً للمشكلات، بل قدمت جثثاً وأشلاء، وجماجم وأطلالاً، ونفوساً محطمة يائسة، ودموعاً تكاد لا تجف، وظروفاً اجتماعية واقتصادية وسياسية جديدة، وزادت المشكلات وتنوعت، وزادت الحيرة والشك والتناقض، والظلمة والضياع.

لقد كانت الحرب العالمية الأولى فترة تصفية لبعض حركات الحداثة، كالحركة التعبيرية، وفترة ولادة لحركات حداثية جديدة، كالحركة الدادائية والسريالية. ولكن الحركات الجديدة لم تكن تعني أنها ألغت خصائص حركات الحداثة السابقة ومحنها. لا! إنها اختلفت عنها في نقاط ولكنها تابعت مسيرة الحداثة في خصائصها الرئيسية من الثورة على القديم، ومحاربة الدين، واللغة، ومن الحيرة والشك، والقلق والاضطراب، وسائر ما سبق ذكره. تابعت الحداثة مسيرتها في نفس ميدانها من الفجور والتهتك والإباحية.

ولعله من المفيد أن نلخِّص خصائص «حركة الحداثة»، الخصائص التي اكتسبتها مع ولادتها ونموها، في نقاط موجزة محددة:

١ - غياب التوحيد والتصور الإيماني، وغياب المصدر الحق ـ المنهاج الرباني ـ عن المجتمع الأوروبي قروناً طويلة، حتى التصق هذا الغياب بالحركة الحداثية كصفة أساسية من صفاتها.

---

(١) الحداثة. (ص: ٢٨٧)

٢ ـ الاعتماد الرئيسي في بناء التصورات الفكرية على قدرات الإنسان المحدودة، وعلى دراساته وجهوده، في بيئة محدودة وزمن محدود، وإعطاء صفة المغالاة للفكر والنتائج من حيث التصديق والإيمان بها، حتى أخذ العقل حيناً، والعلم حيناً آخر، والطبيعة في فترة أخرى، وغير ذلك من الأوثان، منزلة التقديس والعبادة.

٣ ـ لقد ولّد هذا التقديس كبراً وغروراً في النفوس، ظل مصاحباً للحركة الحداثية في نهجها وفكرها.

٤ ـ ونتج عن ذلك أن أخذ كل مذهب جزئية في الحياة جعل منها حقاً مطلقاً في مبالغة واضحة، كانت تسبب ردّ فعل يظهر في حركة معاكسة أو مذهب معارض، حتى أخذت المذاهب تتوالى في الدراسات الأدبية والإنسانية.

٥ ـ أخذ يظهر فشل المذهب أو فشل النظرية، فسبب ذلك صدمات نفسية عنيفة، أخذت صوراً وأشكالاً مختلفة من مجتمع إلى مجتمع، فنشأت حركات حداثية مختلفة في أوروبا وروسيا وأمريكا، تحمل كلها مظاهر شتى من الأمراض النفسية، والقلق والاضطراب، والحيرة والشك، يغذي ذلك كلها الظلم الممتد والجشع الواسع والعدوان المنتشر والاستغلال الطاغي في الاقتصاد والسياسة والمبادىء، حتى أصبحت هذه من خصائص الحداثة.

٦ ـ كان من أهم خصائص الحداثة التي اكتسبتها هو الثورة على القديم كله: على الدين، واللغة، والمؤسسات، والعادات، والأرحام، والروابط الاجتماعية، والأسرة، والتراث كله، في سعي لاهث أهوج للبحث عن جديد في ظلام دامس وتيه واسع.

٧ ـ أمام فشل حركات الحداثة في تحقيق أي شيء إيجابي فشلاً متلاحقاً زادت ردود الفعل والصدمات النفسية، حتى امتدت الثورة إلى الموقف من الحياة، والتمرّد على الكون. وزاد الغرور والكبر إلى أبعد مداه في النظرية المادية الجدلية والتاريخية حتى قامت على أساس انكار وجود الله، وحتى حسب بعضهم أن «الإنسان» يستطيع أن يقهر الطبيعة.

٨ ـ نشر الفشل المستمر ضباباً كثيفاً من الحيرة والشك، والغموض والإبهام،

حتى طغى ذلك على التعبير والفكر، وحتى تولدت رغبة للهروب من مواجهة الحقائق إلى تيه واسع من الفلسفة والأدب والفكر يكتنفه الغموض في تعابير هائجة، مضطربة، مبهمة.

٩ ـ كان الجنس أحد المحاور الرئيسية لحركات الحداثة كلها، بعد أن انحلت الأُسرة، وطغت مساواة المرأة بالرجل، أو الرجل بالمرأة، وعم الانحلال الخلقيّ، وانتشرت الخمور والمخدِّرات والزّنا انتشاراً واسعاً، يدفعه أدب وفكر حداثيّ.

١٠ـ بسبب ذلك كله ظهر اضطراب الموازنة في السلوك والفكر والمذاهب، وظهرت المغالاة العنيفة، وظهرت ردود الفعل. وأصبح اضطراب الموازنة سمة أساسية في «الحداثة»، تجدها في اضطراب الموازنة بين دور الفرد ودور المجتمع مثلاً، وفي الفكر والسلوك عامة.

١١ـ لقد مهّد هذا كله لقيام صراع حاد بين أصحاب المصالح في أوروبا، وبين أرباب القوى كذلك. وأصبحت هذه المظاهر كلها تضغط ضغطاً هائلاً على المجتمع، حتى أخذ الناس يبحثون عن متنفّس، حتى دعا بعضهم إلى أن الحرب هي المخرج من ذلك الكابوس. ووقعت الحرب وانتهت، ولكنها لم تقدم حلولاً، وإنما أورثت مشكلات جديدة.

إذا استعرضنا هذه الظروف والملامح، وتصفحنا تاريخ الإنسان على الأرض، نجد أن حقيقة «الحداثة» ليست «حديثة» أو جديدة في تاريخ الإنسان، كما يتوهم بعض الناس. إن معظم هذه التصورات والأفكار والمبادىء قديمة في التاريخ البشريّ قِدم الإنسان. إننا نجدها في تاريخ اليونان والرومان، وفي آدابها وفلسفتها وفكرهما عامة، مع كل مرحلة وثنيّة. إنها ليست محصورة في أرض وزمان، ولكنها مصاحبة للفتنة والفساد، والكفر والإلحاد.

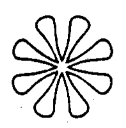
ولقد كان دائماً من أهم خصائصها أُمور ثلاثة: الثورة الهائجة على القديم وخاصة الدين وما يتصل به، حتى ولو كان الدين فيه وثنية وانحراف. وكذلك

الجنس والإباحية والانحلال. وأخيراً محاولة تغطية ذلك كله بفكر أو أدب، من خلال السعي إلى جديد والبحث عن «حديث» في تلك الظلمات وذلك التيه.

لا تزال الفضائح الجنسية في تاريخ الإنسان هناك وهناك مثلاً واضحاً على مدى تأثيره في الفكر والأدب. ولا تزال ردود الفعل ضد الدين تمثل مساحة في التاريخ، ودوراً هاماً في انحراف الأدب والفكر. وستظل هذه القاعدة ماضية في الأرض في حياة الناس، لتمثل الابتلاء من الله، ليمحّص الله عباده، وليميز الخبيث من الطيب، وَلِيُعْرَفَ المعدن والجوهر، ولتسقط حجة كل إنسان كافر فاسد، مفسد، يوم القيامة، يوم الحساب بين يدي الله.

وسيظل الإنسان، حين يقع فريسة الشرك والوثنية والإلحاد، يحاول أن يجعل من أهوائه وشهواته ومصالحه دعوة النمو والتطور، ودعوة التحديث والحداثة، حتى يحمي فساده في إطار من الفكر والأدب.

وسيظل الإيمان هو الضوء الكشاف الذي ينزع الستار الواهي والزخرف الأسود الكاذب، ليَعرِّي الباطل كله، ولتقوم الحجة على الضلالة وأهلها. وفي الوقت نفسه سيظل أهل «الحداثة» و «التحديث» يحاولون التستر بالدين، والاحتماء في ساحته، كلما فاجأهم الضوء، أو عرّاهم الناس! سيحاولون أن يتلمسوا بعض معاني الدين أو شعائره ليجعلوا منها ستاراً. وسيظل الأمل كذلك قويًّا في أن يهدي الله من يشاء من عباده من أهل الحداثة، حتى يراجعوا ما لديهم من فكر فيردوه إلى دين الله، حيث يجدون الأمن والأمان، والطمأنينة والقوة، في حمى الله القويّ العزيز.



الفصل الرابع

بعض مذاهب الحداثة وحركاتها

لقد أصبحت كلمة الحداثة عملياً تعني في المصطلح الفكري والأدبي الثورة على كل قديم، الثورة الهائجة المدمرة، التي تسعى إلى أي جديد من مزاج وهوى، وشهوة وانفلات، وشر وتدمير. لقد علق (هيوكوفون هوفمانسشال) سنة ١٨٩٣ على الحداثة وقال: «بكل ثقة إنها تعني شيئين منفصلين ومتميزين: إما التحليل والتأمل وإما الهروب والخيال وإطلاق العنان للأحلام».[١] ونضيف نحن أنها مع كل حالة هي ضياع، ضياع في التأمل وضياع في الهروب.

لقد كان الإنسان في أوروبا يعاني من التناقض، والواقع الغامض المبهم، وسائر ما أشرنا إليه في الصفحات السابقة من ظروف اقتصادية وعلمية واجتماعية وسياسية. لا يستطيع أن ينسى أن الحرية والإخاء والمساواة خرجت شعارات من قلب الثورة الفرنسية، من خلال مجازر وصراع مصالح، من خلال أسرار وغموض. خرجت هذه الشعارات لتعطي معاني خاصة لكل كلمة منها، ولتجعل الحرية في إطار معين، والإخاء في حركات سرية، والمساواة في لحظات عفوية. ولكنه اضطر في النهاية إلى أن يستسلم للديمقراطية، وأن يحاول أن يقنع نفسه بصلاحها، وهو يبحث عن حقيقة المساواة، حقيقة العدالة، حقيقة الإخاء.... ! ومن لم يستسلم فقد اتخذ الشيوعية مجالاً للتعبير عن نقمته وغضبه. ولكنه على كل حال لم يجد العدالة ولا الحرية ولا المساواة، إلا في حدود ما ترسمه المصالح المتصارعة والشهوات المجنونة.

١ ـ الحركة الرمزية :

من خلال هذه الأوضاع تولدت الرغبة في نفسه إلى الهروب، إلى الاختفاء،

(١) الحداثة. (ص: ٧١).

إلى محاولة إغماض العينين حتى لا يرى ولا يفكر. لقد أخذ يبحث عن رمز يخفي أفكاره فيه، يطوي نزعاته وثورته ونقمته. فظهرت الحركة الرمزية. لقد حطم الأصنام التي أقامها سابقا كلها، وأقام لنفسه صنماً جديداً. جاء (شارل بودلير ١٨٢١ م - ١٨٦٧ م)، و(ستيفان مالارميه ١٨٤٢ م - ١٨٩٨ م)، و (بول فاليرى ١٨٧١ م - ١٩٤٥ م) يمثلون الحركة الرمزية في فرنسا. وقدم بودلير إلى فرنسا الشاعر والكاتب الأمريكيَّ (إدجار ألان بو ١٨٠٩ - ١٨٩٤) متأثراً به.

ويقول (بول فاليرى) «ظل الصوت الإنساني مدة طويلة جداً أساساً وشرطاً لكل أدب. وقد جاء اليوم الذي أصبح فيه القارىء قادراً على القراءة بعينيه فقط دونما حاجة إلى هجاء الكلمات بصوت عالٍ . . . . بسبب ذلك تغير الأدب كلية. لقد حدث ذلك التطور بسبب الانتقال مما هو منطوق ومسموع إلى ما يطوف فوق السطح. . .»[1] ولقد كانت الحركة الرمزية تمثل كذلك ما أطلق عليه في حينه «الانحطاطية» التي خلطت بين الرقة والوقاحة، والتي استخدمت الكلمات الطويلة ذات التأثير المنومٍ، والعبارات غير الدقيقة، والنعوت الكثيرة المتتالية، على صورة تحدث التخلخل في المعنى أو تحطمه. لنستمع إلى نص شعري لـ (سونبرن) . إنه يقول:

ما وراء الحاجة إلى بكاء

في مكان لا تصله الأيدي

بعض يغني كالخطيئة، بعض يهزل كالفضيلة

نرى هنا اضطراب المعنى وتنافر الكلمات والتعابير. ونرى وقاحة المعنى. وعندما يأتي الحديث عن الجنس يصبح الوضوح قوياً إلى درجة الوقاحة البعيدة. نجد لـ (سايمونز) كلمات نستحي أن نوردها ونكتفي بالإشارة إلى وقاحتها.

٢ ـ الحركة الانطباعية

أما الحركة الانطباعية، فإنها تلجأ إلى أسلوب تبني به أو تحاول أن تبني به

(١) الحداثة. (ص: ٢١٢).

الانطباع الموحد للمعنى أو المزاج أو الضوء أو غير ذلك. إن الأشياء تتحطم وتزول وتترك آثارها وانطباعها. الضوء يتكسر في المنشور الزجاجي، ولكنه يصبح ألوانا مجزأة. الألوان تبدو عن بعد واهية. فالانطباعية كالرمزية تحرر النوعية من الموضوع، فتتحول الأفعال والصفات إلى أسماء. كان الانطباعيون يسعون دائما إلى إعطاء «الألوان الطبيعية» التي تذبل وتبهت، الحيوية نفسها والانطباع ذاته التي تعطيه «الألوان الصناعية». لاشك أن في هذا التصور اضطرابا وعجزاً عن إدراك حقيقة الحيوية، وكذلك اضطرابا في تصور الألوان. لقد بالغت الانطباعية مبالغة واسعة في إدخال الألوان وتصورها في الفن عامة والأدب خاصة. نرى مثل ذلك في قصيدة «سيمفونية باللون الأصفر» لـ (وايلد)، وعند (ماكس دوثندي) الألماني في مجموعته الشعرية «فوق البنفسجية». وتتفاعل هذه الصور اللونية مع المقاطع والحروف والكلمات. ويرى الانطباعيون أنه يجب إحياء قوة اللون كتجربة حضارية تحمل مضمونا رمزيا. وأن اللون لا يؤثر حق التأثير إلا إذا بالغنا في استعماله. وبدأت الرمزية والانحطاطية والانطباعية هجوماً أوليا على اللغة، هجوما سيزداد حدة وعنفا مع نمو حركات الحداثة. لقد بدأ الصراع مع محاولة التركيز على الأسماء وتحويل الأفعال والصفات إليها، ومع محاولة التخلص من جزئيات اللغة كالحروف وأدوات العطف، وهذا الصراع يأخذ صورة فكرية فلسفية تحاول أن تدافع عن نفسها، في جو لم يهتك اللغة بعد. والانطباعية أخذت اتجاهات مختلفة. فانطباعية (مونيه) و (رلكه) هي الهروب من الصدمة التي تحدثها المشاعر، أما انطباعية (هولز) فهي انطباعية المشاعر. وكما يقول (كلايف سكوت) إن الانطباعية قد ولدت ما يسمى بـ «تداعي المشاعر». وقد حملت الحركة الانطباعية بذور الحركة المستقبلية والتعبيرية.

٣ . الحركة المستقبلية في ايطاليا

ظهرت بواكير الحركة المستقبلية في إيطاليا مع «البيان المستقبلي» سنة ١٩٠٥، يعلنه (فليبو توماسو مارينيتي) من ميلانو. وأخذت البيانات المستقبلية تتوالى. لقد وعد المستقبليون بابتكار «الخيال اللاسلكي» الذي سيتمخض عن «توليف»

متجانس لعناصر الكون التي يمكن احتواؤها عن طريق نظرة خاطفة واحدة، ويمكن التعبير عنها بكلمات جوهرية.»[1].

لقد كشفت هذه الكلمات عن الغرور في أعماق النفس، الغرور الذي يريد أن يجمع عناصر الكون في نظرة خاطفة، نظرة إنسانية مادية، ويعبر عنها من خلال طاقته البشرية بكلمات يسمونها «جوهرية». ولكن لم يفلح أحد من رجال الحركة المستقبلية في ذلك، فأورثهم الفشل صدمات نفسية عنيفة.

يصف (مارينيتي) ما يسميه بالإبداع الحسي فيقول : «يبدو أن اليد التي تكتب تنفصل عن الجسد وتأخذ بالابتعاد المستقل عن الدماغ.» ووضع مارينيتي مع مقدمة كتابه المسمى : «زانك تم تم» عنوانا للمقدمة: «تحطيم النحو - خيال لاسلكي - كلمات حرة». مع هذا الانفلات المهووس دفعت الحركة المستقبلية الحرب ضد اللغة خطوة أوسع، ووسعت مدى الوهم والضياع ليغيب مع الخيال اللاسلكي، وأخذت تفرغ الكلمات من معانيها. واليد التي تكتب تنفصل عن الجسد وعن الدماغ، حتى تكتب وهي منفلته لايضبطها ضابط. وأخذ الشعر يتفلت من قواعده في هذا الجو المحموم، ليمثل الشعر الحر ظاهرة المرض العنيف، والثورة الهائجة، والضياع الممتد. في هذه المتاهة، ابتكر (كوستاف كان) تعبير «الشعر الحر»، فأعجب به (مارينيتي) كثيراً، ليكون «الشعر الحر» منطلق ضياع أوسع، وفرصة أكبر لتحطيم اللغة والكلمات والمعنى. وهكذا عبر المستقبليون عن أهمية الشعر الحر بالنسبة لهم: «بعد الشعر الحر أصبح عندنا أخيرا كلمات حرة». وهكذا انفلتت الكلمات من معانيها لتتحول إلى مقاطع صوتية غامضة مبهمة هستيرية. وينص (مارينيتي) في كتابه على هذه الكلمات: «سي سي سي سي سي سي». وينقل بعضهم هذا الهوس نفسه إلى مجتمعاتنا اليوم باسم الحداثة، كما سنرى في فصل مقبل حيث نعرض قصيدة : «ستزن سيتزن سيتزن»، لأحد الحداثيين. وجاءت بعض فصول كتاب مارينيتي تحمل أشكالا متجددة من هوس الحداثة مثل : «غارة»،

---

(١) المصدر السابق. (ص: ٢٣٦ - ٢٣٧).

«تعبئـة»، «قطار مليء بالجنود المرضى». وأصبحت أصوات المقاطع والكلمات تقترب أو تتـداخل مع أصوات الآلات والقطارات والطائرات، وأصبحت الرموز الرياضية تغني عن الكلمات. فنجد مثلا المعادلة التالية: « + – + – ++×» تصف عربة يتغير فيها ناقل الحركة لزيادة السرعة.

سنجـد كذلك هذا الهوس عند الدكتور كمال أبوديب وعند غيره في فصول مقبلة، وهم يحاولون التعبير عن التحليل الأدبي والنقد بأحرف ورموز ومعادلات، وبيانـات رياضية، وجـداول. وهم ينقلون فقط نقـلا هوسَ أوروبـا الذي تركته أوروبا، الهوس الذي قاد رجاله إلى الضياع والهلاك، ينقله بعض الناس إلينا بعد أن تركه أهله.

ولم تحمل المستقبلية الايطالية نزعة خير أو دعوة فضيلة، إنها دخلت عالم الرسم والمسرح والسينما، ودخلت كذلك عالم السياسة، لتحمل الفساد والعدوان والإجرام. فطغت الروح القومية والعصبية الإيطالية التي انتهت بتحطيم إيطاليا. إنها بعثت الفاشية الإيطالية، ونفخت العصبية الجاهلية الإجرامية في بياناتها. فجاء بيانها سنة ١٩١١ ليقول: «يجب أن تسيطر كلمة إيطاليا على كلمة حرية». وأمضى (مارينيتي) واحـداً وعشرين يوماً في السجن مع (موسيليني) و (فيجي) وآخرين ممن أسموهم بالمحاربين، بتهمة تكوين عصابات مسلحة. ومع أن (مارينيتي) ترك سنة ١٩٢٠ «جمعية المحاربين الفاشست»، إلا أن ضلالاتهم امتدت لتصبح رائداً وشريكاً منافساً للفـاشية. وأخـرج مارينيتي سنة ١٩١٥ كتابا أسماه: «الحرب هي العلاج الوحيد للعالم». وأصدر (أبو لينير) سنة ١٩١٣ كتابه: «العداء المستقبلي للتراث». ليكشف عن اتجاه رئيسي للحداثة عامة.

وإذا كانت الحركة المستقبلية قد أخذت في إيطاليا شكل الفاشية والعصبية الجـاهلية الإقليمية، واصـطدمت من أجـل هٰذه العصبية مع الحـركة الاشتراكية المادية، فقد أخذت الحركة المستقبلية في نفس الوقت الثوب الشيوعي المادي في روسيا.

٤ . الحركة المستقبلية في روسيا :

أعطى (فلاديمير ماياكوفسكي) رأس الحركة المستقبلية في الأدب الروسي، أعطى نفسه لقب «زرادشت زماننا الصخاب». وذلك في قصيدته «سروال في سحابة». لقب وثني، وعنوان غائم لقصيدة، ومادية إلحادية علنية، تحمل حركة الحداثة المستقبلية، في ظل حماية دولة ونظام.

لقد التقت المستقبلية الروسية مع المستقبلية الإيطالية في مبدأ التجريد لتعتمد الكلمات في تعبيرها على الأصوات. فلنستمع إلى (كروجو نيخ) في أبيات شعرية يسوقها مثلاً على ذلك:

دربـــــل إشـــكـل.
أُبـشـــكـر.
ســـــكـم.
فـــي ســــوبـو.
رل يـــــنـــر.

هذه المقاطع الصوتية لا معنى لها، ولكنها تقدم قصيدة حداثية روسية مترجمة الى اللغة الإنجليزية، وهى ليست أكثر من أصوات لا معنى لها في الروسية ولا في الإنجليزية. لنتذكر هنا مقاطع مارينيتي : «سى سي سي. . . . » التي سبق ذكرها في المستقبلية الإيطالية. وتذكرنا هذه كذلك بما فعله (مارينيتي) في إحدى خطبه الشعرية الحماسية، حين أوعز لأحد أصحابه أن يختبىء في أحد أركان الصالة، مع طبل عملاق. وأثناء القاء الشعر، أوعز (مارينيتي) لصاحبه بقرع الطبل. وذهل الحاضرون الذين لا يعرفون قصة الطبل، وتساءلوا وكيف استطاع صوت مارينيتي أن يولد هذا الضجيج الهادر.

ومضت الحداثة المستقبلية في حضن الاشتراكية المادية في روسيا تدفع الطاقات والمواهب لحماية الفن التجريدي. ثم ظهرت مدرسة أخرى للنقد والتنظير هى المدرسة الشكلانية (Formalism) صدى للعلوم اللغوية التي جاء بها (سوسير).

ومضت المستقبلية في روسيا تصب غضبها على الرمزيين والانحطاطيين لأنهم لم يمثلوا الا الجانب المنحط من الحضارة في نظرهم، وأخذ عدد من الحضارات يتصف بالحماسة «النيتشية»، التي تدعوا الى نبذ الماضى والتراث. وهكذا «كلما دخلت أمة لعنت أختها». حركات تتوالى، وكل واحدة تهاجم هذه وتهادن تلك. وكلهم يحارب القديم والدين والتراث كله.

أصدر (مايا كوفسكي) و(خليبنكوف) و(كروجونيخ) و(ديفيد برليوك) بيانهم سنة ١٩١٢، وأسموه: «صفعة في وجه الذوق العام». وحرصت المستقبلية على إبراز الإرادة الإنسانية كقوة قاهرة للطبيعة كما ذكرنا سابقا. وعاب (تروتسكي) على أن المستقبلية مع نبذها الماضى لم تكن ثورة بروليتارية. وجعلت المستقبلية محور قضيتها هو السعي إلى غسل الكلمات وتطهيرها من طلاء التراث الأدبي، كلمات سنسمعها هى نفسها من رجال الحداثة في بلادنا في فصول مقبلة.

ومما يجب أن نلتفت اليه هنا هو هذا الارتباط الفكري بين هذه الحركات في هذه الخصائص الأساسية للحداثة، بالرغم من تناقض المبادىء الفلسفية بين الفاشية والاشتراكية. كما يجب أن نلتفت إلى إننا سنجد هذه المعاني والكلمات والاتجاه عند حداثيي بلادنا، وكأنهم ينقلون الينا نقلاً تافهاً الثياب البالية التي رماها أهلُها.

جاء الشعر الكونكريتي (Ferro Concrete Poetry) الذي كتبه (فاسيلي كافسكي ١٨٦٤ - ١٩٦١) مصنوعاً من غير تدبر أو هدف ليمثل فنّ التهريج الذي يسمح لهذا الشعر أن يُقرأ أو يُمَثَّل بطرق شتى، تعطي كل طريقة معنى أو على الأصح وهماً جديدا. ويعطي (فيليمير خليبنكوف) في قصيدته: «تعويذة عن طريق الضحك» سنة ١٩١٠ أسلوبا لتحرير الكلمة من كل قواعدها. ويختار كلمة ثم يسعى لإقامة بناء لها لا وجود له في القواميس، مستغلا جذور الكلمة وطبيعة تكوين الكلمات في اللغة الروسية. وعندما نفهم هذا الاتجاه سيسهل علينا إدراك تبعية (أدونيس) وهو يدعو إلى إفراغ الكلمات من معانيها، وإلقاء القواميس، وإلغاء النحو والصرف. وسندرك كذلك أصول ما يدعو إليه سائر الحداثيين في بلدانا في تبعية مخدَّرة ذليلة، مما سنعرضه في فصول مقبلة.

لقد طالب بيان المستقبليين الذي أشرنا إلية سابقا «بإعطاء الشعراء الحق في رفد مفردات الناس بالكلمات المبتكرة والملفقة. . . و إعلان الكراهية غير المحدودة للغة التي ورثناها»[١] وتوالت البيانات في هذا المعنى.

وحملت الحركة المستقبلية في روسيا وغيرها حربها على السنن الكونية، على سنن الله الثابتة، لأنهم يكرهون الماضي والحاضر والمستقبل، يكرهون النظام والعدل والثبات. ولقد عرضنا في صفحات سابقة دعوة (ماياكوفسكي) للشمس إلى كوب من الشاي في قصيدته «مغامرة خارقة قام بها فلاديمير ماياكوفسكي في كوخ صيفي»، ذلك ليعيق شروقها وغروبها الأبديين.

وإذا كانت «الشكلانية» التي أشرنا إليها قبل قليل استلهمت بعض قواعد العلوم اللغوية التي جاء بها (سوسير)، فإنها في الوقت نفسه مجّدت كل الشذوذ لدى المستقبليين ومجّدت حربهم على اللغة. وكان أشهر مقال كتب في هذا الصدد هو مقال (رومان ياكوبسون) تحت عنوان «الشعر الروسي الأحدث»، الذي نشره سنة ١٩١٩. واعتبر (ياكوبسون) في مقاله هذا أن الشعر الأحدث هو ما دفعته الحركة المستقبلية، وضرب مثلاً به بشعر (خليبنكوف). واعتبر ياكوبسون لغة الشعر هي اللغة السامية، وأنكر أن يكون للمضمون أي وجود مميز له،[٢] وفرق بين نظام (خليبنكوف) الشعري الذي يمثل النظام الروسي الذي يدعو إليه، ونظام الشعر عند (مارينيتي) اللغوي العاطفي حسب رأيه. لم تعترف النظرية الشكلانية بأية مادة تقع خارج النص في أول نشأتها، وربما اعترفت بعد ذلك. ويمكن للدارس أن يقارن هذا مع «الماركسية وفلسفة اللغة» لـ (فولو شينوف). ولقد اتحدت المستقبلية في روسيا مع البلشفية، كما اتحدت في إيطاليا مع الفاشية. ولكنها اتحدت في الحقيقة هنا وهناك مع أسس الغموض والإبهام، والحيرة والشك، والثورة على القديم، والانحلال والانفلات. وأصبحت هذه الافكار كلها، مع تناقضها وتضاربها،

(١) المصدر السابق. (ص: ٢٥٦).

(٢) المصدر السابق. (ص: ٢٦٠).

منفصلة كل الانفصال عن التصور الإيماني للحياة، مهما كان موطن الحداثة شرقا أو غربا. وأصبحت مداولة هذه الأفكار أمراً عادياً بالنسبة لمجتمع عزل الدين كله في زوايا مخنوقة. حتى أولئك الذين قد يدعون لأنفسهم الإيمان بوجود إله، فإنهم لم يشعروا أن لهذا الإيمان أي علاقة بالكون، بواقع الحياة، بالأدب، بالفكر، بالفلسفة، بالعلم، أو بأي نشاط آخر كالرياضة والجنس والسياسة والاقتصاد. لقد صهرت الحياة المادية هذه النشاطات الإنسانية في بوتقة المادة، وكأنها جعلت منها سبيكة واحدة. ولكن هذه السبيكة لم ترفع القلق من أعماق نفس الإنسان، ولم تنزع الخوف، إلا بمقدار ما يقدم الجنس من خدر، وما تقدمه المسكرات والمخدرات من لحظات غياب، ينجو بها الإنسان المحطم من مجابهة الواقع.

ولهذا نجد انسجاماً كبيراً وتوافقاً ملحوظا بين نزعات المادية في الأدب الروسي، وبين النزعات المادية في الأدب الرأسمالي في أوروبا وأمريكا. لقد كان هنالك تشابه في النقاط المادية بين إنجازات الأدب الشيوعي في روسيا وإنجازات «النقاد الجدد» في أمريكا وانكلترا.[1]

ولقد ساهم (ياكوبسون) في حقل علم اللغة، وساهم النقاد الشكلانيون في بلورة نظرية (الإشارات الدالة Semiotic Theory). لقد جمع (تسفيتان تودوروف) التراجم الفرنسية للمقالات الشكلانية في كتاب أسماه «نظرية الأدب» سنة ١٩٦٥. ولقد دشّن (ليفى شتراوس) في كتابه المسمى «الانثروبولوجيا البنيوية» علم «الإشارات الدالة». ولقد أدّى التقارب بين علم اللغة والفروع الأخرى لعلم الإشارات الدالة، بكل ما يحمل هذا التقارب من جذور مادية مغرقة في المادية، وما يحمل من خصائص عرضنا لها في الصفحات السابقة، لقد أدى هذا التقارب إلى أن تجتمع شرور الحركات الحداثية في بعث فن الشعر «البنيوي» في الاتحاد السوفياتي، مهد الكفر البواح والإلحاد الصريح.

ويستنتج (ياكوبسون) أنه إذا كان المعنى سابقا هو الذي يحدد القوافي في

---

(١) المصدر السابق. (ص: ٢٦٤).

الشعر، فإن القوافي في شعر (خليبنكوف) و (ماياكوفسكى) هي الآن تبحث عن معنى. والحقيقة التي نراها، ونحن نسوق كلمات (ياكوبسون)، هي أن كلمات (ياكوبسون) نفسها هي التي تبحث عن معاني بالرغم من حلاوة التعبير، إلا أن يكون المعنى هو أن الكلمات قد فرغت من معانيها، في متاهة شيطانية واسعة حملت اسم العلم وبريقه.

لم يكن لهذا الاضطراب الفكري والنفسي والأدبي أن يظل ماضياً في غيه. فقد مات خليبنكوف، وماتت بموته «التجريبية الفوضوية»، وتوقفت بعض مجلاتهم عن الصدور، ثم انتحر (ماياكوفسكي) سنة ١٩٣٠. وبالرغم من بعض المحاولات للتخفيف من الهجوم على الماضي، وبالرغم من جهود (كروجونيخ) ومتابعته النشر، إلا أن المستقبلية أعلنت إفلاسها، ووجد (كروجونيخ) نفسه شبه ضائع مثل (م. فيروك باوند):

منفصلاً عن معاصريه،
مهملاً من الشباب،
بسبب أحلام اليقظه هذه.

فمع أن (كروجونيخ) نجا من المصير المفجع الذي دمر الكثيرين من أبناء جيله من الكُتّاب، ولكنه لم ينج من البؤس والعذاب. وعلى كل حال، فإذا كانت الحركة المستقبلية أعلنت إفلاسها هنا وهناك، فإن بذور الفتنة كانت لا تزال قائمة في المجتمعات، بكل التناقضات والقلق والغموض والشك، والثورة المتجددة، لتبعث حركة جديدة تحمل الفتنة نفسها تحت راية جديدة. ولم تكن الراية الجديدة إلا الحركة «التعبيرية» وليدة «المستقبلية».

٥ . الحركة التعبيرية :

لعل هذا التعبير استعمل أول مرة سنة ١٩٠١ للتعريف بلوحات فنية في الرسم لـ (جوليان أوجست أورفه) في باريس. وأما في ألمانيا فقد استخدم كذلك في

ميدان الرسم لتمييز مجموعة من الرسامين الفرنسيين الشباب أمثال : (بيكاسو)، (بارك)، (دوفي). ولكن (فيلهم فورنكر)، حجة التاريخ الفني، هو الذي أعطى الشرعية لهذا التعبير وهو يصف «التوليفيين التعبيريين» الباريسين الشباب أمثال : (سيزان)، (فان كوخ). ثم جاء (كارت هلر) ليطبق هذا الاصطلاح على الأدب الألماني.

لم يكن رجال الحركة التعبيرية متماسكين أول أمرهم في حركة واحدة. ولكنهم كانوا كلهم يدركون هدفاً أساسياً، عبّر عنه بوضوح (رودولف كرتز) وهو يتحدث عن مجلة أصدرها: «إن المجلة جاءت لتُقوِّض المجتمع القائم . . . . ».

هنا نلحظ بجلاء امتداد نية التدمير والإفساد في جميع حركات الحداثة. إن بواعث هذه الرغبة الدفينة كانت دائماً متوافرة في المجتمع الأوروبي الوثني المنحل. وكانت النقمة تحمل مسوِّغاتها، ولكنها لم تكن تهتدي إلى السبيل القويمة لتحقق الإصلاح. فظلت تنتقل، كما رأينا وكما سنرى، من ضلال إلى ضلال، ومن فساد إلى فساد، مع بريق في الشعار والراية أحيانا، ومع وقاحة وتفلت أحيانا أخرى.

أخذ التعبيريون يقتنعون بأن المؤسسات الرأسمالية الصناعية كانت تشوه العلاقات الإنسانية، وتوظف العقل والإرادة في خدمة الإنتاج المادي، فأهملت «الروح»، واختفت القدرة على الاستفادة من «الروح»، واختفت بذلك أنشطة كثيرة في المجتمع الألماني، وسيطر النشاط الاقتصادي الاستغلالي الجشع. فرفض التعبيريون الفن والأدب الانطباعي لأنهما قدما سطحا جميلا، كما يحسبون، بلا «روح». ونادى التعبيريون على الإنسان ليفجر الواقع التقليدي، وليقتحم القشرة التي أحاطت بالنفوس من أجل التعبير الحر عن الطاقات المكبوتة.

ولما عجز التعبيريون عن تمثيل العالم الساقط التقليدي دعوا إلى تجريد الأشياء اليومية وتفريغها من محتواها وسياقها الطبيعي، ثم تجميعها من جديد لخلق آفاق «روحانية».

ان النقمة على الاستغلال والظلم في المؤسسات الأوروبية حق. فالظلم كله

مرفوض. ولكن التعبيريين كانوا لا يدرون ما يقصدون بكلمة «الروح»، و«الروحانية»، ولا ما هي متطلباتها ولا كيف يستفيدون منها. ولذلك اكتفوا بالدعوة الى تفجير الواقع التقليدي في صورة تدميرية مفسدة، لا نهج فيها ولا إصلاح ولا معنى من معاني الخير، اكتفوا بذلك أمام العجز الكبير وهم يقفون في شك وغموض وإبهام وحيرة من شعاراتهم التي ينادون بها. ولقد ساقهم هذا العجز إلى التمادي في نهج التدمير، فتناولوا اللغة بسلاحهم المدمر، كما تناولته الحداثة السابقة لهم، وأصبح عدوانهم البشع على اللغة يمثل امتداداً طبيعياً لحركة الفساد السابقة.

إنهم أخذوا يقولون إنه لما أصبحت اللغة أداة في خدمة أغراض نفعية، فقد أصبحت عاجزة عن القيام بالمهام التعبيرية، وعاجزة عن أن تكون «إشارات دالة» على القضايا الروحية. لذلك انصب هجومهم على النحو التقليدي، وأرادوا أن تتبادل أجزاء الكلام، الاسم والفعل والوصف، وظائفها.

إنهم دعوا إلى التدمير وإلى إعادة التجميع لتكوين أشياء روحانية جديدة. وكان التدمير سهلا بصورة نسبية. ولكن أنىَّ لهم أن ينجحوا في إعادة بناء ما دمروه، أو إقامة شيء جديد. وأمام العجز المتلاحق، والفشل المتواصل، لم يكن أمامهم إلا أن يحيطوا فكرهم وعملهم وشعاراتهم بضباب كثيف من الغموض يتوارون خلفه، وبزخارف كاذبة ذات طنين ورنين، يغري ولا يعطي، يدعو ولا يوصل.

وكان من أثر العجز والفشل تغطية ذلك بالسياسة، ومحاولة ربط الأوهام الأدبية بستائر سياسية يلجأون اليها. فادَّعوا أن الفن مرتبط بالسياسة عبر مضامينه الإنسانية. وهذا قول حق! ولكن ما هي المضامين الإنسانية؟ إنهم يكشفون عن بعض نواحي ذلك بادعائهم أنها هي: «النزعة التحطيمية الغامرة»، تحطيم المؤسسات التقليدية! فظهر بينهم رد فعل لذلك ونشأت طائفة تقول إنه ليس للفن أي مضمون سياسي، وطائفة أخرى تقول إن الفن مرتبط بالسياسة عن طريق إطار الدولة. وانتشرت بعض الصحف والمجلات والنوادي تدعو إلى ذلك، وامتدت الحركات بمذاهبها من برلين إلى ميونيخ، ثم إلى براغ، ثم إلى زيوريخ! فوقع خلاف

وصراع بين المذاهب التعبيرية أدّى إلى تفجيرهم أنفسهم دونْ أن يفجروا الواقع. فاتجه فريق إلى اليسار المادي الشيوعي، وغاص فيه وتاه هناك، وتاه آخرون في نظريات أخرى. وانتهت الحركة التعبيرية على هذا النحو. ولكن في الوقت نفسه حملت هي نفسها بذور ولادة حركة إفسادية جديدة، لتمد خط الحداثة، ولتحاول المحافظة على منهج الفساد.

٦ ـ الحركة الدادائية:

ظهرت «الحركة الدادائية» في ألمانيا ردَّ فعل للحركة التعبيرية المتلاشية. كانت الحركة التعبيرية تحاول استنباط «لغة تعبيرية جديدة» يخضع لها الواقع، فجاءت الحركة الدادائية بلغتها لتعبر عن عجز المؤسسات الإنسانية عن احتضان الواقع المتقلب المتلون. ولما كان التعبيريون يرفضون الواقع ويدعون إلى تحطيم مؤسساته، فقد أرادت الحركة الدادائية أن تعيش الواقع، وأن تعيش انحطاطه، انحطاط القرن العشرين! لقد كانوا يبتهجون بانتهائهم إلى هذا الكون. ولكنهم سيعودون الى لعنة الواقع بعد حين.

أسس الدادائيون في برلين «النادي الدادائي» سنة ١٩١٨. وانطلق النادي في حربه ضد التعبيريين يتهمهم بأنهم يقدمون أدباً رسمياً يحابي الوضع القائم. وبدأت الحركة الدادائية تأخذ منحى اليسار، ولكنه يسار يختلف عن يسار التعبيريين، وأخذوا يدعون الى ثورة دائمة مستمرة في مكان واحد.

لقد كان للحرب العالمية الأولى أثر كبير في ظهور الحركة الدادائية، وكذلك الحركة السريالية. ولكنها، بعد ظهورها، أخذت تكتشف عدم قدرتها على فهم الواقع المضطرب. لقد رأته واقعاً محيراً، غير مترابط، لا يمكن عرضه بمنجهية منظمة. واعتبروا، من أجل ذلك، أن الحواس تمدنا بمعلومات مضللة عن الواقع. وبناء على ذلك دعوا الى أنه لم يعد هناك فائدة من كتابة التجربة، ما دامت التجربة مضللة والحواس مضللة، فلابد اذن من أن يرتبط الكاتب والشاعر ربطاً مباشراً بين مشاعره والكون، ربطاً سلبياً استسلامياً لا حدود له!

لقد كان أمراً بديهياً أن تنتهي المعركة الطويلة في أوروبا، وأن يختم الصراع الممتد، بهذا الاستسلام الذي لا حدود له، الاستسلام النهائي، أمام صدمات نفسية، وفشل متلاحق، وعجز متواصل. كيف لا؟! والصراع لم يكن إلاّ صراعاً مع سنن الله الثابتة، صراعاً طغى فيه الغرور في لحظات حتى بلغ أعلى حدوده، حين ظن الإنسان نفسه قاهراً للطبيعة. ثم حطم الفشل نفسه، وجعله الله سبحانه وتعالى يرى عجزه المتلاحق المتصل، فانهارت قواه، وذهب إلى أقصى الاتجاه الآخر، الاستسلام النهائي، الاستسلام الذي لا حدود له. ولكن الاستسلام لمن؟! ظل الكفر ينشر ظلامه حتى عميت الأبصار والبصائر، فلم تخشع القلوب لله، ولم تستسلم له، فأخذها الله أخذ عزيز مقتدر. ولقد ظهرت السريالية مع الدادائية، كما سنرى بعد قليل، لا لتصلح أو تُقوِّم، ولكن لتمعن في الاستسلام، وفي إطلاق العنان للشهوات المجنونة والرغبات المتفلتة.

لقد كان هذا الاتجاه رد فعل واضحاً لجنون العظمة القاتل، وغرور النفس المهلك، الذي ملَكَ التكعيبيين والمستقبليين. وكان كذلك نتيجة حتمية لغياب التوحيد وأسس الإيمان الصادق، ولغياب الميزان العادل الأمين من بين أيدي الناس.

لقد بلغ اليأس والحيرة والشك أعلى الدرجات عند الدادائيين والسرياليين. لقد مقتوا الحضارة اللا إنسانية التي يرونها بعد أن عاشوها، مقتوها ومقتوا مجتمعاتها، ويلغ المقت ذروته حين أطلقت المجلة الباريسية «التراتوز» سنة ١٩١٩ سؤالها الكبير: «لماذا نكتب؟!» ثم أتبعته بسؤال آخر أشدُّ يأساً : «لمن نكتب؟!» . وازدادت الهوة بين الكلمة التي تكتب والحقيقة التي يعيشها الإنسان.

لقد برز نشاط الحركة الدادائية في مناطق متعددة من الأرض، تحمل هذا اليأس والضياع، مثل: نيويورك، برشلونة، زيوريخ، برلين، هانوفر، كولون، وباريس. إنها صورة مفزعة للإنسان في الأرض.

لقد أخذ الدادائيون في مسيرتهم بعض خصائص الحركات السابقة لهم،

الحركات الحداثية المتناقضة: أخذت الفن التلصيقي عن التكعيبية، وطباعة النصوص بصورة بهلوانية من المستقبلية، واستعمال الألوان غير المفيد من التعبيرية، والابتكارات الشعرية من (أبولينير)، وأخذوا من نظريات (مارينيتي) و(أوكست سترام)، وغيرهما. و«الفن التلصيقي» هو فن يُنْتَج جماعياً دون أن يذكر أسماء المنتجين، ولقد أسماه الدادائيون «فاتا كاكاس Fatagagas».

برز من الدادائيين (تزارا) ليطلق بياناتهم، وليكتب بلغة غير مترابطة، ضاربة عرض الحائط بقواعد النحو وبقواعد المنطق، مغرقة بالفوضى والتناقض. وكان يرى أنّ على الحركة الدادائية أن تبقى شاردة غير قابلة للتدقيق. إنها تموت إذا إتجهت إلى الجد والوضوح والاستقامة.

لقد كان هذا اعترافاً واضحاً صريحاً بالعبث والتهريج. ولكن المجتمع كان يتسع لكل هذا الضياع. واستمر أسلوب الدادائيين على هذا النحو حتى استنفد المهرج (تزارا) أساليبه ووسائل خداعه وتهريجه[1]. ونقل (تزارا) الدادائية إلى باريس وساعده هناك: (أندريه برايتون)، و(لويس أراغون) و(فيليب سوبو)، واشتركوا جميعا في تحرير مجلة الحداثة: «الأدب»، ثم ظهرت مجلات وصحف أخرى للحركة الدادائية: «الدادائية»، «بروفيرب»، «391» وغيرها.

ولقد ساهم (جاك فوشيه) في نشر الدادائية في فرنسا من خلال مزاجه المتقلب، وضياعه وانفلاته. كان يعتبر أنه لا جدوى من أي شيء في الحياة، وحاول الهروب من كل شيء، ثم توفي في ظروف غامضة سنة ١٩١٩.

أما (سوبو) و (برايتون) فقد رغبا بتسجيل همسات اللاوعي لمحاولة فك أسرار اللغة، وأخذا باستنباط دروس من النصوص الشعرية التي سجلاها وطبعاها سنة ١٩٢٠ تحت عنوان «حقول مغناطيسية».

٧ - الحركة السريالية:

ومن فرنسا، في قلب الدادائية، بدأت بذور «الحركة السريالية» بالنمو

(١) المرجع السابق. (ص: ٢٩٢).

والظهور على شكل حركة جديدة تحاول التخلص من كل ما يكبح حرية التعبير. فاعتمدوا فن إثارة الفضائح، متمشين بهذا النهج مع الدادائية،، ولكن على صورة أوسع. اعتمدت الحركة الجديدة التنويم المغناطيسي، وتحليل الأحلام، وإعلاء شأن الحب والجنس، والاهتمام بما يتوهمونه أنه لحظات ثرية يوفرها الوجود. إنها في الحقيقة لحظات وهم وضياع. وحين رفض (تزارا) أفكار (فرويد)، فان (برايتون) اعتبر أفكار (فرويد) وعياً ثورياً.

يعتبر السرياليون أن العقل قادر على إمداد نفسه بأسباب الحياة أمام حالة «الفوضى الشاملة»، أو حالة «اللاتكون» : «Chaos». وبذلك يصبح العقل وحده قادراً على جمع شظايا العالم وربطها، وعلى استغلال القوى التي أضعفتها الحضارة المادية، والتي لا يملكها إلاّ الأطفال والشعوب البدائية والمجانين. . ولم تقتصر الحركة السريالية نشاطها في الميدان الأدبي، ولكنها امتدت كذلك إلى ميدان الرسم. ورأى السرياليون أنه بدلاً من الاعتماد على التحليل المنطقي الذي ثبت فشله برأيهم، فيمكن اللجوء إلى التفكير القياسي التشابهي (Analogical Thinking) الذي يسمح بإعادة تصنيف تجربة الإنسان بطريقة حدسية عاطفية.

يسعى السرياليون إلى اقتراح لغة جديدة للناس. وكأنهم يرغبون أن يغير الناس حياتهم إلى مجتمع ثوري بديل في المجتمع القائم. كتب الشاعر المكسيكي السريالي (أوكتافيوباز): «لا تعتزم السريالية صياغة القصائد بقدر ما تعتزم تحويل الناس إلى قصائد حية». كلمات مثل غيرها من كلمات الحداثة تحمل الرنين والطنين، ولا تحمل معنى ولا تقود إلى نتيجة. كيف سيحولون الناس إلى قصائد، وإلى قصائد حية؟! ما هو النهج؟! ماذا يريدون حقيقة؟!. أغلب الظن أنهم هم أنفسهم لا يعلمون، وكذلك غيرهم لا يعلم، ولكننا كلنا نعلم، مع قليل من التدبر، أن كلماتهم هذه هى كلمات مهووسة، تدعو إلى هوس، إلى فوضى شاملة عارمة.

فمن الطبيعي اذن أن يختلف السرياليون فيما بينهم إلى مذاهب متصارعة، كما اختلف غيرهم، ما دام الهوى والمزاج والهوس هو محور الفكر والعمل. فالتف أناس

حول (تزارا) وأخذوا بتهريجه، والتف أناس حول (برايتون) وأخذوا بهوسه. وأخذت جماعة برايتون تظهر أمام الناس في أزياء وملابس هستيرية. فيظهرون أحيانا بملابس السحرة أو قطاع الطرق أو المهرطقين.

ارتبطت الحركة السريالية بانضباط ونظام، وبالانتماء الرسمي للحركة، وهذا ساعد الحركة على أن تمتد بين فرنسا وبلجيكا وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا وهولندا واسكندنافيا وبريطانيا واليابان وجزر الكناري، وفي جميع أجزاء أمريكا الجنوبية. وساعد على ذلك الانتشار أيضا المباديء المغرية في طنينها، الفارغة في معناها، مما شجع المهووسين هنا وهناك على الانتماء. وساعد أيضا على ذلك ممارستهم لجميع أبواب الفنون ما عدا الموسيقى.

وبالاضافة إلى ما سبق عرضه من طنين شعارات ورنين عبارات فإننا نورد هنا نماذج أخرى:

«إنهم يتطلعون إلى ذلك اليوم الذي تكون فيه الطبيعة الإنسانية والإنسان الطبيعي يتحاوران معاً بوضوح كبير دون عائق». مبدأ طوبائي، وجمل عائمة، وأفكار فارغة كالطبل. كيف يتم هذا التحاور بين الطبيعة الإنسانية والإنسان الطبيعي؟! ما المقصود؟!.

ويقولون كذلك:

«إن الفنان هو كل إنسان وإن كل إنسان هو رجل كامل». فمع اهتمامهم بالجنس الا أنهم هنا نسوا المرأة فنزعوها في هذا التعبير من عالم الفن، ونزعوها كذلك من الإنسانية، ربما دون أن يدروا، وربما فعلوا ذلك وهم في غمرة الجنس الملوث، والمخدرات القاتلة.

ليس من الجريمة أن نفكر في الإنسان الكامل ولكنه خطأ علمي، ومحاولة متناقضة. فالإنسان هو هذا المخلوق الذي مرَّ عليه الزمن الطويل على سطح

الأرض، وهـو يحمل خصائص الإنسان المميزة لوجوده، فبعضها أصبح معروفاً، وبعضها لمَّا يعرف بعد. ولكنها على كل حال تحمل بينها خصائص من قوة أعلاها الإيمان والتـوحيد، وخصـائص من ضعف أبـرزهـا الشهـوة والهوى، وبينهما يعلو الإنسـان ويهبط، ويُبتـلي ويُمحَّص. وتظل الحداثة صورة هبوط عميق للإنسان، وابتلاءً واسعاً من الله ليمحص الله الذين آمنوا، ولتقوم الحجة على الكافرين.

هذه بعض حركات الحداثة وليست كلها. هى نماذج تقدم صورة جليَّة. إن حركـات الحـداثة هذه انتهت في بلادها واحدة بعد الاخرى. **فقد انتهت حداثة الحركة المستقبلية في روسيا بحدود سنة ١٩٣٠، وانتهت الحركة الدادائية في المانيا بحـدود سنـة ١٩٢٠، في زيـوريـخ وفي برلين**. وسبق ذلك توقف مد الحركات الأخرى. الا أن ذلك لم يكن يعني أنها لم تترك أثراً. لقد ظلت الخصائص الأساسية للحداثة ممتدة في الحياة الجاهلية التي عاشتها تلك المجتمعات سواء في روسيا وأوروبا وأمريكا، الحياة التي سبق أن قدمنا وصفاً موجزاً لها.

وسنرى في الفصول المقبلة كيف أن أفكار الحداثة التي بليت في بلادها، حملها الحـداثيون عندنا وكأنها بضاعتهم وصناعتهم، وكأنها فلسفتهم وفكرهم. وهم لم يكونوا أكثر من مقلدين فاشلين.

من هذا العرض أرجو أن يكون تصور «الحداثة» وفكرها ـ إن كان لديها ما يمكن تسميته بالفكر ـ أقرب إلى فهم المسلم، ليعي المسلم حقيقة الخطر، وموطن الداء، وسبل العلاج والدواء.

وليس شرطاً أن نضع دائماً تعريفاً محدداً «للحداثة» أو غيرها، ففي العرض السابق ما يغني عن التعريف. ولكن عدداً من رجال الفكر قدموا تعريفات متنوعة للحداثة عرضنا نماذج منها في الفصول السابقة. لذلك نحاول نحن هنا أن نخرج بتعريف للحداثة نعتقد أنه أقرب للصواب والدقة. وقبل أن نقدم مثل هذا التعريف يجب أن نوضح أن الإنسان في تاريخه كله كان يبحث دائماً عن الجديد في هذا الكون الممتد من خلال أبحاث وتدبر وسعي. وكذلك كان في كثير من الأحيان يقدم جديداً

في واقعه من خلال جهده وعمله، ليمثل هذا الجديد صورة من صور النمو والتطور. فترى نمو وسائل المواصلات والاتصالات والمساكن والطرق والآلات والصناعة والزراعة واللباس وغير ذلك. كان إذن هنالك نمو وتطور في حياة الإنسان. وباستعراض تاريخ البشرية نجد أن مثل هذا النمو والتطور كان دائماً يقوم على أسس من الثبات لولاها لما استطاع الإنسان أن يطور عملا. وكذلك كان هذا النمو والتطور يأخذ أحد اتجاهين: **اتجاه يحمل معه الشر والإفساد في الأرض، والظلم والعدوان، وكان هذا هو سبيل الكافرين الظالمين، واتجاه كان يحمل معه الخير والإحسان، والأمن والأمان، وكان هذا هو سبيل الرسل والأنبياء وأصحابهم المؤمنين.**

إذا وضح أمامنا هذان الخطان فإنه من اليسير عندئذ أن تتضح صورة «الحداثة» على شكل أكثر جلاء. فالحداثة في تاريخ الإنسان هي البحث عن جديد. ولكنها في واقعنا اليوم هي أسلوب خاص في هذا البحث، أسلوب يرتبط بالاتجاه الأول الذي عرضناه قبل قليل.

لذلك كلِّه نودُّ أن نختم هذا الفصل بالتعريف الذي سبق أن عَرَضناه في نهاية الفصل الثاني من هذا الباب، لأهميته:

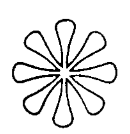
« (إن الحداثة) اليوم تمثل الصورة المنحرفة لسعي الإنسان إلى الجديد، سعياً متفلتاً من الإيمان والتوحيد، غارقاً في ظلام الشرك والإلحاد، سعياً يجمع خبرة آلاف السنين من الانحراف والشذوذ، والأمراض النفسية والعصبية، والشر والفساد في الأرض، وطغيان الشهوة الجنسية الملتهبة، وفورة سائر الشهوات، وسيطرة الأفيون والخمر والمخدرات، لتدفع هذه كلُّها ردودَ فعل نفسيّة عنيفة غير واعية، تظهر في الفكر والأدب والسلوك، في ثورة هائجة تحاول هدم الماضي والحاضرة بصورة مستمرّة متتالية، مع القلق والخوف القاتل من المستقبل، في هجوم جنوني على الدين واللغة، وعلى التراث كله بما فيه من خير وشر، وثورة على الحياة، وعلى سنن الله في الكون، بين قلق الشك والريبة، وفجور الكبر والغرور. إنها تمثل انحطاط الإنسان إلى أسفل

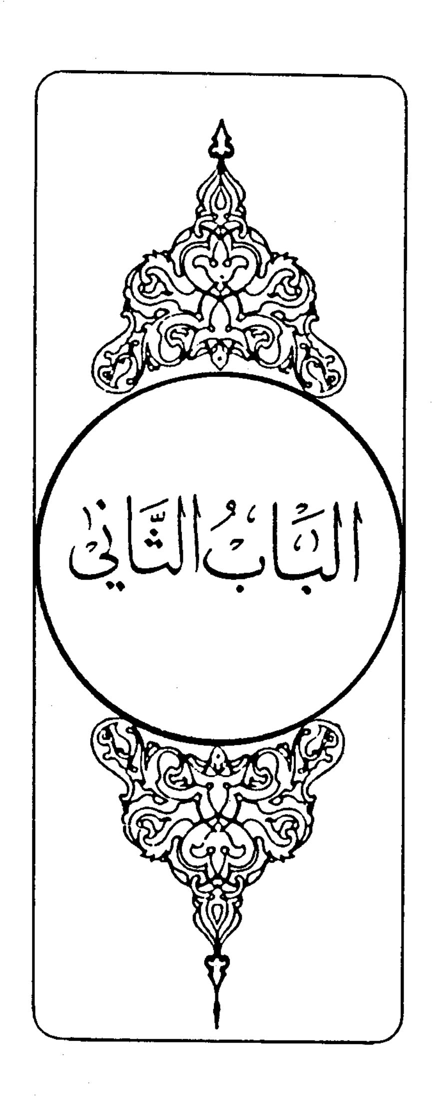
سافلين» .

ومهما فعلت «الحداثة» في خطها هذا، فإن الإيمان والتوحيد، ماضيان في الأرض، يمدان الإنسان بالخير والإحسان. وستظل «الفئة الظاهرة» تجاهد في الحياة الدنيا في سبيل الله، قدراً من عند الله، وسنّة ثابتة من سننه، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

(هود: ١١٦، ١١٧)





مع نماذج
من فكر الحداثة وآدابها

الفصل الاول

دخول الحداثة إلى العالم الاسلامي

العالم الإسلامي هو الأرض التي امتدت مع التاريخ البشري لتستقر فيه عقيدة التوحيد والإيمان في رسالة الإسلام، يحملها منهاج الله ـ قرآناً وسنّة ـ كما أُنزلت على محمد ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين. في هذه الأرض الممتدة، كان الأمل أن يمضي النموّ والتطور في حياة الإنسان على أُسس التوحيد والإيمان، على أُسس منهاج الله. ولكنّ سنن الله ماضية على حكمة ربّانية، اقتضت أن يُبتلى العالم الإسلامي بصور من التخلف على فترات متعددة من التاريخ، لينهض بعدها فيجدِّد مسيرته. ومن خلال هذا التخلف والنهوض، فقد العالم الإسلامي بعض أراضيه كالأندلس، ثم أخذه التمزُّق في عصرنا الحديث، بعد انهيار الخلافة العثمانية.

كان الغزو الأوروبي متلاحقاً على العالم الإسلامي، غزواً يحمل كل أنواع أسلحته: العسكرية، والفكرية، والأدبية، والاجتماعية، والشهوات الملتهبة في أشكالها المتعددة.

لقد وفدت «الحداثة» إلى العالم الإسلامي في عصرنا الحاضر من البعثات التي عادت من أوروبا، أو الذين انطلقوا من أنفسهم يطلبون العلم هناك أو يهاجرون لطلب الرزق في أوروبا أو أمريكا، أو الرجال الزاحفين علينا من بلاد الغرب، زحفاً عسكرياً، أو زحفاً نصرانياً، أو عن طريق مؤسسات الفساد وأنديته كالماسونية والروتاري وغيرهما. قوى هائلة عملت على نقل الفكر الحداثي للعالم الإسلامي، قوى خارجة عنّا، وقوىً منّا.

لعل الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م كانت من بواكير الغزو في العصر الحديث، الحملة الفرنسية على مصر يقودها نابليون بونابرت مع خططه وأدواته وأسلحته،

ليفسد في العالم الإسلامي ويمدّ من أطماعه. لقد رافق الحملة هذه: مطبعة، بعثة علمية، البغـايا والمومسات، ونواياه الخبيثة التي حولت هذه الأدوات كلها، قوى تعمل لإفساد المسلمين في أرض المسلمين. فأثاروا كل العصبيات والنعرات الجاهلية كالفرعونية والإقليمية وغيرهما، وأثاروا كل شهوات النفس من جنس وخمر وانحلال. وأخذت جذور الحداثة تمتد في العالم الإسلامي.

وكان الإنجليز قد مدوا جيوشهم في مناطق أُخرى من العالم الإسلامي لتنشر الفساد نفسه، وكذلك فعلت دول أوروبا الأُخرى على فترات متلاحقة، تنقضّ فيها على العالم الإسلامي لتنشر الفساد والانحلال، وتنهب الخيرات والثروات.

وجـاء الاحتـلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢م، واحتلالها قبل ذلك للهند وعـدن والبحـرين وغـيرها، واحتلال هولندا لأندونيسيا، وإيطاليا لآرتيريا وليبيا، وفـرنسـا للجـزائر وتونس والسنغال والنيجر وساحل العاج وتشاد وغيرها، وروسيا للقـوقـاز وطشقند وسمرقند وبخاري وغير ذلك من ديار المسلمين، لقد جاء هذا الاحتـلال كله ليحاصر العالم الإسلامي ويصبّ فيه كلّ شرور أوروبا وفسادها. وانهارت الخلافة الإسلامية تحت معاول التآمر.

لقـد عاد الشبـاب المتسبـون إلى الإسـلام من أوروبـا، وقـد خلعوا رداء الإسـلام، وحملوا فجـور أوروبـا وانحـلالهـا، مغطّى بشعارات خفيفة من العلم والحضارة. عادوا ليدعوا إلى حرية المرأة وانحلالها وسقوطها، وليدعوا إلى محاربة اللغة والدين والتاريخ، وليدعوا إلى حضارة الرقص والحفلات، ولم يعد أحد يحمل صناعة الطائرات والسيارات والسلاح.

لقد أطلقت مصر، مثلاً، أول بعثة طلابية إلى فرنسا في أوائل القرن التاسع عشر، عاد منها (رفاعة رافع الطهطاوي) رافعاً لواء الحداثة، داعياً إلى تبعيَّة أوروبا، مع شيء من محاولة المواءمة. ونهج هذا النهج عدد من رجال الإسلام، فزلزلوا عقيدة فئة من الناس، فئة انساقت وراء ذلك البريق الخادع.

جاء (سلامة موسى) ليمضي خطوة أبعد في التبعية، خطوة تدعو إلى قطع الصلة مع ماضينا، مع أرضنا، مع ديننا، والارتماء كلية في تبعية وعبودية للغرب. يقول (سلامة موسى) في كتابه «اليوم والغد»: «كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامي أغراضي في الأدب كما أزاوله. فهي تتلخص في أنه يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوروبا. فإني كلما ازددت معرفة بالشرق زادت كراهيتي له، وشعوري بأنه غريب عني، وكلما ازددت معرفة بأوروبا زاد حبي لها وتعلقي بها وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها. . . »[1].

ويهاجم سلامة موسى الثقافة العربية والإسلامية، ويهاجم رجالها وأدباءها وشعراءها، وتاريخها هجوماً وقحاً.

وجاء (طه حسين) من فرنسا كذلك، بعد ذلك بسنوات قليلة ينشر الدعوة إلى تحطيم تاريخنا وديننا وأدبنا وإلى الالتحاق بأوروبا وزخارف حضارتها. فنشر كتابه: «مستقبل الثقافة في مصر» نهج فيه نهج (سلامة موسى)، ولكن بأسلوبه الخاص المتميز. فيقول في كتابه «مستقبل الثقافة»:

«اللغة ملك لنا ولا حق لرجال الدين أن يفرضوا وصايتهم علينا». ويقول: «اللغة العربية وما يضفي عليها رجال الدين من قداسة باعتبارها لغة القرآن، لغة وطنية ملك لنا نتصرف منها. . . . »[2]. يسلك طه حسين مثل هذه الأساليب ليهاجم الدين واللغة، وليفصل بينهما فصلاً يرجو به الفرصة ليضرب هنا ويضرب هناك. وحاول إدخال الحداثة إلى طريقة الكتابة حين نشر فصولاً عن ذلك في جريدة الجمهورية سنة ١٩٥٦م. وكذلك دعا إلى تيسير النحو والقواعد، وشُغِل الناس بقضايا لم يصلوا بها إلى نتيجة من ناحية، ولم يلتفتوا إلى شيء جدي يخدم الأُمة من ناحية أخرى. إن أسلوب التشكيك، وأسلوب المديح قبل الهجوم، أسلوب آتى ثماره في إشغال الناس بقضايا كثيرة، وباتهامات كثيرة، يفتح لها الأُسلوب أبواب الجدل

(١) محاضرة د. محمد مصطفى هدارة: المعاصرة والتراث.
(٢) محاكمة فكر طه حسين. أنور الجندي. ص: ٩٣.

الذي لا ينتهي، وأبواب الغموض والإبهام، واستنفاد الطاقات وإلهاء الناس عن مآسٍ أكبر تدار خفية.

ودعا طه حسين إلى دراسة اللغة اليونانية والرومانية. يقول في كتابه «مستقبل الثقافة»: «إن عقلية مصر عقلية يونانية وأنه لابد من أن تعود مصر إلى أحضان فلسفة اليونان»[١].

ويقول كذلك: «إن التعليم العالي الصحيح لا يستقيم في بلد من البلاد الراقية إلا إذا اعتمد على اللاتينية واليونانية على أنهما من الوسائل التي لا يمكن إهمالها ولا الاستغناء عنها. . . .»[٢].

وانطلقت دعوات لتغيير اللغة في مصرٍ وغيرها من البلاد العربية والإسلامية، وبدأ هجوم شرس على الدين واللغة يحمل الأسلوب الذي عرضناه في فصل سابق، كأن رجالنا هنا ينقلون نقلاً عن «هَوَسٍ» أوروبا في تبعيّة مخدَّرة ذليلة.

يقول نزار قباني: «كانت اللغة أملاكاً خصوصية، اللغويون جمعية منتفعين. كانت الفتوى بشرعيّة كلمة أو تعريب مصطلح علمي أو تقني تستغرق من المجامع اللغوية ثلاث سنوات من التنجيم والاستخارات، والألوف من كؤوس الشاي والبابونج. . . .»[٣].

أُسلوب من الهزء والسخرية، أُسلوب التائه الحيران، الثائر على كل شيء! إنه أُسلوب يختلف عن أُسلوب التشكيك والالتواء الذي يتبعه طه حسين، ولكن الأُسلوبين يهدفان إلى قضية واحدة، تنطلق إلى محاربة الدين واللغة والتاريخ.

فلا عجب أن نجد نزار قباني يمجد طه حسين في قصيدته التي ألقاها في مهرجان طه حسين، يمجده من خلال الانسلاخ عن الجلد، حين يقتلعان جلديهما بيديهما:

(١) المرجع السابق. (ص: ١٢٢).
(٢) المرجع السابق. (ص: ١٥٨).
(٣) محاضرة د. محمد مصطفى هدارة: المعاصرة والتراث.

عُدْ إلينا، ياسيِّدي، عد إلينا وانتشلنا مِن قبضة الطوفان
أنت أرضعتنا حليب التحدِّي فطحنًا النجومَ بالأسنانِ
واقتلعنا جلودنا بيدينا وفككنا حِجَارَةَ الأكوان

نسي نزار قباني في متاهة هذه الأبيات أنه لم يطحن النجوم أبداً، فالنجوم ما زالت مكانها. ولكنه طحن نفسه، ولم يفكك حجارة الأكوان، فما زال الكون على حاله، ماضياً على سنن الله الثابتة، ولكنه فكك حجارة كيانه. وإذا صدق في شيء من قوله هذا فلعله صدق حين قال: «واقتلعنا جلودنا بيدينا». نعم! اقتلع هو وطه حسين وغيرهما جلودهم بأيديهم. ولكنّ جلودهم ستظل تشهد عليهم يوم القيامة بين يدي العزيز الجبار، مهما سلخوها وأبعدوها عنهم:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (فصلت: ٢٠ ـ ٢٤)

ومضت أُمتنا تنتقل من مأساة إلى مأساة، لا ينقلها إلى ذلك الحداثيون الأُدباء وحدهم، ولكن الغافين واللاهين، والعابثين والمغفلين، شاركوا في صناعة المأساة في حياتنا. ليت نزار قباني لجأ حقّ اللجوء إلى الله، لينتشلنا الله وحده من الطوفان، من البركان، من الزلزال!

ويقول يوسف السباعي: «يجب أن نتحلل من هذه القيود السخيفة. لماذا كل هذا التعب؟ ألأن العرب منذ الف سنة رفعوا هذه ونصبوا تلك. لنسكن آخر كل كلمة. ولنبطل التنوين. ولنقل الجمع بالياء فقط، ولنحرمْ أدوات الجزم والنصب من

سلطانها. . . .» .

وامتد أثر الحداثة في واقعنا وعالمنا الإسلامي حين ظهر الشعر الحر يهدم أسساً متنية من أسس اللغة والأدب والشعر، تمهيداً لهدم أسس أخرى. لقد رأينا كيف ابتكر (كوستاف كان) تعبير الشعر الحر، وكيف تلقفه (مارينيتي) رأسُ الحركة المستقبلية الإيطالية، وكيف قال المستقبليون: «بعد الشعر الحر أصبح عندنا كلمة حرة». حرة من كل معنى ومبنى وقواعد بعد هدم اللغة وأسسها.

وانطلقت نازك الملائكة تقول في مطلع حركتها الهوجائية تقول: «إنني أتمنى لو تعاون الشعراء الشباب المثقفون في البلاد العربية جميعاً على دكّ جدران هذه القلعة العنيفة ـ قلعة القافية. . . .». ولما أدركت نازك الملائكة هول الجريمة التي فتحتها عادت لتقرر أهمية القافية في الشعر العربي. ولكن الشعر الحر وجنايته كانا قد امتدّا، وقام الحداثيون يهاجمون ويحاربون نازك الملائكة.

ثم التقى تهديم اللغة مع تهديم الأخلاق حين يغتر نزار قباني باللقب الذي أُطلق عليه «شاعر الفضيحة». وجاء جبران خليل جبران يهاجم الدين ورجاله بأسلوب بذيء في «الأجنحة المتكسرة». فاسمع يقول: «. . . هكذا يصبح الاسقف المسيحي والإمام المسلم والكاهن البرهمي كأفاعي البحار التي تقبض على الفريسة بمقابض كثيرة».

وأصبح شعراء في بلادنا يعتزون بالشعراء الشيوعيون هنا وهناك. يذكر الدكتور محمد مصطفى هدارة في محاضرته عن المعاصرة والتراث أن نزار قباني يكرر اسم الشاعر الشيوعي الإسباني (لوركا) أكثر من عشر مرات في أشعاره معتزًا به. وتمضي الألفاظ النصرانية في الشعر العربي لتثبت معاني من النصرانية ليست من الإسلام: الصليب، شماس، ابرشية. . .! يستخدمها شعراء ينتسبون إلى الإسلام.

وتمضي الحداثة تنتشر في مجتمعاتنا تحت ستار الأدب والقومية والعلم والتطور

وغـير ذلـك. ولقد انتشرت في مصر تحت جميع هذه الشعارات، وكذلك في بلاد الشام. ولكن الظاهرة التي نحب أن نسجلها هي الظاهرة السياسية في الحداثة في بلادنا حيث حمل العائدون من أوروبا الروح القومية التي فصلت البلاد، وحطمت الخلافة، ودعت علانية للتعاون مع المعتدين الظالمين، ومضت في تنفيذ ذلك عملياً، حتى كانت مأساة العالم الإسلامي، المأساة التي ما زلنا نعاني من ويلاتها ومصائبها حتى اليوم، وإلى زمن لا يعلمـه إلا الله. لقـد حمل العائدون من أوروبا التبعية النفسية والفكرية والخلقية والسياسية، فماذا ترجوا منهم بعد ذلك؟ ولكن الأدهى من ذلـك كله أنَّهم استطاعوا بمساعدة الأجانب والمغفلين من أُمتنا والمنافقين منها أن يخدعوا الرأي العام، ويسـوقوه ليساهم في تنفيذ الجريمة، وليستقبل الجيوش الغازية المحتلة في فرحة النصر البلهاء، لا يصحو منها إلا على دويّ: الآن انتهت الحروب الصليبية، وعلى دوي (غورو) يقول: قم يا صلاح الدين!.

ومضت الحداثة في بلادنا تشقُّ طريقها وسط هذه المآسي والمجازر والأشلاء، لا يطرف لها جفن، ولا يحركها أسى ولا ندامة. تمضي الحداثة ويمضي رجالها يحتلون كل يوم موقعاً جديداً في أرض الإسلام، هنا وهناك، تحت ستار حيناً، وحيناً آخر في جلاء الميدان والدم المسفوك.

وتمضي الحداثة تجرد المرأة من ثيابها وحجابها وخلقها في بلاد الإسلام، وترميها في لهيب الفتنـة حتى تحرق وتحترق، ولتصبح المرأة عاملاً مساعداً في فتنة الحداثة ونشرها وتنفيذ جريمتها، بين تصفيق المجرمين والمنافقين والمغفلين.

وتلتقي الشيوعية والـرأسـمالية، تلتقي ديكتـاتـورية الـبروليتـاريا الـروسية وديمقراطية الغرب، في لقاء موثَّق على تنفيذ مآسينا، وعلى صناعة رجال، أو أشباه رجال، منَّا، من قومنا، يتولَّون هم تنفيذ الجريمة نيابة عن الغرب والشرق.

ولعله من المفيد لنا أن نبحث في بعض أسباب هذه الفتنة التي ألقت بالكثيرين في نارها وأُوارها. ولابد من أن نقرر أن معرفتنا لأسباب الفتنة لا ترفع المسئوليّة عن كاهل كل إنسان. فكل إنسان سيُحَاسب بين يدي الله سبحانه وتعالى يوم القيامة

حساباً عادلاً، يوم يقيم الله الموازين القسط. ولكننا نبحث اليوم في الأسباب لنعتبر نحن، ولننظر في آيات الله في خلقه فنخشع ونُنيب، وكذلك لنذكر ونقرع القلوب، فعسى أن يستيقظ بعض النائمين، ويفيق بعض الغافلين. إننا ندرس أسباب الفتنة حتى ننجو كلُّنا من لهيبها، ونعين غيرنا على النجاة.

لقد ذهب رجال ينتسبون إلى الإسلام العظيم، ذهبوا إلى أوروبا وهم لا يحسُّون بعظمة الإسلام، بعد أن أرهقتهم الحياة في بلادهم بين جهل منتشر، وظلم قاهر، وفوضى ممتدة، وأهواء ثائرة. ذهبوا إلى أوروبا وهم يحسّون بالمأساة التي تعيشها بلادهم بين قهر الاحتلال، ووهن الأمة والبلاد. ذهبوا وهم لا يُحسّون بعظمة الرسالة التي تحملها بلادهم وأُمتهم، ولا يحسّون بالخير العظيم في أرضهم وديارهم، الخير الممتد الذي ينتظر عزيمة الرجال وصدق المؤمنين، حتى يتألق الخير في واقع كريم وحياة نظيفة متوازنة، وحضارة هي أسمى من كل حضارة. ذهب شبابنا إلى أوروبا وهم لايدركون المسئولية العظيمة الملقاة على أكتافهم، والأمانة في أعناقهم. لم يدركوا أن الإنسان في أوروبا هو في أمس الحاجة إلى نعمة الإسلام، وإلى عظمة الإيمان. ذهبوا هناك وهم يشعرون بالعجز والهوان والنقص.

هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى وجدوا هناك البريق الخُلّب. وجدوا الشهوات الثائرة بين فجور العري، وغيبوبة الخمر، وزهوة الحضارة المادية، ورقيّ العلوم التطبيقية. ووجدوا أهم من هذا كله، نظاماً يسود المجتمع، وإدارة يخضع لها الجميع. وجدوا معاملة ما عرفوها في بلادهم. هناك في بلادهم يُسحقون تحت معاول الظلم والعدوان الذي تغذيه أوروبا نفسها، وهنا يحسون بشيء جديد، براحة المعاملة، وحلاوة اليسر والإدارة، وحماية «ذلك المستوى» من الحقوق الانسانية، حتى يكاد يشعر أن قسماً من إنسانيته قد عاد إليه، بعد أن فقد الكثير منها في بلاده. لم يكن يستطيع أن يكتشف هناك أن الإنسان مخدر في شهواته خدراً عظيماً، حتى رضي بالشرك والكفر، ورضي بأن يلهث وراء رزقه بين غانية وكأس، ورضي بأن يصبّ عرقه من الصباح الباكر حتى المساء، لا يجد فسحة لتأمل وتدبّر إلا في قطار

أو طائـرة أو سيارة. رضي بنـظام سمَّوه الديمقراطية، جاد عليه بشيء من حقوق الإنسـان، وجـرّده من أهم أُسس الإيمان. لم يكن الإنسان المنتسب إلى الإسلام يستـطيع أن يدرك حقيقـة الفساد في الحضارة الغربية وقد أخذه ألَقَ الحياة المادية هناك، وتطور العلوم التطبيقية، ودوي الصناعة وهدير الآلات، وحطَّمه في الوقت نفسه قهر الاستبداد في بلاده، وذل الجهل والضياع، بين أنياب الغازين المعتدين، وأطماع المرائين المنافقين، وسطوة الجهلة المغفّلين. شيء هناك من بريق، وكثير هنا من ظلم، جعـل الحضارة المادية تبهره وتسحره، وتجذبه وتشده، حتى قال رفاعة الطهطاوي ما قال، وقال سلامة موسى ما قال، وقال طه حسين ونزار قباني وغيرهما ما قالوا.

إنها فتنة كبيرة ! لا ننكر ذلك. ولكنها لا تقدم عذراً لمن يسقط فيها، ولا حجة لضحية من ضحاياها. فللإيمان نهجه المتميز في جميع شئون الحياة، وللحداثة نهج آخر ! والله سبحانه وتعالى لا يقبل عذراً لشرك أبداً أبداً!

الحياة الدنيا دار ابتلاء وتمحيص واختبار، لا يخرج منها الإنسان أبداً إلا بعد أن تقـوم الحجة عليه أو لَهُ، في إيمانه وعقيدته، وسلوكه ومواقفه، وسعيه وعمله، وهمسته ونجواه، ثم يتمايز الناس في الدار الآخرة بين جنة ونار. والإيمان منهج كامل لا يتجزَّأ، منهج حياة يمتدُّ في كل ميدان.

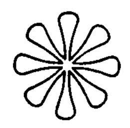
﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾
(الملك : ١ ـ ٢)

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٤ ﴾
(يونس : ٤)

إنهـــا فتنـــة كبيـــرة فطـــوبـى للنـــاجيـن!

وحتى ندرس الحداثة بصورة أعمق، نأخذ بعض إنتاجها في بلادنا لنحلله وندرسه قدر الإمكان. نأخذ نماذج من بعض رجالها ومن بعض إفرازاتها.

لا نستطيع هنا أن نعدد رجال الحداثة كلهم في بلادنا، ولا أن نعدد أقوالهم ولا آثـامهم. ولكننا نستطيع أن نعرض نماذج من ذلك كله. سنأخذ في الفصول المقبلة ثلاثـة من رجال الحداثة، ونأخذ لكل واحد منهم كتاباً من كتبه، فنعرض فقـرات بيّنة، وأفكاراً كاشفة، حتى تكون المناقشة أقرب للعدالة وأوفى بالأمانة. سنتناول كتاب «مقدمة في الشعر العربي» لأدونيس، وكتاب «جدلية الخفاء والتجلي» للدكتور كمال أبو ديب، وكتاب «الخطيئة والتكفير» للدكتور عبد الله الغذامي.



الفصل الثاني مع كتاب « مقدمة للشعر العربي »

لأدونيس

أدونيس، أو علي أحمد سعيد، كما كان اسمه الذي حمله مع ولادته، نصيري الأصل من جبل العلويين في سوريا. انتمى إلى الحزب القومي السوري، الذي كان يرأسه أنطون سعادة صاحب الدعوة الغريبة الخبيثة، الدعوة التي تربط سوريا كلها بأصول فينيقية، والتي تقطع صلة البلاد والعباد بالإسلام، والعرب. ذلك كله دون وجود أسس علمية وحجة يقبلها المنطق أبداً. لقد ظهرت هذه الحركة مع غيرها من الحركات المشبوهة في مجتمعاتنا، دون أن يطالبها أحد بحجة أو علم أو منطق. ولكنها شعارات رفعوها، فأثارت العواطف وجمعت عدداً غير قليل من الناس، في حُمّى قضايا ثائرة، وأخطار محدقة، ومؤامرات تحاك. كان كثير من الناس لا يملك علماً في منهاج الله يعينه على تمييز هذا وذاك. فانحرف عدد من الشباب المسلمين في هذه التيارات، فكانوا هم أنفسهم يطعنون أمتهم بأيديهم، ويغرزون الخنجر المسموم في القلب.

وغيّر علي أحمد سعيد اسمه إلى «أدُونيس»، الاسم الذي اشتهر به حتى أنسى الناس اسمه العربيّ القديم. وأدونيس: هو اسم لما يزعمونه من إله للخصب عند الفينيقيين. وأعطى ولاءه الكامل (لأنطون سعادة) وللجريمة التي كانت تقودها الحركات المشبوهة كلها، كل حركة تقف في ناحية تقطع في جسم هذه الأمة العظيمة، الأمة المبتلاة الصابرة، أمة الإسلام. فشنُّوا هجوماً على لغة القرآن، وعلى فكره وآياته. وغاب عن بالهم أن الله سبحانه وتعالى تعهد في محكم تنزيله بحفظ الذكر، ليحفظ الله برحمته للناس لغة الذكر، ونصَّ الذكر، وآياته البيّنات، رحمة منه بخلقه وعباده. ودفع أدونيس فساده وإفساده كتاباً وراء كتاب منذ عام ١٩٥٧ م حتى يومنا هذا. ونال بذلك شهرة حتى أصبحت بعض ديار المسلمين تحتفي به وتشيد به، وبعض صحافتها ينشر سمومه، في جو محموم من الحفاوة والإعزاز.

وسنأخذ في دراستنا هذه كتاباً من كتبه، لا يعتبر أسوأها، ولكنه يصلح لكي يكون نموذجاً يكشف لنا عن حقيقة الخطر الذي يدفعه، والجريمة التي يخطط لها هو وسائر عصابته.

يأخذ في كتابه هذا روائع الشعر العربي، فيأخذ ما يحمل منه معاني الإيمان فيحولها إلى معاني إلحاد وضلال، ويأخذ ما يحمل منه فتنة وفساداً فيمجدها ويجعلها النموذج الذي يحتذى. ويجمع هذا وذاك في أسلوب مضلل ليهدم الكلمة واللغة والدين والفكر الإسلامي الحق.

يبتدىء في تحليله بالشاعر الجاهلي، ويحيطه بهالة من الألفاظ المغرية في رنينها وطنينها، دون أن تحمل معنى محدداً واضحاً صادقاً، ولكنها يمكن أن تفعل فعلها في بعض النفوس، فتستدرجها إلى نصٍّ فاسد مجرم، قد لا يشعر بعض القراء العاديين بهول جريمة الكلمة فيه وهي محاطة بزخرف كاذب، وفتنة مضلة.

يقول أدونيس في صدد تحليله للشاعر العربي الجاهلي وطبيعة شعره وأدبه:

«لم يكن ينظر إلى الأشياء بأفكار مسبقة . . . ثم إن شعوره بالانفصال عنها هو شعور كامل بذاته المستقلة. . . الإنسان هنا لا الله هو مقياس الأشياء. . . .»[1].

يمضي في الحديث عن الشاعر الجاهليّ بهذا التناقض والغموض وعدم التحديد. فإذا كان الشاعر الجاهلي يشعر أنه منفصل عن الأشياء فكيف يعيده أدونيس إليها ليكون مقياساً لها؟ وما علاقة ذاته المستقلة بانفصاله عن بيئته وحياته، وأدبه وشعره هو نتاج هذه البيئة لا غيرها؟ وما علاقة كونه مقياساً للأشياء أو عدم كونه؟ ما علاقة هذا بالله سبحانه وتعالى؟ لماذا هذا الخلط والتناقض والإسفاف بحق اسم الجلالة؟ يورده في مكان لا يتفق والمعنى ولا مع الحاجة. كلمات تتوالى على رنين يدغدغ بعض العواطف، دون أن تقدم معنى محدداً مفهوماً.

والشاعر الجاهلي كان ينظر إلى الأشياء بأفكار مسبقة، لا كما يتهمه أدونيس. وكل إنسان حيثما كان لابد من أن تتولد لديه أفكار تنشأ معه من بيئته، يلتصق بها

---

(١) مقدمة في الشعر العربي: (ص: ٢٥).

وتلتصق به، مهما كان نوع هذه الأفكار. والشاعر الجاهلي كان يتحدث في شعره عن بيئته، عن الموت عن الحياة، عن الحكمة والتجارب. كان من شعره ما زلنا نردده حتى اليوم مثلاً أو حكمة. وكانت بيئة الشاعر الجاهلي متعددة المصادر: ففيها بقية منحرفة عن دين إبراهيم عليه السلام، تربطه بالكعبة والبيت الحرام، وتربط بها حركته وتجارته، وفيها موجة من أهل الكتاب، وفيها اتصال مع فارس والرومان، كلها مصادر تؤثر في حياته وفكره. فكيف يحق لأحد أن يدّعي أن الشاعر الجاهلي لم يكن ينظر إلى الأشياء بأفكار مسبقة؟ وما هي الغاية من مثل هذا الادِّعاء وإلى أين يرمي؟.

ثم يتناول بعض شعراء العصر العباسي ليقلب الموازين، ويختلق أشياء، ويمتدح الباطل، ويزين الإثم والمعصية والفساد.

يقول عن أبي تمام: إنه حرر الشعر من الشكل الجاهز[١]. إن أبا تمام نفسه لو سمع هذا الكلام لذهل ودهش. فعجيب أن يكون أبو تمام قد حرر الشعر العربي من الشكل الجاهز، حين كان أبو تمام ملتزماً عمود الشعر، محافظاً على الشكل، وما فعله أبو تمام لم يكن تحريراً للشعر العربي. إن أبا تمام نفسه يرفض هذه الصفة. فهو الشاعر الذي يعتز بالشعر العربي وفنه، ويعتبره حراً عزيزاً ولا يرى فيه من قيود أبداً، إلا كما يكون لكل كلام وكل لغة قيود من قواعد نمت ونضجت واستقرت مع التاريخ، لتكون الأساس الثابت المتين في حياة الأمة. إن أبا تمام التزم كل قواعد البلاغة والبيان، والنحو والصرف، والعروض والأوزان والقوافي، وجال في ميدان الشعر ملتزماً، ليقدم أسلوبه المتميز، وبيانه الرائق. فلماذا نعتبر هذا العمل تحريراً للشعر العربي الذي لم يكن، ولا هو اليوم، يحتاج إلى تحرير؟!

ثم يقول عن أبي تمام إنه «مالارميه» العرب. ومن قال إن أبا تمام يرضى بهذا الهبوط والإسفاف في هذه المقارنة المؤذية؟ الشعر العربي حرّ طليق في آفاق الموهبة الطاهرة الأمينة، الموهبة الأمينة على عهد وميثاق، وشرف وتاريخ، ولغة ودين.

---

(١) المرجع السابق. (ص: ٤٧).

ثم يتناول الكاتب أبا نواس ليمجّد سقطته وسقوطه، وخمره ومجونه، وليرى في سلوك أبي نواس هذا ثورة وتجديداً وحداثة. يقول عن أبي نواس إنه «بودلير العرب»[1]. فما بال كاتبنا مغرم بتشبيه شعرائنا بالساقطين في ديار الغرب. ولو بعث أبو نواس وسمع هذا التشبيه وعرف من هو بودلير، لقذف الكلام في وجه صاحبه، ولتاب وأناب.

يقول الكاتب عن أبي نواس وهو يمجد سقوطه في الخمر:

«شعر أبي نواس مصابيح . . . لذلك لا يخاف العقاب بل يفعل ما يؤدي فعله إلى العقاب»[2].

تمجيد للإثم والمعصية، وهدم لكل ما بناه الانسان في عصور طويلة من قواعد للأمة، وأسس للأخلاق. إن هذا الحب للفسق والمعصية، ليدل على طبيعة منحرفة، تتصيد مثالب الناس لتزينّها، وتخفي الخير لتبعد الناس عنه. إنه ليزيّن الخطيئة كما يزينّها الشيطان. والإنسان حين يهبط يصبح شيطاناً. ولذلك نجد في كتاب الله الكريم قوله سبحانه وتعالى: «شياطين الإنس والجن. . .»

ويمضي الكاتب في حديثه عن أبي نواس في جمل عائمة تائهة، ضائعة المعالم والمعاني، فيقول: « . . . هذا ما يتيح لنا أن نستبق الوجود نفسه ونكون مالا يقدر أن يكونه: البدء والنهاية، الحياة والموت في لحظة واحدة»[3].

إنها كلمات تفوح برائحة الخمرة، وتدور دوار الثمل، وتترنح ترنح السكران، وتشتط في أكثر من سبيل معوجَّة تائهة. ويتابع الكاتب فيقول: « . . . لا تعود الطبيعة أشياء وموضوعات، بل تصبح رموزاً وكلمات وصوراً، تبطل الأشياء أن تكون امتداداً للطبيعة. . . أبو نواس شاعر الخطيئة لأنه شاعر الحرية. . .»[1].

إن الثمل تدور الدنيا أمامه، وتختلط الأشياء وهي تترنّح أمام عينيه. فلا

---

(١) المرجع السابق. (ص: ٤٧) (٢) المرجع السابق. (ص: ٤٧). (٣) المرجع السابق. (ص: ٤٩).

عجب في أن الكاتب لم يعد يرى الطبيعة أشياء وموضوعات، ولكن العجيب أن يتجرّأ أحد الناس فيجعل الخطيئة حرية، ويعلن هذا، ويهدم تاريخ إنسان، وأمة، ودين. عجيب أن يجعل الخطيئة حرية، كأنه يريد أن يصبح المجتمع مجتمع مخمورين وذئاب ووحوش، مجتمع خطيئة وجريمة، لا أمن فيها ولا أمان لأحد أبداً. نعم! مجتمع الجريمة والخطيئة. وها هو يمضي ليتحدث عن ديك الجنّ الذي قتل زوجه، وهو يتهمها بما هي منه براء. فيندم ديك الجنّ هو نفسه على جريمته. ولكن الكاتب لا يحب له أن يندم أو يبكي. إن الكاتب يريد أن يجعل أقبح جريمة في حياة الإنسان، جريمة القتل الظالم، القتل المجنون، حرّية ممجدة. إنه يقول:

«هذه الخطيئة الممجدة تنقلب عند ديك الجنّ إلى جريمة ممجدة وضرورية، كتوكيد أعلى ومطلق للحرية والشرف، جوهر الشخص الإنساني»[٢].

وهكذا تصبح أحط الجرائم وأبشعها مجداً وحرية وشرفاً عند كاتبنا، أما قواعد الإسلام التى تصون العرض والمروءة والشرف، وتحفظ الحقوق والواجبات، وتصون الحياة، وترسي الأمن والأمان، والحماية والرعاية، والعدل والحق والخير، هذا كله يصبح عند الكاتب قيوداً يجب أن نتحرر منها، حتى تسود الخطيئة والجريمة، لتنعم الوحوش والذئاب في حرية دامية مظلمة مفزعة.

ويتابع أدونيس قوله عن ديك الجن: «ديك الجن هو كذلك شاعر الخطيئة، والبعث عنده خرافة. . . . وفي سبيل ذلك يوطن نفسه قاصداً مختاراً على دخول نار الأبدية»[١].

لم يكتف بمجتمع الخطيئة والجريمة، والذئاب والوحوش، ولكنه يريده مجتمع الكفر. لذلك يطرب وهو يقول: «والبعث عنده خرافة».

ويرجع إلى أبي نواس ليقول عنه: «هكذا أبو نواس فصل الشعر عن الأخلاق والدين . . . إنه الإنسان الذي لا يواجه الله بدين الجماعة وإنما يواجهه بدينه هو. . . . .»[٢].

(١) المرجع السابق. (ص: ٥٢). (٢) المرجع السابق. (ص: ٥٢). (١) المرجع السابق. (ص: ٥٣).

يسف الكاتب غاية الإسفاف وهو يستخدم هذا التعبير «يواجه الله». فمن الذي يستطيع أن يواجه الله. ولا يواجه الله بدين الجماعة، بل بدينه هو. إتهام لأبي نواس بالكفر، كأن له ديناً يخالف دين الجماعة، ودين الجماعة هو الإسلام. فإذا فسق أبو نواس وشرب الخمر فهل ترك الإسلام؟ تسفّ التعابير، وتسفّ المعاني، وتسفّ الغاية.

ويقول: «هكذا يحقق الشعر مهمته: السحر...»[١] فالشعر يصبح سحراً. إنه ليس شعر الإيمان على كل حال، ولكنه شعر الشياطين، كما وصفته الآيات الكريمة في سورة الشعراء. إنه شعر الغاوين الذين وصفهم القرآن الكريم:

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾

(الشعراء : ٢٢٤ ، ٢٢٥)

ثم ينتقل إلى المتنبي، ويبحث له في شعره عن شذوذ ليمجده، وتيه ليعظمه. يقول عنه: «إنه أول شاعر يكسر طوق الاكتفاء والقناعة...»[٢] ويقول: «سيكون الشعر في هذه الحالة مفاجئاً، غريباً، عدوّ المنطق والحكمة والعقل.... ونعلن أن العالم ليس إلا «هوى» الروح وجموحها. نجعل الهوى ربّاً»[٣]. وهذا الشطط الموغل في الضياع يذكرنا بقوله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله:

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ (الفرقان : ٤٣)

ثم يتناول أبا العلاء، وأبا العتاهية، ويقول جملاً مرصوصة تقلب الموازين، وتخلط الأشياء، حتى تضيع المعالم عند الضائعين. ولكنها عند الموقنين واضحة بإشراقة نور الإيمان.

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ (النور : ٤٠)

---

(١) المرجع السابق: ص (٥٤)

(٢) المرجع السابق. (ص: ٥٧).

(٣) المرجع السابق. (ص: ٥٨).

ثم يمضي في حديثه ليهدم الشعر، وينثره ذرات تائهة في الفضاء، لا تكاد تمسك بشيء منها.

يقول: «الذين يحتجون بأوزان الخليل، ذلك الأصولي الكبير، لا يفهمون معناها ودلالتها. فهو لم يقصد أن تكون قاعدة المستقبل، وإنما وضعها لكي يؤرخ بها للإيقاعات الشعرية المعروفة حتى أيّامه... ولكن الإيقاع كالإنسان يتجدد....»[١].

ونلاحظ هنا، كما كان الكاتب سابقاً، يمدح الخليل قبل أن يهدم عمله كله. إنه يمدحه كمدخل نفسي للقاريء يمتص به هول المفاجأة وصدمة الجريمة المبيتة. إنه يمدح الشرّ والجريمة والخطيئة ليزينها ويحببها إلى القارىء، ويمدح الرجل ليهدم عمله وفكره. **فالخليل بن أحمد لم يضع البحور لكي يؤرخ، فما هو بالمؤرخ. ولكن الخليل اكتشف طبيعة أصيلة في اللغة، كما اكتشف غيره قواعد النحو والصرف، وقواعد البلاغة والبيان. إنها كلها خصائص ثابتة في طبيعة اللغة العربية التي اختارها الله على علم عنده لتكون لغة الوحي والرسالة، لغة النبوة والدين، لغة الإنسان الطاهر النظيف الواعي، الذي لم يقتله الخدر والسكر، ولم تضيعه الشهوة والجريمة، ولم يسقط في مهاوي الكفر.** وإذا كان الإيقاع كالإنسان، فإن الإنسان في كيانه وفطرته وخصائصه هو الإنسان، يتغير لباسه، وركوبه، ونشاطه، ولكنه يظل إنساناً بإيمانه الثابت المستقرّ والتوحيد المشرق، والخلق الذي خلقه الله عليه، والنهج الربّاني الذي خضع له عباده وطاعة، وأمانة واستخلافاً، وعمارة وحضارة. فإذا كان الإيقاع كالإنسان، فإن الإنسان ثابت بقواعده وأسسه، والإيقاع ثابت بقواعده وأسسه. وإذا كان هنالك تجديد فالتجديد في اللباس والركوب وليس في الأسس والبناء والتكوين. لقد ساق هنا أدونيس لنا مثلا واضحاً على الجمل التي يسوقها هو وغيره، تحمل الرنين والدغدغة، وعند محاكمتها تهبط وتهوي وتضيع. «الإيقاع كالإنسان يتجدد». جملة لا نقبلها عندما نخضعها لقواعد العلم واللغة، ولكن

---

(١) المرجع السابق. (ص: ١١٠).

طنينها الأجوف قد يغري بعض النفوس المخدّرة والأهواء المتصارعة. إن الإنسان حين يفقد هذا الإيمان الثابت المستقر بقواعده ونهجه، يصبح عندئذ كالأنعام بل أضل سبيلا:

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ (الفرقان: ٤٤)

﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ (الأعراف: ١٧٩)

حين يفقد الإنسان إيمانه فإنه يفقد ذاته، فطرته، خيره، عقله، جوهره. إنه يُرَدُّ أسفل سافلين:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ (التين: ٤ - ٦)

فالخليل بن أحمد كشف كما كشف غيره، عن حقائق، وطبيعة، وخصائص ثابتة مستقرة. لم يؤرخ. وإنما يكون كلامه تاريخاً عندما تموت اللغة. فيصبح الحديث عنها تاريخاً. وهذا ما يسعى إليه صاحبنا، وما يكشف عنه في أسطر مقبلة في كتابه. إنه يريد أن ينقل اللغة العربية والشعر العربي إلى متاهة واسعة تفقد فيها حدودها، ومعالمها لتموت هناك. وقد غاب عن باله أن الله سبحانه وتعالى تعهد بحفظ الذكر، وبذلك تعهد بحفظ لغة الذكر:

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ (يوسف: ٢١)

يقول: «الشكل الشعري كالمضمون الشعري يولد ولا يُتبنَّى، يُخلَق ولا يكتسب، يجدد ولا يورّث....»[١] جمل تكاد تغري العاطفة، وتوحي بالنسق. إنها من نفس نوع الجمل التي سمعناها لتفسد عقيدة الناس، تحمل طلاوة المظهر وسمّ المخبر. مثل: «**الدين لله والوطن للجميع**». الدين لله هذا حق، ولكن أريد به باطل في هذه المقارنة مع الوطن. والوطن للجميع ولكن من هم الجميع. كلام عام يضل وينقلك إلى متاهة بلا حدود، تضيع فيها معالم الأشياء والكلمات والمعاني.

(١) المرجع السابق. (ص: ١١٠).

ويتابع الحديث عن الشعر ليهدم بحديثه الوزن والقافية، تمهيداً لأن يهدم قواعد البلاغة والبيان والمعاني، ثم النحو والصرف، ثم يهدم اللغة كلها، دون أن يمنعه ذلك من أن يستخدم بعض ألفاظ الإطراء تسهيلاً لمهمة الذبح والقتل، أو الهدم والتدمير.

فهو يقول: «فحيث تحيد باللغة عن طريقتها العادية في التعبير والدلالة...»[1] ويقول كذلك: «فإن القصيدة الجديدة ... من هذه الناحية تركيب جدلي رَحب وحوار لا نهائي بين هدم الأشكال وبنائها... تتضمن القصيدة الجديدة مبدءاً مزدوجاً الهدم لأنها وليدة التمرد، والبناء...»[2]

وهكذا تمضي العملية إذن، تمضي هدماً وبناءً كما يدّعي الكاتب. وكيف تضمن البناء بعد الهدم والنية واضحة، تمضي إذن هدماً وبناءً، حتى لا يكون في أي لحظة للإنسان شيء. لن يكون هناك تاريخ ولا لغة ولا دين.

مَتَى يَبْلُغُ البُنْيَانُ يوماً تَمَامَه إذا كُنْتَ تَبْنِيهِ وَغَيْرُكَ يَهْدِمُ

ولن تكون قيم ولا مثل، ولن يعود لشيء ملامح ولا معالم ولا هوية. إنه تيه ممتد، وضياع مظلم، وظلمات فوقها ظلمات.

ولقد رأينا في فصل سابق كيف أن الحركة التعبيرية كانت تدعو إلى الهدم والبناء. وكأن أدونيس ينقل الفتنة والفساد نقلاً في تبعية ذليلة.

ويتابع أدونيس كلامه: «الطريق التي يرتسمها الإبداع حدسية إشراقية، رؤياوية... وهي تبني الإنسان بجحيمه وجنته، بشياطينه وملائكته...»[3].

نعم تبني الإنسان بشياطينه...! إن مثل هذا التخطيط يبني شياطين الإنس، ويدفع جرائمهم في الأرض. أما الملائكة فلا. لقد كان التعبير هنا خلطاً، وكان انسياقاً مع حلاوة الألفاظ وأساليب البديع التي لا تأتي في مكانها. ومن ناحية

(١) المرجع السابق. (ص: ١١٢).
(٢) المرجع السابق. (ص: ١١٤).
(٣) المرجع السابق. (ص: ١١٨).

أخرى فإن الإنسان حين يهبط يصبح شيطاناً عتلاً. ولذلك جاء التعبير في القرآن الكريم: «**شياطين الإنس والجن**».. أما حين يسمو الإنسان فإنه يصبح إنساناً لا مَلَكاً. فالملائكة ليست ميادينها كميادين الإنسان. إن الإنسان يسمو ليصبح الإنسان الذي كرمه الله على كثير من خلقه وفضله تفضيلاً. وحسبه هذا السمو إذا بلغه. ومهما سما فلا يعني أنه سيكون ملكاً، أو يكتسب خصيصة من خصائص الملائكة. أما إذا هبط فإنه يكتسب من خصائص الشياطين ليكون من شياطين الإنس.

اختلطت هنا الألفاظ على الكاتب لأنه لا ينطلق من قواعد مشرقة واضحة، فتختلط الألفاظ والمعاني، وتضيع المعالم والحدود.

ويتابع حديثه على نفس النسق من الكلمات التائهة الضائعة العائمة فيقول: «اللامحدود، اللانهائي. هذا مجال الإبداع والشعر هنا سيال أبدي المفاجآت... تتدافع ... في المدّ الخلّاق نحو المجهول»[1].

اللامحدود، اللانهائي، أبديّ المفاجآت، نحو المجهول. إنه إغراق في التيه المظلم، والهدير المفزع، حتى لا يكون هناك شعر ولا نثر، ولا لغة ولا إبداع.

ويتابع سيره نحو المجهول في ظلام هدار متماوج، فيقول: «والشاعر يطمح أن يكون وأن يبقى ثورة دائمة ضدّ التقليد ـ الثبات ... يقتلع الإنسان ويرميه في بوتقة التحوّل يفترض الذروة والهاوية، كل ذروة جزء من الهاوية... الذروة والهاوية، الماء والنار، الرفض والقبول.. هذا ما يعطي لهذه الغنائية نفس النبوة...»[2].

من قال غير أدونيس وأهل الحداثة إن الشاعر يطمح أن يكون ثورة ضد التقليد ـ الثبات؟ نعم إنه هو وغيره، إذا كان ثابتاً على الإيمان والتوحيد، سيكون ثورة على تقليد الفساد والظلم، وثورة على الثبات على العدوان والجهل والافتراء.

---

(١) المرجع السابق. (ص: ١١٨).

(٢) المرجع السابق. (ص: ١٢١).

ولكنه سيظل ثابتاً على الحق، متبعاً للحق. وفي حياة الإنسان ثوابت سيظل الإنسان الطاهر متمسكاً بها كما سبق أن عرضنا.

ولماذا يريد أن يقتلع الإنسان كأنه شجرة خربة يرميها في بوتقة التحول؟ وكل لفظة هنا: يقتلع، يرميه... تشي بالازدراء والاحتقار للإنسان، احتقار في التعبير، والتقدير، والمعاملة. إن هدف الاقتلاع واضح. إنه يريد أن ينزع من الإنسان أكرم خصائصه وأعظم ميزاته ألا وهو اليقين، اليقين بالله، بالآخرة، بالجنة والنار. إنه يريد أن ينزع منه هذا اليقين الذي هو مصدر قوته وإنسانيته، حتى لا يبقى له إلا يقين الكبر والغرور: الكل الكون، التحول وطنه الشعري. إنه الضياع نفسه. ولكنه ضياع مؤلم موجع. إنه اقتلاع، ورمي، وحرق في بوتقة، ثم تحول من ذروة إلى هاوية، سقوط مدمر، تختلط الأشياء فلا يدري الذروة من الهاوية، تدور الأشياء حوله، ترتفع وتهوي. إنها رؤية الثمل وغشاوة السكران. ويستمر الدوران في وسط التيه المظلم القاتل، حيث تنمحي المعالم: الذروة الهاوية، الماء والنار، الرفض والقبول....

ويصف القرآن الكريم الكافرين الضائعين الذين يجرون وراء سراب يلهثون خلفه، أو يسقطون من ذروة إلى هوة سحيقة، يصفهم القرآن الكريم وصفاً دقيقاً.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ (النور: ٣٩، ٤٠)

ويصفهم القرآن الكريم في صورة أخرى أشد فزعاً ورهبة:

﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ

﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ (الحج : ٣١)

أو تهوي به الريح . . . . ! يهوي فتدور الأشياء أمامه : الذروة الهاوية، الماء النار، الرفض القبول. يمضي إلى المجهول، والمجهول إما سراب يلهث وراءه وإما مكان سحيق، وحيثما كان فسيجد الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ليوفيه حسابه.

ويمضي أدونيس في عالم التيه والسراب، والظلمات والوادي السحيق، يمضي ليبدأ في تهديم التعبير والفكرة والوضوح، فيقول: «ولئن كان الوضوح طبيعياً في الشعر الوصفي أو القصصي أو العاطفي الخالص، لأنه يهدف إلى التعبير عن فكرة محددة أو وضع محدد، فإن هذا الهدف لا مكان له في الشعر الحق. فالشاعر لا ينطلق من فكرة واضحة محددة، بل من حالة هو لا يعرفها، هو نفسه، . . . هذا يقذف به في جميع الاتجاهات حتى الأطراف القصوى، ويغير علاقته باللغة: لا تعود اللغة وسيلة لإقامة العلاقات اليومية بينه وبين الآخرين. . . هكذا يحيا بعيداً . . . . أليفا غريبا في آن»[1].

الشعر الحق إذن هو الذي لا فكرة محددة فيه، لا وضوح فيه، كما يتوهم أدونيس. ينطلق الشاعر من حالة لا يعرفها هو نفسه. نعم هناك أناس تنطبق عليهم هذه الصفات ولكنهم ليسوا الشعراء الحقيقيين، وشعرهم ليس هو الشعر الحق. هؤلاء هم السكارى الغاوون الأفاكون. وقد وصفهم القرآن الكريم أدق وصف، وفصلهم فصلاً كاملاً عن الشعراء المؤمنين:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

(الشعراء : ٢٢١ ـ ٢٢٧)

---

(١) المرجع السابق. (ص: ١٢٥).

الـذين يتحـدث عنهم أدونيس يصفهم الله سبحـانه وتعالى: تنزل عليهم الشيـاطـين، أفاكون، آثمون، كاذبون، يتبعهم الغاوون، في كل واد يهيمون، يقولون مالا يفعلون. فلا بأس إذن أن لا ينطلقوا من فكرة محددة، ولا بأس أن يغيب عنهم الـوضوح في طيات الإفك والكذب والإثم. ولا يمكن لأحدهم أن يقول شعراً حقاً. فالشعر الحق يقوله فقط: الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا.....

ويُقْذَف الشاعر الأفّاك في جميع الاتجاهات كما يقول الكاتب. يقذف حتى الأطراف القصوى من الضياع والتيه والوادي السحيق، يقذف بشركه وكذبه وإفكه، ويغـير علاقتـه باللغـة، فلا تعود وسيلة لإقامة علاقاته اليومية مع الآخرين. لأن علاقاته لم تعد تنضبط برباط، فقد قطع الإفك والكذب والجريمة كل رباط، وأفلت الشاعر في تيه واسع، أليفاً للباطل غريباً عن الحق، أليفاً غريباً..! هكذا يصفه الكاتب نفسه: أليفاً غريباً!

هنـا بدأ الكاتب هجومه المدبر على اللغة نفسها، هجومه المباشر المكشوف فيتابع هذا الهجوم بشكل سافر. إنه يقول: «... يصبح الشعر في هذه الحالة ثورة مستمرة على اللغة»[1].

نعم إن الشعـر البـاطـل الـظالم، شعـر الخـطيئة والجريمة، شعر الفجور والفاحشة، شعر الغموض والألغاز، شعر الإفك والكذب، هذا الشعر وحده فقط يصبح ثورة على اللغة، ثورة تهدف إلى تحطيم اللغة وتفكيكها، حتى لا تعود صالحة لإقامة علاقات بين الناس، ليتمزق المجتمع، ليتقطع الناس، وتنقطع الحبال والعُرا والأواصر والأرحام. هذا الشعر الباطل ثورة على اللغة، ولكن الشعر الحق، شعر الإيمان، هو بناء اللغة وثروة لا ثورة، غِنىً لا فقر، بناءٌ لا هدم، عزٌّ لا ذل. وشتّان بين الشعرين.

ثم يقول الكاتب في لهب ثورته هذه: «الشعر نوع من السحر لأنه يهدف إلى أن يدرك مالا يدركه العقل.... لقد انتهى عهد الكلمة ـ الغاية»[2].

---

(١) المرجع السابق. (ص: ١٢٦).
(٢) المرجع السابق. (ص: ١٢٦).

هذا ما يقوله الكاتب نفسه. وكأنه يقول ويعترف بأن هذا الشعر هو شعر الشياطين، وشعر الذين تتنزل عليهم الشياطين، شعر الأفاكين، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾

(البقرة : ١٠٢)

فهذا الشعر هو عمل الشياطين، يعلمونه لنفر من بني آدم ممن يتنزلون عليهم. والشياطين، في الآيات السابق ذكرها في سورة الشعراء، تتنزل على كل أفاك أثيم. وهكذا يرتبط الشعر بالسحر من خلال عمل الشياطين، شياطين الإنس والجن، شياطين الإنس الذين هبطوا ففقدوا إنسانيتهم، من خلال الإفك والكذب، والظلم والباطل. هنا يضيع العقل، يدخل في التيه في الخدر، تتعطل مهمته وتتعطل مهمة كل فطرة سليمة، وكل نزعة خير. هنا تموج الشياطين، ويموج البشر. وهنا ينتهي عهد الكلمة، عهد الكلمة الطيبة، الكلمة التي لها غاية كريمة، تبني بها الحياة علماً وعقلاً ووعياً، لا سكراً ولا خدراً.

وتمضي الحرب على اللغة ويمضي الكاتب يقول: «. . . وتصبح غابة شاسعة كثيفة من الإيقاع والإيحاء والتوهج لا حدّ لأبعادها. فتفرغ الكلمات من معانيها الموضوعة، الموجودة مسبقاً في المعاجم أو على الألسنة. . .»[1].

من خلال الألفاظ الرنانة التي تدغدغ عاطفة بعضهم، وتوحي لهم بالرضا، من خلال ذلك، وبعد أن يحاول تخدير الفكر بهذه الألفاظ المعسولة التي لا معنى لها هنا: الإيقاع، الإيحاء، التوهج، الأبعاد، من خلال ذلك كله يطرق هدفه ويبلغ غايته فيقول: «فتفرغ الكلمات من معانيها الموضوعة الموجودة مسبقاً في المعاجم أو على الألسنة. . .» وبذلك يصبح هذا الشعر الباطل، بالإضافة إلى أنه شعر الشياطين ومن تتنزل عليهم، بالإضافة إلى أنه شعر الإفك والكذب والضلال، يصبح هذا الشعر بالإضافة إلى هذا كله شعر الجاهلين. فلنرم المعاجم، ولننس معاني الكلمات، ولنقطع الألسنة، أو نمسح الكلمات عنها، ثم فلنقل شعراً. ومن

(١) المرجع السابق. (ص: ١٢٨).

هنا نرى سبب الرغبة في ترك البحور والقوافي، لأنها عبء ثقيل على الجاهل المكدود، ولكنها ليست عبئاً على الموهبة الصادقة والعلم الصادق.

ويمضي الكاتب فيقول: «هكذا يحاول الشاعر العربي الجديد أن يخلص الشعر من المنطق والتعليم والسرد»[٢].

نعم. إن شعر السحر، وشعر الشياطين، وشعر الكذب والباطل، لا يقبل المنطق، فهو باطل وظالم، ولا يقبل التعليم فهو جاهل، وتأتي كلمة السرْد هنا لتعطي ظلالاً كريهة على لفظتي المنطق والتعليم. فلفظة السرد لا محل لها هنا.

ويتابع الكاتب فيقول: «من هنا لا تعود اللغة وسيلة لانحباس الشاعر وراءها، أو فيها، والهرب من الواقع، تصبح وسيلة لمحو الحدود كلها بين الإنسان والآخر، الإنسان والعالم»[١]

لكن اللغة تحبس الشاعر الجاهل، شاعر الباطل، شاعر الإفك والإثم، شاعر الخدر والسكر والغيبوبة. وهنا، لا في أي حالة أخرى، لا تعود اللغة وسيلة لانحباس الشاعر. أما في ما عدا هذه الحالات فاللغة ثروة وكنز. إنها قوة تضبط، وقوة توجه. إن الكلمة الطيبة ترسم الطريق السوي، وتلجم عن السفساف واللغو، وتكبح البذاءة والهبوط. وفي حالة شعر الإفك والخدر تمحي الحدود في عالم الغيبوبة فقط، أما في الواقع فتظل الحدود التي رسمها الاستعمار قائمة لا تساعد اللغة مع هؤلاء لإزالتها، وتبقى الحواجز بين الإنسان والإنسان والعالم. تبقى كل الحدود، وكل الحواجز في عالم الواقع، تبقى كلها كما رسمها المستعمرون والظالمون والغاوون. لأن الكلمات أفرغت من معانيها، وألقيت القواميس في سلات المهملات، حين فقدت وظيفتها. ولكن الحدود والحواجز تمحى في هذا الضعف والهوان والخور، تمحى فقط في عالم الغيبوبة والأفيون والمخدرات.

إن الكلمة التي نريدها، واللغة التي نريدها، هي التي تمتلىء بالمعاني لا تفرغ

---

(١) المرجع السابق. (ص: ١٣٦).

(٢) المرجع السابق. (ص: ١٣٧).

منها. إنها كلمة المؤمن، وشعر المؤمن، الذي يقف هو وحده ليزيل الحواجز بين الإنسـان والإنسان، والإنسان والعالم. إنه هو وحده الذي يصدق في معركة لله، خالصة لله، ليحرر الإنسان والأمة والديار، واعياً لا مخدراً، حاضراً لا في غيبوبة أدونيس.

ثم يشتد في حربه على اللغة، وفي خدره وغيبوبته فيقول: «إن تحرير اللغة من مقاييس نظامها البرّاني، والاستسلام لمدها الجوّاني، يتضمنان الاستسلام بلا حدود إلى العالم»[1].

إنـه تحطيم كامـل للغة، وإلغاء لقواعدها كلها: نحوها وصرفها، وبلاغتها وبيانها، ومعاجمها وقواميسها، إلغاء كامل لكل مقومات اللغة.

ويتـابع حديثه فيقول: «وهذا يؤدي إلى القضاء على علم المعاني. . . .»[2]
فماذا يبقى من اللغة؟ أي قوة لديها؟ أي سلاح معها؟ لا شيء. لم يبق أمامها إذا تم هذا، ولم يبق أمـام الأمة إلا الاستسلام. الاستسلام لمدها الجوّاني! وما هو مدها الجوّاني؟ إنها كلمات ثمل. الاستسلام بلا حدود للعالم. نعم الاستسلام للأعداء، للاستعـمار، للشيوعية، للصهيونية، للصليبية. . . . الـخ لكـل قوى العـالم التي احتفظت بقوتها حين خلعنا شخصيتنا ولغتنا وتاريخنا. فماذا يبقى لنا إلا الاستسلام! نعم! الاستسلام! وهذه أصدق كلمة قالها وعناها أدونيس.

وكأن أدونيس ينقل هنا «الاستسلام» عن الحركة الدادائية، ومحاربة اللغة وتفكيكها وهدمها عن جميع حركات الحداثة، كما مرَّ في فصل سابق. نقل وتبعية وهوان.

ثم يقول: «ولهذا يتراجع المنطق والعقل أمام الإلهام والكشف. . . . لا تعود القصيدة محدودة، وإنـما تصبـح لا نهائية. إن مجال الشعـر هو اللانهاية. البديل الشعـريّ هو التخييل. فالتخييل هو الملمـح الاساسي الرابع في الحركة الشعرية

---

(١)، (٢) المرجع السابق. (ص: ١٣٨).

العربية الجديدة. وأعني بالتخييل القوة الرؤياوية التي تستشف ما وراء الواقع. . . . »[٣].

يصر الكاتب على إلغاء المنطق والعقل. لأننا بذلك نفقد القدرة على دفع كلمة الجهاد، ولكن ندفع كلمة استسلام للعالم. ويصر على أن ندخل التيه، وتدخل اللغة التيه، ويدخل الشعر التيه، في ظلمات بعضها فوق بعض، إلى المجهول، لا غاية، لا هدف، لا حدود، اللانهاية. وبذلك يسهل الاستسلام.

أود لو أجد قصيدة واحدة في أي لغة من لغات الأرض تمثل هذا الهوس في المجهول، اللانهاية، الرؤياوية التي تستشف الكشف، السحر، بلغة لا قواعد لها، ولا معاني لها، ولا علوم لها، ولا معاجم لها، في أمة لا أخلاق لها، ولا قانون لها. . . . ! إلا أن تكون جلبة من جلبة هؤلاء. لماذا يريد الكاتب من قومه فقط أن يستسلموا، أن يغيبوا. . . . . !؟

ويقول الكاتب أيضاً ممعناً في الغيبوبة: «ويتحدث الشاعر مع الحجر، ويمتطي الهواء، ويسير على الموج. لا يعود يقدم لنا أفكاراً بقدر ما يقدم مناخاً من الحالات والمقامات. . . لا تعود الطبيعة عند الشاعر عقلا. وإنما تتحول إلى رموز وتخييل. وهكذا يصبح الشاعر تحولاً وصعوداً دائمين في أقاليم الغيب. . .»[١].

كأن الكاتب لا يعلم أن أمتنا اليوم، وفي كل وقت، تريد الشاعر الذي يتحدث للناس لا للحجر، والذي يمتطي الدبابة والطائرة لا الهواء، ويمشي في لميادين. **إننا نريد الشاعر الذي يجاهد مع أمته، ويبني مجدها، ويحمي حياضها. إننا نريد الشاعر الذي يقدم لنا أفكاراً لأنها هي التي ترسم وترفع وتبني، لا نريد مناخاً من حالات السكارى ومقامات المخدرين.** نريد الشاعر العاقل، الانسان الذي له عقل لم تقتله المخدرات. لا نريد الرموز والتخييل، نريد الوضوح والصدق والحقيقة، لأننا لا نريد أن نستسلم. نريد الشاعر الذي يعيش في الواقع لا في أقاليم الغيب الذي ترسمه مخدرات الشياطين. يريد الكاتب من الأمة أن تستسلم، والأمة

---

(١) المرجع السابق. (ص: ١٣٨).
(٢) المرجع السابق. (ص: ١٣٩).

مهما أصابها فلن تستسلم، لأنها أمة الإسلام لا أمة الاستسلام.

هنا نجد تركيز الكاتب على الشاعر نفسه، على الإنسان، يريد أن يجرده من المنطق والعقل، والأهداف المشرقة، يريد أن يخرجه، من واقعه ليقذفه في أقاصي الأطراف من التيه، ليضيع، ليسحق. . . .! ويستغل لفظة التصوف في فقرة أخرى، ويربط التصوف بالماركسية، على نفس النسق والأسلوب من استخدام الألفاظ العامة التائهة الغامضة ليدغدغ بها عواطف ويخدر عقولاً: إنه يقول «يطرح التصوف فكرة الإنسان الكامل. ربما أمكن أن نقابلها بفكرة الإنسان الكلي في الماركسية ـ الشيوعية. ويمكن أن يشار في هذه المقارنة إلى تصور الحضارة والإنسان والكون في الحدس الصوفي أصلاً، لكن الذي يفعل فعله الكبير متأثراً بالماركسية، في الشعر العربي الجديد» .

لقد اعلن الكاتب نهجه سافراً مكشوفاً. وطرح هذه الألفاظ الغامضة: الإنسان الكامل، الإنسان الكلي، الحدس الصوفي، ليملأ النفوس المخدرة بالغرور والكبر مع هذه الألفاظ من المديح الظاهر الذي لا طائل تحته، ليملأ بالكبر والغرور، فَتَقْبَل أو تُقْبِل على أفكار الماركسية المغطاة بشعار الصوفية، غطاء يحمل التضييع والضياع من ألفاظ تائهة: **حدس، إلهام، كشف، مقامات، حالات. إنها خدر وغيبوبة وتيه**. لقد أدخل الصوفية هنا لأنها تحمل لدى فريق من الناس تقديرها، ليجذبهم من خلال هذه اللفظة إلى التيه، وليحارب التاريخ بهذه اللفظة، ويحارب كل مقومات الأمة، وليحارب الصوفية ذاتها، وليحارب أهلها، ليسحقهم بعد أن يخدرهم، ويدوس عليهم بعد أن يلقيهم أرضاً.

إنه يقول أيضاً: «تجاوز الماضي. . . . الأشكال والمقاييس والمفاهيم التي نشأت عن أوضاع وحالات مرتبطة بزمانها ومكانها وبات من الضروري أن يزول فعلها. . . إن الماضي لم يعد يهم الشاعر العربي الجديد كقدسية مطلقة. . .»[1] .

تجاوز الماضي بمقاييسه وأشكاله ومفاهيمه. فماذا بقي من الماضي؟ لقد سبق

---

(١) المرجع السابق. (ص: ١٣٤).

أن بين في فقرات سابقة بعض التفاصيل يدفعها شيئاً فشيئاً من خلال نعومة ألفاظ، ومتاهة كلمات. لقد سبق أن أفرغ الكلمات من معانيها في اللغة فطرحها ورماها، ورمى المعاجم، وقواعد اللغة، وعلم المعاني، وطرح العقل والأخلاق، والأفكار. لم يترك شيئاً من الماضي إلا مزقه، ثم يقول: «ولا أعني هنا الماضي على الإطلاق». حتى الكلمة مزقها لفظة ومعنى حين قال: «لقد انتهى عهد الكلمة ـ الغاية»[١]، وعندما قال: «فتفرغ الكلمات من معانيها الموضوعة الموجودة مسبقاً في المعاجم أو على الألسنة»[٢].

ولكنه يعود ويناقض نفسه، حين تتسلل منه جملة تخالف ما قاله عن الكلمة، عندما تتسلل جملة من خلال صلة غائرة في أعماق نفسه، مدفونة تحت ركام هائل من تناقضات وأشياء وأشياء، تتسلل من خلال ذلك كله كما يتسلل النور الباهت من شمعة صغيرة في أعماق ديجور هائل. إنه يقول: «خصوصا أن الكثير من هذا المزعوم تجديداً. . . . تعوزه معرفة أبسط أدوات الشاعر: الكلمة. . . . .»[٣] لقد انساقت هذه التعابير مع تعابير براقة مدغدغة مخدرة، انساقت من الطبيعة المدفونة تحت ركام الماركسية والحداثة وغيرهما، انساقت من أسس يصعب أن تموت مهما دفنت، وهي أنه لا أدب ولا شعر إذا ضاعت الكلمة، وضاع معناها، وضاع تاريخها الطويل الذي نمت فيه، فحملت منه الريُّ والغذاء. إن اللغة إذا انقطعت عن ماضيها وتاريخها فإنها تذبل وتهون. ذلك لأن اللغة تنمو في حاضرها ومستقبلها وهي تستمد غذاءها من تاريخها الطويل، من تاريخ الإنسان الذي جاهد وعانى، وبذل وأعطى، ودفع ورفع، وبنى وأعلى. إنها تستمد غذاءها وريها من هذا التاريخ العظيم، فكيف تنمو إذا ذهب الري والغذاء. وكم من القتل والموت يمضي على معسول ألفاظ تزعم خداعا أنها تهب الحياة.

لقد خطا الكاتب حتى الآن في نهجه خطوات واسعة، ليصل إلى هدفه الحقيقي الأبعد. لقد حاول جاهداً قلب النظرة والتقويم إلى الشاعر العربي الجاهلي

---

(١)،(٢)،(٣) المرجع السابق. (ص: ١٢٦، ١٢٨، ١٤١).

ليجرده من أفكاره وتجاربه، وينزعه من بيئته وتاريخه. ثم حاول ذلك أيضا مع فحول شعراء العربية من أمثال أبي تمام وأبي العتاهيه وغيرهما. إنه يأخذ السيئات ليجعل منها حسنات ينفخ فيها ليضخمها ويجعلها أساس كل ميزان، فنسف بطريقة غير مباشرة التاريخ والقيم والدين، تمهيداً للهجوم السافر المباشر. وهذا التاريخ وهذه القيم هي مصدر القوة في الأمة، وهي مصدر الغذاء والريّ، كما هي في اللغة أيضاً. فإن فقدت الأمة تاريخها وقيمها ولغتها فقد فقدت كل شيء، كل قوة، ولم يبق إلا الاستسلام الذي طلبه أدونيس، إنه يأخذ السقطة ليجعل منها رفعة، والخطيئة ليجعل منها صلاحاً، والجريمة ليجعل منها فناً، والدنس ليجعل منه وضاءة. إنه يأخذ أبشع جريمة في حياة البشرية كلها، جريمة القتل الظالم. . . . !

وبعد أن أنهى هذه المهمة، بدأ يهدم كل مقومات الشعر والشاعر، والأدب والأديب. بدأ يهدم الأسس والقواعد، ويجعل من ذلك، كما رأينا مدخلا لتهديم اللغة، وإفراغها من معانيها، وإلقاء معاجمها وقواعدها، لتفكيك اللغة، حتى لا تعود تصلح لشيء. ويبتدع في تيهه تعبيره التائه «المدّ الجوّاني»، ثم يدعو إلى الاستسلام.

ومن خلال ذلك هدم الشاعر نفسه، هدم الإنسان، حين كان يزعم أنه يبنيه من خلال الألفاظ المعسولة كالإنسان الكلي وغير ذلك. لقد جردّه من المنطق والتعليم، والعقل، والأخلاق، والماضى، والتاريخ، والارتباط بالأمة، بالعقيدة، جردّه من كل ذلك، من كل قواه، ورماه ضعيفاً هَمَلاً ملقى، ثم دعاه إلى الاستسلام.

ثم ينتقل بعد ذلك إلى أخطر جريمة، وأسوأ كلمة، وأقبح تصور، وأوقح تعبير. ينتقل بشكل واضح سافر ليهدم العقيدة والإيمان، العقيدة والدين، بهجوم سافر مباشر. يحاول ذلك وقد ظنّ أن الطريق أصبح أمامه ممهداً لهذا التدمير. إنه يقول:

«الله في التصور الإسلامي التقليدي نقطة ثابتة، متعالية، منفصلة عن الإنسان. التصوّف ذوب ثبات الألوهية، جعله حركة في النفس، في أغوارها. أزال الحاجز بينه وبين الإنسان. وبهذا المعنى قتله (أي الله)، وأعطى للإنسان طاقاته.

المتصوف يحيا في سكر يسكر بدوره العالم، وهذا السكر نابع من قدرته الكامنة على أن يكون هو والله واحداً. صارت المعجزة تتحرك بين يديه»[1].

إنه ينفخ في الإنسان، في غروره، في إعجابه بنفسه، في كبره، ليشبع نفسه بالكفر الصريح. إنه ينفخ فيه بألفاظ تمس غروره: التصور التقليدي تثير في نفس بعضهم رغبة التغيير الذي لا يدري سبباً له، متعالية، حتى يتعالى الإنسان في كبره فلا يرضى أن يعلو عليه شيء، ولو كان هو الإنسان من ماء مهين، من تراب وطين، «أعطى للإنسان طاقته»، تعبير يوحي بأن طاقات الإنسان كانت مسروقة منه، تعبير يكاد يجعلنا ننسى أن الإنسان المؤمن انطلق في الأرض بطاقات ما عرفتها البشرية أبداً. طاقات فجرها الإيمان بالله سبحانه وتعالى، فجَّرتها العبودية لله سبحانه وتعالى، حتى امتدَّ في عشرين سنة امتداداً لم تبلغه أمة أبداً، فجّرها الخشوع لله سبحانه وتعالى، خشوعاً منحه العزَّة والقوة والرفعة، أمام فارس، وروما، وأمام شعوب الأرض كلها.

أراد أن يوحي أدونيس أن هنالك تصوراً لله سبحانه وتعالى تقليديا. وغاب عن باله أن هذا التصور ثابت في حياة الإنسان، ثابت في حياة البشرية كلها، ثابت في فطرة الإنسان الذي يولد على الفطرة. الفطرة التي أودعها الله صفاء الإيمان والتوحيد والعبودية الخاشعة لله سبحانه وتعالى. وغاب عن باله أن هذا التصور الثابت في الفطرة السوية، هو ثابت في رسالة الأنبياء جميعهم والرسل جميعهم منذ آدم عليه السلام، حتى خُتِمت الرسالة بمحمد ﷺ. إنه الثبات الحقُّ، الثبات المستمر في حياة الإنسان، الماضي في مستقبله حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

---

(١) المرجع السابق: ص (١٣١).

ثمّ لفظة «متعالية». نعم. إن الله سبحانه وتعالى هو الواحد الأحد المنفرد بالربوبية، العزيز القهار:

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الحشر: ٢٣، ٢٤)

ولكن الكاتب يسف ويهوي في واد سحيق، حين يجانب الأدب مع لفظة الجلالة، فيهوي في وحول، ويسقط في رجس. ونستحي أن نعيد ألفاظه، فهي أقبح من كل تعليق.

هذا كاتب واحد من كُتَّاب الحداثة. فما بالك بغيره من الكتاب؟! وإني أومن أن استعراض كتاباتهم جميعها ضرورية حتى نعرف الخط الذي يرسم، والحرب التي تشن. ولكن مثل هذه الدراسة أوسع من مجال هذا الكتاب.

ولقد تحدث الأستاذ الدكتور (**محمد مصطفى هدارة**) في محاضرته القيمة في مؤسسة الملك فيصل الخيرية ـ الرياض في ١٧/٧/١٤٠٦ هـ، عن الحداثة. ولقد كان عنوان المحاضرة «الحداثة والتراث». استعرض في مقدمتها أهمية هذا الموضوع وخطورته. وكان من جملة ما قاله:

«والحقيقة هي أن الحداثة أخطر من ذلك بكثير. فهي اتجاه فكري أشد خطورة من الليبرالية والعلمانية والماركسية وكلّ ما عرفته البشرية من مذاهب واتجاهات هدامة. ذلك أنها تتضمن كل هذه المذاهب والاتجاهات، وهي لا تخص مجالات الإبداع الفنّي أو النقد الأدبي، ولكنها تعم الحياة الإنسانية في كل مجالاتها المادية والفكرية على السواء».

كما استعرض الأستاذ (**أحمد فرح عقيلان**) جوانب كثيرة من الحداثة وحياة رجالها في كتابيه: «جناية الشعر الحر»، «بين الأصالة والحداثة».

وجاء كتاب الاستاذ (عوض بن محمد القرني) في كتابه «الحداثة في ميزان الإسلام» فعرض نشوءها وتاريخها وملامح من نهجها، واستعرض رموزاً كثيرة من رجالها، وأساليبهم.

ونهض عدد غير قليل من الواعين في أمتنا فكتبوا عن الحداثة وأثرها في أمتنا، وكشفوا جوانب هامة من خطرها، في الصحافة وفي بعض وسائل الإعلام الأخرى.

وإننا ندعو الله سبحانه وتعالى أن يأخذ بأيدي المؤمنين ليستيقظوا ويعوا ما يدبَّر لهم، فيقوموا قيام رجل واحد ليدافعوا عن ديار المسلمين، وحياض الإيمان، وثروات المؤمنين، وخيرات الأرض والسماء وبركاتها، ليدافعوا عن عقيدة ودين، وتاريخ أمَّة، وماض وحاضر ومستقبل.

إن الأرض الإسلامية اليوم تتلقى أكواماً هائلة من الشعارات الأدبية والرايات، مع أقوى ما يحمل العصر الحديث من وسائل الإغراء ورونق الزخارف، وأشد ما يملك من وسائل الإعلام وأدوات الدَّعاوة. ويعج السوق اليوم بحشد متدفق من دعاة ذلك وحملته وجنوده.

ولشدة ضغط هذا الحشد بدأت تتسرب بعض الشعارات إلى نفوس وقلوب، وإلى صدور وعقول، بعد أن ارتخت عزائم ووهنت قوى، وبعد أن اختلطت تصورات ومفاهيم. ولكنها على كل حال فترة تطول أو تقصر، فإننا ندعو الله أن ينجينا منها على خير.

وأخطر ما يلقاه الفرد اليوم، أمام هذا التناقض الشديد بين الرايات والشعارات، هو ما يمكن أن نسميه بالغُربة أو الحيرة، أو الاغتراب والاضطراب.

ولقد تحدث الدكتور (السيد علي شتا) في كتاب «نظرية الاغتراب من منظور اجتماعي»، عن الصور المتعددة للاغتراب، ومفهومه في المناهج الفلسفية والاجتماعية المختلفة، كما يراها (هيجل)، وكما رآها فلاسفه قبله وبعده. ومهما كانت تحمل نظرية الاغتراب من صور ومعان، فإنها تظل توحي بالاضطراب الذي يولده ضغط

المجتمع. فلدى (توكفيل) ترجع أسباب اضطراب العلاقة بين الإرادة الفردية والإرادة الاجتماعية لطبيعة التغيرات الدائمة والتي يترتب عليها تشتت الذهن بين القديم والحديث[١]. أما (سانفور ريتشارد) فيرى أن خاصية الاغتراب متجسمة في نزعة التحديث[٢].

ولن ندخل في تفاصيل ذلك. ولكننا سننتقل سريعاً إلى أثر هذه الضغوط الاجتماعية على الأديب وعلى إنتاجه الادبي. إن التأثير يتضح لنا حين نرى قوة الاضطراب والحيرة والتيه في مذاهب الادب الغربي، كأنها في غربة واغتراب، وتيه واضطراب، على صورة دائمة. ومهما عزا فلاسفة أوروبا ذلك إلى أسباب، فإن أهم سبب في نظرنا هو عدم وجود العقيدة التي تمتد في حياتهم، وتظل ملجأ لهم وحمى أمام الأعاصير الهوج. وأهم صورة تهمنا في بحثنا هنا هو «اغتراب الذات» إذا صحت التسمية. إنها غربة الإنسان حتى لا يكاد يعرف نفسه، وكأنه قد نسيها. فيظل كالكرة المترددة هنا وهناك، أو كالريشة في مهب الريح، يَقْبَلُ ويرفض، يُقْبِل ويُدْبِر. إننا نلمس هذا واضحاً في حياة النماذج الأدبية في أوروبا.

والذي يؤسف له أن مثل هذه النماذج تظهر في أرض الإسلام، وفيها العقيدة الحانية التي تضع الإنسان مع حقيقته الإنسانية، مع ذاته، مع أهله، مع مجتمعه، مع أمته، مع الناس جميعاً، على صراط مستقيم، ومحجة بيضاء، وآفاق مشرقة.

إن الإسلام يُعَلِّم المؤمن أن يعرف نفسه، ويبين له أن درب هذه المعرفة هو الإيمان والتقوى، والنظر في ما يعمل لغدٍ، وفي محاسبة النفس، وفي ذكر الله. إن الايمان بالله الواحد الأحد، وإن صدق الولاء له، وصدق العبودية له، هو باب معرفة النفس، وباب الأمن، وباب النور والإشراق، ومنطلق الصراط المستقيم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ (الحشر: ١٨، ١٩)

---

(١) نظرية الاغتراب من منظور اجتماعي ـ د. السيد علي شتا: (ص: ٦).
(٢) المرجع السابق. (ص: ١٤).

فالإيمان هو باب المعرفة والنور، والثقة والاطمئنان، والقوة والوضوح. والفسق هو باب الغربة والاغتراب، والتيه والاضطراب. والفسق بكل أشكاله هو دنيا الفساد، وظلمة التيه، وامتداد الحيرة. وهنا يتميز الأديب المسلم بهذه القوة والثقة، واليقين والوضوح، وهو في حمى أمين وملجأ مكين، يعرف نفسه ولا ينساها، فقد عرف ربه، وعرف دربه، وعرف الناس.

بهذا الاستقرار النفسي والفكري يستطيع المؤمن أن ينمو بجهده وعطائه نمواً مطرداً، نمواً غنياً دفاقاً، دون أن ينفصل عن مجتمعه أو أمته، ودون أن ينبتّ عن تاريخه ومبادئه. ويظل عطاؤه خيراً له وللناس جميعاً. إنه عطاء الإنسان القوي للناس.

إن من أبرز النواحي التي يجب أن نشير إليها هنا، هو ما تقدمه العقيدة في بناء شخصية الأديب من ترابط وتناسق بين مختلف جوانب الحياة وميادينها، وبين مختلف عناصرها كذلك في كل ميدان. إن هذا الترابط والتناسق في النظرية الإيمانية تهب الأديب المؤمن مالا يتوافر لغيره، حين تبني شخصية غيره مبادىء وفلسفات لا تتسع لشمول الحياة، وامتداد الميادين، وتجديد جوانب النشاط. «إن الانحسار في جانب واحد من جوانب الحياة الاجتماعية أساس تعسفي في تصور الظواهر الاجتماعية»، كما يؤكد الدكتور شتا[1].

ويمكن أن نبيّن هنا كذلك أن منهاج الله، وهو يبني شخصيّة الأديب المؤمن، يربط ولاءه بالله سبحانه وتعالى، ويجعل عمله كله مرتبطاً بالنيّة النابعة من عقيدة وإيمان، ويربط المؤمن مع الناس كلهم من خلال الروابط الطاهرة، والعلاقات النظيفة التي يرسمها له، على أسس واضحة مستقرّة.

إن هذا كله يجعل «التحديث» في حياة المؤمن يحمل معنى آخر، يختلف عما يرمي إليه دعاة «الحداثة». إن منهاج الله في بنائه للفرد والأمة، وفي بنائه لعلاقات الشعوب، يضع أسس النمو، فتنطلق المواهب لتبني لا لتهدم، ولتصل لا لتقطع،

---

(١) المرجع السابق. (ص: ١٤).

وتمتد لا لتنحسر. ويصبح منهاج الله نورا وهداية، وموعظة ورشدا، ويصبح كذلك شفاء من ضغوط المجتمع وأمراضه، وعلله وبلائه:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (الإسراء : ٨٢)

وبـدون هذه العـوامل الإيمانية سيظلُّ الفرد في المجتمع يعاني من كل آثار الضغط الاجتماعي، والتناقض والحيرة والتردد، ينساق في تيار الانحراف والضياع، «والاغتراب» والتيه، والتمرد والهدم، وسائر ردود الفعل المريضة، دون أن يجد عوناً من فكر أو نهج، أو عقيدة أو دين، فقد تخلى عن ذلك كله، فنسي خالقه ونسي نفسـه، ونسي أمتـه وتـاريخـه. فلا عجب أن نرى من الناس من يجعل من لفظة «الحداثة» نهجاً مدمراً لتاريخ وأمة، بعد أن أصبح هذا الفريق من الناس يعاني من انحراف الغربة والاغتراب، ومرض النقمة والاضطراب.

وإذا كانت «الغربة» على هذا النحو أحد مظاهر واقعنا اليوم، فهنالك مظهر آخر لا يقل خطورة عن المظهر الأول، **ألا وهو التناقض في ما يحمله الفرد في واقعنا اليـوم بين عادات قد ينشـأ عليهـا وشعـارات قد يرفعهـا**. وكذلك التناقض بين الشعارات ذاتها أحيانا. إن هذا التناقض يولد في ذاته صراعاً داخلياً، سواء أكان ذلـك الصراع عن وعي منـه أم عن غير وعي. ولا ينهض لعـلاج هذا التناقض والصراع إلا الإيمان الصادق الذي يتمثل في ممارسة إيمانية واعية يوجهها العلم بمنهاج الله، وتنميها الخبرة، ويباركها العمل الصالح. فتستريح النفس ويطمئن القلب في جلاء الصدق، وإشراقة الوضوح، وتنحل العقد النفسية، ويذوب القلق والاضطراب.

إن الإنسـان بطبعـه وفـطرتـه التي فُطِرَ عليها ليطمئنُّ إلى الحقّ، ويهدأ إلى الـوضـوح، ويسـتريح مع الصـدق، فينمـو عندئذ وعيه وإدراكه، وتتفتح طاقاته وقدراته، فيلمس الجمال الحق في الحياة، وينعم بالسعادة الصادقة في حياته، ويبصر آيات الله في نفسه وفي الخلق والكون، فيزداد إيمانه، وتزداد سعادته، وينمو وعيه

وقدراته، وينطلق عطاؤه في الأدب وغيره، حسب ما يحمل من موهبة طاهرة، ينطلق عطاء خير وإحسان يسعد به هو ويسعد به الناس من حوله.

هذا هو مجتمع الإيمان حيث يستقيم المؤمن مع ما يرفع من شعار، ويدعو إليه من خير، ويُؤمَر به من حق. ولذلك كانت الاستقامة على الحق أمراً من الله إلى رسوله محمد ﷺ وإلى المؤمنين عامة:

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

(هود: ١١٢ - ١١٥)

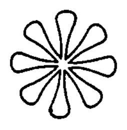
هذه هي مفاتيح الخير والعلاج: «**فاستقم كما أمرت...**» ليزول التناقض ويذهب الصراع، «**ولا تطغوا....**»، «**ولا تركنوا إلى الذين ظلموا...**»، «**وأقم الصلاة....**»، «**واصبر....**».

وظاهرة ثالثة يعاني منها واقعنا اليوم. ألا وهي اضطراب الميزان واختلال المقاييس. لقد كان للناس ميزان واحد يزنون به كل الأمور صغيرها وكبيرها، كما أمر الله سبحانه وتعالى، **ذلك هو منهاج الله قرآنا وسنة. ولكن هذا الميزان الأمين يفرض صفاء الإيمان لسلامة الوزن، كما يفرض سلامة العلم بمنهاج الله والواقع الذي يُرَدُّ إليه**. فاضطراب الميزان في أيدي الناس ينتج إذن عن إحدى حالات أربع: اضطراب الإيمان، الجهل واضطراب العلم بمنهاج الله، الجهل واضطراب العلم بالواقع، أو الاضطراب بها جميعاً، أو ببعضها، وأخطر ما تتعرض له الأمة هو جهل الطبقة المتعلمة نفسها بمنهاج الله، وبالواقع الذي تعيش فيه، بالإضافة إلى جهل الجاهلين.

إن جهل المتعلِم الذي حمل درجته العلمية في الهندسة أو الطب أو غيرهما،

يفسد في الأمة كثيراً. إن المتعلم يأخذ مكانته بحكم مهنته واختصاصه، فيعتاد الناس الثقة به وبالهالة التي تحيط به، دون أن تدري أنه جاهل بدينه، بالقرآن، بالسنة، لا يحمل منهما إلا زاداً خفيفاً من ثقافة عامة أعطته آية من هنا وآية من هناك. فإذا تحدث في الدين أساء وأخطأ فأخذ الناس خطأه على أنه صواب. وكلما ازداد عدد هؤلاء زاد المصاب وعم البلاء.

هذه لمحة سريعة في بعض مظاهر واقعنا اليوم! والمؤمن يسعى أن يدفع الأمراض من ناحية، ويسعى كذلك إلى علاج ما وقع منها.



الفصل الثالث

وقفات مع كتاب «جدلية الخفاء والتجلي»

للدكتور كمال أبو ديب

لن نستعرض هنا كتاباً من كتب الحداثة بالتفصيل الذي عرضناه مع كتاب «أدونيس»: «مقدمة في الشعر العربي». ولكننا سنأخذ مقتطفات من أكوام كثيرة، لنبين الاتجاه الواحد والنية الواحدة والخطر الداهم.

مع الدكتور كمال أبو ديب في كتابه: «جدلية الخفاء والتجلّي ـ دراسات بنيوية في الشعر». يتألف الكتاب: من بابين يضمّان فصولاً ستة، في ثلاثمائة واثنتي عشرة صفحة. لا نحلل الكتاب كله هنا، ولكنا نقف وقفات مع نصوص هامّة فيه.

يحاول في المقدمة أن يعطي صورة عن البنيوية ويحدد بعض ملامحها، إن كانت تحمل ملامح حقيقية. ومنذ البداية تجد نفسك أمام تعابير يكاد يعارض أولها آخرها. **يقول في المقدمة**: «ليست البنيوية فلسفة، لكنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود. ولأنها كذلك فهي تثوير جذري للفكر وعلاقته بالعالم وموقعه منه وبإزائه»[1].

إذن فالبنيوية ليست نظرية تنحصر في الشعر والأدب، كما يجب أن يقنعنا بعضهم. إنها رؤية، منهج، تثوير جذري.... ! **إنها لون من ألوان الفلسفة مهما أنكر صاحبنا**، ولكنه أسلوب عرفناه مع أدونيس وغيره، حين ينفون عن أنفسهم ألفاظاً، ويرتبطون بألفاظ، حتى يزينوا المرّ والشرّ، وحتى تختفي النيةُ المبيتة وراء كلمات تدغدغ عواطف كثيرين. ولتأكيد الاتجاه والعلاقات أُورد فقرة أخرى تكشف نوع الرؤية والمنهج والتنوير.

«ولأنها كذلك تصبح البنيوية ثالث حركات ثلاث في تاريخ الفكر الحديث

---

(١) جدلية الخفاء والتجلي: (ص: ٧).

يستحيل بعدها أن نرى العالم ونعاينه كما كان الفكر السابق علينا يرى العالم ويعاينه. مع ماركس ومفهومي الجدلية والصراع الطبقي، بشكل خاص، أصبح محالاً أن نعاين المجتمع كما كان يعاينه الذين سبقوا ماركس. ومع الفن الحديث وبعد أن رسم «بيكاسو» كراسيه. . . . »[1] إلى أن يقول: « . . . ومع «البنيوية» ومفاهيم التزامن، والثنائيات الضدية، والإصرار على أن العلاقات بين العلامات لا العلامات نفسها. . . . أصبح محالاً أن نرى الوجود ـ الإنسان والثقافة والطبيعة ـ كما كان يعاينه الذين سبقوا البنيوية»[2] ثم يضيف: «بهذا التصور، وبالإصرار عليه يكون هذا الكتاب ـ الذي يهدف إلى اكتناه جدلية الخفاء والتجلي. . . . »[3].

إذن وضح بشكل جلي لا خفاء معه، تجل دون خفاء، أن الارتباط هو مع ماركس، وبيكاسو وأمثالهما. وهنالك تجل آخر دون خفاء أيضاً، يبرز لنا أن «التثوير الجذري» هو تثوير ورفض لمعاينة الوجود كله: من إنسان وثقافة وطبيعة، رفض للمنهج والرؤية والطريقة التي كانت قبل البنيوية فهو رفض للإسلام، للدين، للغة، للعقل هو رفض كامل لتاريخ الإنسان كله قبل البنيوية. أي وضوح أكثر من هذا؟!

كيف لا! والتثوير الجذري الذي تسعى إليه البنيوية يجعل **«محالاً أن نرى الوجود» ـ الإنسان، والثقافة، والطبيعة ـ كما كان يعاينه الذين سبقوا البنيوية»** ثم **يضيف** مؤكداً موقفه: «وبهذا الاصرار. . . ». **أما نحن فنرى الوجود كله من خلال الإسلام**، وهذا كله سابق للبنيوية. والكاتب يطرح فكرة التثوير الجذري وبإصرار. الإسلام يقدم لنا رؤية متميزة نرى بها الإنسان والثقافة والطبيعة، إنه يحدد لنا خلق الإنسان وتاريخه وفطرته، وسجاياه ووظيفته في الحياة الدنيا، ومهمته بها. إنه يعرض لنا أشواقه ورغباته، وطاقاته وقدراته، ويبين لنا ما يحل ومالا يحل، ويرسم لنا **«الصراط المستقيم»**، ويضع لنا الأهداف والغايات، ويفصل في علاقة الإنسان بالوجود، بالحياة الدنيا، بالآخرة، ويضع للإنسان **قواعد الثقافة وأسس الأدب وطبيعة الكلمة ودورها ومهمتها**. ولا نستطيع أن نرى إلا من خلال ذلك كله، لأنه

---

(١)، (٢) جدلية الخفاء والتجلي (ص: ٧).

(٣) المرجع السابق. (ص: ٧، ٨).

هو وحده الحق الذي نؤمن به، وما عداه فباطل مردود. فهل التثوير الجذري يريد أن يلغي هذه الرؤية، ليضع رؤية جديدة يغيب عنها الحق ويمتد معها الفساد والباطل؟

ويعيد الكاتب ويؤكد هذه المهمة للبنيوية بجمل وتعابير واضحة تحمل معها الإصرار، إنه يقول:

«وبهذا التصور أيضاً، فإن طموح هذا الكتاب ثوري تأسيسي، وفي الآن نفسه، رفضيٌ نقضيّ»[1].

إن تعبير الثورة، والاقتلاع، والجذري، والتأسيسي، والرفضي والنقضي مالك عليه نفسه وكذلك على أدونيس. إن الكلمات تكاد تحمل رائحة تنبعث من قلوب لا تحمل الخير، ومن ظلمة لا ترى النور!

ولكني أريد هنا أن أطمئن المؤلف إلى أن ما يدعو إليه ليس جديداً. إنه رجعية كأسوأ ما تكون الرجعية، حين يعود بنا المؤلف إلى أفكار من الإلحاد مشابهة كانت تظهر وتختفي في تاريخ الإنسان. فهو لم يأت بشيء جديد إلا أنه بحث عن اصطلاحات جديدة: بنيوية، تثوير، . . الخ. لقد عرف الإنسان هذا المنحى منذ عهود غابرة، وستظل هذه الظاهرة قائمة في حياة الناس، تظهر وتختفي، وسيظل ظهورها فساداً في الأرض كبيراً. وما أتى ماركس وجماعته إلا بصياغة جديدة لكفر قديم.

وهذا التصور الذي يعرضه علينا المؤلف، يصر عليه إصراراً لا رجوع عنه، حتى يلقي في روع القارىء ثقته بنفسه. ولكن القرآن الكريم عرض علينا نماذج من الإصرار والعناد، وكشف مخبوء الصدور ومدفون النفوس:

﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (المدثر: ١٦ ـ ٢٢)

(١) المرجع السابق. (ص: ٨).

إذا كانت هذه المقتطفات من المقدمة قد كشفت عن اتجاه وعلاقات، وأوضحت طبيعة الفكر الذي تدعو إليه البنيوية، فإن نصوصاً أخرى تنقلنا مع أجواء الغموض إلى متاهة واسعة مظلمة تحملنا إليها مع تناقضها ألفاظ ومشتقات ومصطلحات ما أنزل الله بها من سلطان، ولا سبق أن عرفها كاتب أو أديب. **يقول الدكتور أبو ديب:**

«. . . بل إلى اكتشاف لبنية الفكر الإنساني نفسه وللفاعلية الشعرية بما هي فاعلية رؤيوية تنبع من الإنسان مرتبطة بالتاريخ ومتجاوزة التاريخ والتموضع الزمكاني. . .»[1].

لعل المؤلف الكريم لم يكن يحرص كثيراً على أن يدرك القراء حقيقة ما تعنيه هذه الكلمات: رؤيوية، التموضع الزمكاني، مرتبطة بالتاريخ ومتجاوزة للتاريخ. إن التجاوز يعني فك الارتباط، وإن الارتباط يعني عدم التجاوز. هكذا علمتنا اللغة. ولكن الفلسفة قد تعلمنا شيئاً آخر، لولا أن البنيوية ليست فلسفة كما أفادنا الكاتب في أول المقدمة. هل هذه فلسفة؟! **ومثل آخر يقول الكاتب فيه:**

«تصبح ظاهرة العنف في التراث العربي. . . .، مثلا، موضوعاً لمعاينة بنيوية» ثم يقول: «. . . بل تغوص إلى البنية العميقة للعلاقة بين الثنائيات الضدية الأساسية في الثقافات كلها، وهي ثنائيات: الأنا/الآخر، الداخل/الخارج، التحت/الفوق، الواحد/المتعدد. . . .»[2].

لعلنا إذا عدنا لكلام أدونيس في الفصل السابق حين يقول إنه يريد أن يرمي الإنسان: «أن يقتلع الإنسان ويرميه في بوتقة التحول حيث لا يعود له يقين إلا يقين الإنسان ـ الكل الكون . . . الذروة الهاوية، الماء والنار، الرفض والقبول. . .»، نجد أن أدونيس قد رسم الهدف، هدف نزع اليقين من الإنسان بواسطة الثنائيات الضدية، وجاء كمال أبو ديب ينفذ هذه العملية.

---

(١) المصدر السابق. (ص: ١٠).

(٢) المصدر السابق. (ص: ١٤).

وكما رأينا مع أدونيس، وهو يمدح ضحيته قبل الفتك بها، فهنا يتبع كمال أبو ديب أسلوباً قريباً من ذلك، حين يستخدم اسم عبد القاهر الجرجاني، ويسميه الناقد الفذ، وهو يحاول أن يختفي خلف شيء من التراث ليوهمنا أن عبد القاهر الجرجاني يرضى بمثل هذا العبث والضياع في لغة القرآن.

فيقول: «ومن الشيِّق أن التراث العربي يخرج على هذه النظرية للأسلوب والصورة في نقاط عديدة من تطوره. ويبلغ الخروج ذروته في تصور عبد القاهر الجرجاني الناقد الفذ للخلق الأدبي وللصورة. . . .»[1].

نوافق الكاتب على أنَّ عبد القاهر الجرجاني ناقد فذ جاء بأسئلة منذ عشرة قرون لم تخطر للنقد الحديث إلا في العقود الأخيرة. ولكننا لا نوافقه بأن هذه الأسئلة تتعلق بالنظرية البنيوية، ولا يرضى عبد القاهر الجرجاني بأُسلوب النقد والتحليل الذي يعرضه الكاتب. ولا مجال هنا لعرض تفاصيل ذلك، ولكننا نكتفي بإيراد أمثلة من النصوص والتحليل ليطمئن القارىء إلى مجانبة المؤلف أُسس النقد السليم.

وحين يريد أن يَعرض كمال أبو ديب شيئاً من نظريته عن «الفاعلية المعنوية» «والوظيفة المعنوية»، «والفاعلية النفسية» «والوظيفة النفسية»، حين يريد ذلك يضرب لنا مثلا عجيباً لا يمكن أن يكون خطر ببال أحد في تاريخ اللغة العربية ولا ببال عبد القاهر الجرجاني. يقول:

«حين يقول شاعر: «القمر وجه مستدير» فإنه يؤلف تعبيراً شعرياً لا يتعدى الشبه بينه وبين التعبير التالي المستوى السطحي: «القمر رغيف خبز مستدير» ثم يغوص في تحليل النصين بأسلوب أسوأ من النصَّين. يكفي أن تقرأه وهو يقول: «قد يكون الشاعر جائعاً»[2].

لا بد من أن نوقظ صاحبنا لنقول له إن الشاعر إن كان جائعاً أو ظمآن أو متعباً لايمكن أن يقول إن القمر رغيف خبز مستدير. ومن يقل ذلك يكن قد خرج عن

(١) المصدر السابق. (ص: ١٩). (٢) المصدر السابق. (ص: ٢٢).

أساليب اللغة وبيانها وبلاغتها، وهوى في وحل وعفن، وجاء بكلام ليس من الشعر ولا من الأدب. وأين هو الشعر؟ حيث لا جمال ولا صدق خيال، ولا وزن ولا قافية ولا لغة....! حتى مع النثر لا يرقى النص ليكون أدباً.

ولنأخذ مثلا آخر يحاول فيه كمال أبو ديب أن يعرض أوجه البلاغة والعبقرية في نص لأدونيس[1] فيقول عن النص:

«لكن صورة أدونيس الرائعة تعيد خلق «الأب» في سياق جديد، يتحول فيه إلى «أب أخضر»!!!» هذا ما يقوله الدكتور كمال أبو ديب! ثم يورد لنا نص أدونيس «الرائع»! على النحو التالي:

لأب مات أخضراً كالسحـــابــة وعـلى وجهـه شراع....!

ويبدأ يحلل في عبقرية هذا النص، الذي لو سمعه عبد القاهر الجرجاني لرماه في وجه صاحبه ومحلله. «أب مات أخضراً كالسحابة»، ثم «على وجهه شراع». ولماذا وضع الألف بعد «أخضر» أهي خطأ مطبعي أم أسلوب لقتل قواعد اللغة. هكذا إذن تقتل اللغة، وتموت الكلمات، وترمى في تيه. ويستعين في تحليله بنص آخر لخليل الحاوي في «بيادر الجوع». ثم يقول: «فجأة تأتي الصورة المجسدة لهذا اللاوعي المصعوق الذي تنقل فيه أشياء العالم». يقول خليل الحاوي:

«... تخضرُّ فيه لحية، فخذ، وأمعاء تطول».

إن سماع مثل هذه النصوص لا تحتاج إلى دراسة في الأدب لرفضها. إن الفطرة ترفضها وتشمئز منها، إن السجية النقية تلفظها وترميها.

ومع مثال آخر يقول:

في «أغاني الفجر» تصبح الصورة الشعرية عند «لوركا» فعل إضاءة وإغراق وكشف. ويمضي في تحليل الصورة بما هو أسوأ من الصورة، ثم يسوق نص

---

(١) المصدر السابق. (ص: ٤٦ ـ ٤٩).

القصيدة:

في وسط الخافق الصخري
خـنـاجـر الـبـسـيـط
جميلة من بدم المتنافسين.

* * *
* * *

وفي كأس شجرة الزيتون
ثمة امرأتان هرمتان تبكيان
ثـــور الـعــــراك.
يندفع معتليا الجدران
ومـلائكـــة ســـوداء
خوان أنتونيو من صونتيا
يدور، ميتاً، المنحدر

أعتذر للقارىء الكريم عن هذا النص الذي سقته له. فلا أنكر أني أكاد أتمزق غيظاً حين أرى كيف يتحطم فكر الإنسان إلى هذا الهوس، وكيف يكون التآمر على الإنسان نفسه، على تاريخه، على عقله، على لغته. هل من يسمونه الشاعر، كاتب هذه الكلمات، كان ثملاً، كتب بعد أن تجرع مخدرات الأرض، وخمور الأرض، فترنح ذات اليمين وذات الشمال، ثم دفع كلماته من هوس مخدَّر سكران ثمل.

تستغرق محاولة إبراز جمال هذه الصورة مع الدكتور كمال أبو ديب في كتابه بحدود عشر صفحات، وأنا متيقن أن الكاتب يكتب وهو يقتلع الكلمات من صخور عقله. لا يعقل أن يقبل بهذا الهوس إنسان عاقل. لا يعقل أبداً!

أما مع أبي محجن الثقفي، فقد ساق له ثلاثة أبيات رائعة حقاً. أكاد أهتز طربا

لجمالها وموسيقاها ومعناها. إنها لا تحتاج إلى تحليل أدبي. إنك إن كنت تعرف اللغة العربية ستطرب حقاً لجمال اللغة، لجمال النغمة، لجمال المعنى والصورة والحركة، حتى كأن كل لفظة وحدها ترسم لك لوحة رائعة الجمال، ثم تتمازج الكلمات لترسم كلها من تلك اللوحات لوحة أوسع وأكمل، مليئة بالحركة والحياة والجمال، حتى تكاد تشعر بالحركة مع كل لفظة، تبعث أجمل النغم. قارن نص «لوركا» السابق مع نص «أبي محجن الثقفي» التالي:

كفى حَزَناً أن تُطرَدَ الخيلُ بالقَنا وأُترَكَ مشدوداً عليَّ وثاقيا
إذا قُمْتُ عَنّاني الحديدُ وأُغلِقَتْ مَصاريعُ من دُوني تَصمُّ المنادِيا
أريني سلاحي، لا أبا لَكِ، إنني أرى الحربَ ما تزدادُ إلّا تمادِيا

ومما يزيد جمال هذا الشعر ما يرتبط به من حادثة تحمل هي ذاتها جمال العقيدة وعبقرية الجهاد في سبيل الله، وجلال التوبة والأوبة إلى الله سبحانه وتعالى. ونورد هذه القصة ليستمتع القارىء الكريم - وهذا حقه - بجولة من جولات أمجاده وتاريخه، كانت هي التي دفعت هذه الأبيات على لسان أبي محجن الثقفي:

عن محمد بن سعد عن أبيه قال: لما كان يوم القادسية أُتِيَ سعد بأبي محجن وهو سكران من الخمر فأمر به فَقُيِّد، وكان بسعد جراحة فاستعمل على الخيل خالد بن عرطفة وصعد سعد فوق البيت لينظر ما يصنع الناس. (ومعنى فقيد أي أوثقوه وسجنوه). فجعل أبو محجن يقول الأبيات السابقة. ثم قال لامرأة سعد: فلك لله عليَّ إن سَلِمْتُ أن أجيء حتى أضع رجلي في القيد. وإن قُتلت استرحتم مني. فخلَّته فوثب على فرس لسعد يقال لها البلقاء ثم أخذ (وانطلق حتى أتى الناس فجعل لا يحمل في ناحية إلا هزمهم الله فجعل الناس يقولون هذا ملك (أو مالك وهو اسمه)، وسعد ينظر فجعل يقول: الضبر ضبر البلقاء، والطفر طفر أبي محجن، وأبو محجن في القيد. فلما هُزِمَ العدو رجع أبو محجن حتى وضع رجله في القيد. فأخبرت بنت حفصة زوجها سعداً بالذي كان من أمره. فقال لا والله لا أحدُّ اليوم

رجلاً أبلى الله المسلمين على يديه ما أبلاهم. قال فخلّى سبيله، فقال أبو محجن كنت أشربها إذا كان يقام عليَّ الحدّ فأَطهر منها، فأما إذا بهرجتني فوالله لا أشربها أبداً»[1].

إذا لم يبرز الأدب للأمة عظمة عقيدتها وتاريخها في خفقات الجمال فما قيمة الأدب في الأمة؟ لقد مجّد أدونيس، ومجّد كمال أبو ديب كما سيرد معنا، دور الخمرة وشعر شعرائها، ومجّدا ذلك الأدب. أفليس من الحق أن نبرز جمال توبة أبي محجن؟! أليس من الحق أن نبرز جلال معركة القادسية حتى دفعت هذه الأبيات الجميلة على لسان أبي محجن. ولو أعاد القارىء للكريم الآن قراءة الأبيات، وقد عرف صدق إيمان أبي محجن، وعظمة فروسيته وبطولته وجهاده، لو أعاد القراءة لعرف حلاوة الشعر، وجمال الأدب، وكريم المهمة التي يؤديها الأدب، وعظيم التوبة التي تابها أبو محجن. ولكن الدكتور كمال أبو ديب لا يذكر لنا هذه القصة، ولا يريد أن يبرز لنا الجمال الحقيقي للأبيات.

أما وقد عرفنا الأبيات الشعرية ومناسبتها ونفسية قائلها، يمكن لنا الآن أن نبدأ مع الدكتور كمال أبو ديب ليحلل لنا هذه الابيات الشعرية على أسلوب البنيوية علّنا نلمس بعض مواطن الجمال، أو نغيب في تيه واسع يحرقنا فيه الجفاف. يقول كمال أبو ديب محلّلاً:

«تتحرك هذه الأبيات في فضاء من التصورات الثنائية المتشكلة في إطار المغلق/المفتوح، المقيد/المطلق، السكون/الحركة. وتتبلور هذه التصورات منذ الجملة الأولى: كفى حزناً، لأن تصور مقدار من الحزن كافٍ يقسم الحزن إلى اثنين: مقيدّ ومطلق = مقدار يكفي مقابل مقدار لا يكفي. . . .» ثم يمضي الكاتب يحلل الأبيات على هذا النسق من البنيوية في ثلاث صفحات، فقدت بعدها الإحساس بجمال الأبيات، وضاعت معانيها، واضطربت نغمتها. ويتبع الكاتب الأسلوب نفسه وهو يحلل أبياتاً (لعمر بن أبي ربيعة)، وأبياتاً (لأبي الهندي). ولكن أرى أنه لابد من أن نورد ما ختم به كلامه عن أبي الهندي، للتأكد من النية والاتجاه، والمنطلق والغاية. يقول:[2]

(١) الإصابة ج٤. (ص: ١٧٣، ١٧٤).

(٢) جدلية الخفاء. (ص: ٨٥، ٨٦).

نموذج مأخوذ من

الفصل الخامس من كتاب (جدلية الخفاء والتجلي) «نحو منهج بنيوي في تحليل الشعر». (ص: ١٨٢ ـ ١٨٣)

الحركة (ج): مواقع النبر الشعري واللغوي:

```
ج ١   (٥ - /٥ - - - ٥ - / ٥ - - ٥ - // ٥ - /٥ - - ٥ - ٥ - /٥ - - ٥ -)
ج ٢   (٥ - /٥ - - ٥ - ٥ -/٥ - - - //٥ - /٥ - - - ٥ - /٥ - - ٥ -)
ج ٣   (٥ - /٥ - - ٥ - ٥ - /٥ - - ٥ - //٥ - /٥ - - ٥ - ٥ - /٥ - - ٥ -)
```

يكشف الوصف المقدم هنا الخصائص التالية لبنية الأبيات الايقاعية:

١ - عدد النبرات في الأبيات:

في ب ١ = ٧/ ج ١ = ٨

في ب ٢ = ٨/ ج ٢ = ٩

في ب ٣ = ٨/ ج ٣ = ٨

٢ - تطابق النبرين الشعري واللغوي:

في ب ١ = ٦ مرات/ ج ١ = ٤ مرات

تبلغ نسبة (٢) في (ب): $\frac{٩}{٢٤} = \frac{٣}{٨}$

الحركة الثانية (ج):

تبلغ نسبة (١) في (ج): $\frac{٩}{١٢} = \frac{٣}{٤} = \frac{٦}{٨}$

(٢) في (ج): $\frac{٣}{١٢} = \frac{١}{٤} = \frac{٢}{٨}$

أي أن النسب هي: $\frac{٥}{٨} / \frac{٦}{٨}$

$\frac{٣}{٨} / \frac{٢}{٨}$

«إذ أن هذا الشعر يجسد تجربة فذة في انغماسه المطلق في رؤيا الخمرة وإغراقه في الرفض المطلق للتراث الأخلاقي والديني. فأبو الهندي على النقيض من أبي نواس مثلا شاعر نذر نفسه بكلية مدهشة لرؤياه المتفردة للوجود، لعالم الخمرة وما تمثله من قيم».

لعل القارىء أخذ يقتنع معي أن الكلام الذي يسوقه الكاتب هو كلام ثمل تفوح رائحة الخمرة منه، وأن الذي تسعى له البنيوية هو ما سبق عرضه.

وأبيات حلوة (لابن الرومي)، تفقد كل جمالها ونغمتها بعد أن تقرأ التحليل الذي يسوقه كمال أبو أديب. ومن حق القارىء الكريم أن يستمتع بجمال موهبة ابن الرومي قبل أن تشوهها يد التحليل البنيوي:[1].

حَيَّتْك عَنَّا شَمَالٌ طَافَ طَائِفُها بِجَنَّةٍ نَفَحَتْ رِيحاً ورَيْحَانا
هَبَّتْ سُحَيْراً فَنَاجَى الغُصْنُ صَاحِبَهُ مُوَسْوِساً وتَدَاعَى الطيرُ إعلانا
وُرْقٌ تُغَنِّي عَلَى خُضْرٍ مُهَدَّلَةٍ تَسْمُو بِهَا وتَمَسُّ الأرض أحيانا
تَخَالُ طَائرها نشوانَ مِنْ طَرَبٍ والغُصْنُ مِنْ هزِّهِ عِطْفَيهِ نشوانا

أيها القارىء الكريم! أعد إذا أحببت قراءة الأبيات السابقة حتى تستمتع بحقيقة جمالها. أعدها مرتين أو ثلاثاً فإنها تستحقُّ ذلك، قبل أن تقرأ معي طرفاً من التحليل «البنيوي» «الحداثي» لها، قبل أن يفقدك هذا التحليل البنيوي حقيقة الشعور بالجمال.

يقول الدكتور كمال أبو ديب.

«تبدأ القصيدة بتشكل ثنائية أساسية هي الأنا/الأنتِ. تسود بين طرفيها علاقة بعد مكاني تشير إليه التحية التي تُحَمَّلُ للريح. عدا البعد المكاني ليس للعلاقة بين الأنا والأنت من طبيعة محددة، لكن البعد المكاني نفسه يجسد انفصاماً فعلياً قائماً وتلعب الريح دوراً توسطياً. في هذا الموقف بين الأنا والأنت. ويتأكد دورها التوسطي

(١)_ المصدر السابق. (ص: ٨٦).

دلاليا. . . .» ثم يمضي الكاتب ليعتبر «حيَّتْكِ عنا» النواة الأولية، ويعتبر البنية الأساسية للجملة الأولى (A) (أنا/أنت) انفصام الريح = توسط. والبنية الأساسية للقصيدة (B) . لابد من استخدام الأحرف الأجنبية عند كمال أبي الديب ليستكمل ظلام التيه الذي ينقلنا إليه. ولكنه حين يحلل الأبيات في تسع صفحات ينسى القارىء معها الأبيات ومعانيها وجرسها وحلاوتها، ويغيب في اصطلاحات تائهة لا تقودك إلا إلى تيه:

«أي أن التنامي الدلالي الذي يحقق وظيفة بنيوية جوهرية هي التوسط وخلق الوحدة. . . .»

«عبر شبكة الثنائيات المعقدة تتنامى حركة القصيدة لتخلق توسطا مطلقا بين طرفي كل ثنائية مَـمْـرَئـيَـة. . . .».[1] أما كلمة ممرئية فأدعها لك أيها القارىء العزيز. . . . !

ويهبط كمال أبو ديب أعْتَى هبوط في آخر التحليل حين لا يرى في هبوط الغصون وسموِّها وهزة الأعطاف إلا حركة جنسية هابطة في نفس هابطة، فشوه جمال الأبيات وقتل طهرها، وأفسد حلاوتها! إنه يقول: «أخيراً تتلاقى في القصيدة حركتان ضديتان يجسد تلاقيهما النهائي توحد التصورات. . . . . هاتان الحركتان هما الحركة الأفقية. . . ثم الحركة الشاقولية. . . تنضحان بنشوة جنسية تنبع من حركة الاتصال الأفقية، والاهتزاز الشاقولي الصاعد الهابط. . .»[2] أي هبوط هذا!

أما في الفصل الثالث : نحو قوانين بنيوية لتطور الايقاع الشعري، فتجد المحاولة المكشوفة لتحطيم كل إيقاع عبقري بنته آلاف السنين في تاريخ اللغة العربية، إيقاع يحمل لنا عبقرية النغمة والجرس، والحركة والصورة، وسمو الفكر. إنه يحاول أن يعالج بعض الأسطر مما يسمى بالشعر الحديث ليخرج منها بإيقاع موسيقي يحل محل إيقاع العروض، وإيقاع التاريخ، وإيقاع الأدب كله، وإيقاع المواهب المتلاحقة في أمة اختار الله لغتها لقرآنه. عسى أن يدرك شعراؤنا حق الإدراك جلاء الأهداف المخفية للشعر الحديث بكل أشكاله. **اسمعه يقول** :

---

(١) المصدر السابق. (ص: ٨٨). (٢) المصدر السابق. (ص: ٦٩).

«وهكذا يكون تطور الإيقاع فاعلية بنيوية تنبع من شبكة العلاقات المتكونة ضمن البنية وجدليتها. ويختفي وراءها التراث الشعري في اللغة بتاريخه المعقد الطويل»[1]. **فليسمع بعض شعراء المسلمين الذين مستهم لوثة الشعر الحديث، فليسمع شعراؤنا وأدباؤنا هذا النذير المدوي:** «. . . ويختفي وراءها التراث الشعري في اللغة بتاريخه المعقد الطويل. . .»، **فليسمعوا وليستيقظوا قبل أن يقولوا يمكن قبول شعر التفعيلة من الشعر الحر، فيُستدرجوا خطوة خطوة.**

ولنستمع الآن إلى الإيقاع الجديد الذي يريد به أن يمسح التراث الشعري: يقول أدونيس في ما يسميه «قصيدة» ويسميها: الدهشة الأخيرة[2].

«ألبس الدهشة الأخيرة،
في جناح الفراشة
خلف حصن السنابل والضوء في موطن الهشاشة»

يحاول أن يخرج بإيقاع شعري من هذا. ولو تريث لوجد أن هذا الكلام لا يحمل إيقاعاً ولا معنى ولا صورة ولا أدباً. ويحاول ولا يصل إلى شيء، إلا أنه يحاول أن يهز ثقة القارىء بلغته وتاريخه وأدبه، ليخلعه منه، ثم يرميه في بوتقة أدونيس، بوتقة التحول، وقد فقد كل شيء، فلم يبق له إلا الاستسلام، فيدوسه ويمضي عليه.

وفي فصل «الأنساق البنيوية في الفكر الإنساني والعمل الأدبي» يأتي بنماذج لا تختلف عما سبق من حيث هبوط الفكرة والمعنى والجرس، ولكنها تهدف إلى شيء جديد، إلى إدخال أغاني فيروز، «على دلعونا»، وبعض الأغاني الشعبية ليضع بها قواعد للأدب والفكر الإنساني، تاركا روائع الأدب العربي، الأدب الإسلامي تنظر في ذهول إلى ما يفعل.

---

(١) المصدر السابق. (ص: ١٠٥).
(٢) المصدر السابق. (ص: ٩٥).

نموذج من أغنية إفريقية، يسوقها لنا كمال أبو ديب، فلنستمع لها:[1].

A - في الزمن الذي خلق فيه دنديد جميع الأشياء

B
خلق الشمس
والشمس تولد، وتموت، وتعود ثانية

C
خلق القمر
والقمر يولد، ويموت، ويعود ثانية

D
خلق النجوم
والنجوم تولد، وتموت، وتعود ثانية

(L = A-B-C-D)

X
خلق الانسان
والانسان يولد، ويموت، وأبداً لا يعود ثانية»

عجباً له كيف يختار الأمثلة ليعطي إيحاءات فاسدة فكراً ومعنى وإيقاعاً ويغرق في تحليل الحركات بحركات (X,L,A) . . . ! ثم من نسق ثلاثي (D-C-B) ! ثم يسوق حكايات وحكايات يبحث فيها عن الأنساق يختمها بحكاية: «أربع أغنيات لأجل توباماروس». يقول في الحركة الأولى ـ أغنية السعادة إعلان إذاعي عن ساعات سيتزن: «ساعة سيتزن ـ سيتزن ـ سيتزن». ويمضي على هذا النسق، حتى يسوق أغنية لفيروز:

ورحـت أنـا لـعـنـدكـم
قـبـل الـعـشـا بـنـتـفـه ـ د
وسـراجـكـم مـطـفـي ـ دِ

ويقول :

وهكذا يكتمل النسق الثلاثي ـ دِ ـ ثم تعود القافية الأساسية ـ يا ـ . . . . . !

أما مع «فايز خضور» فنكتفي بعرض بعض النماذج التي ساقها الكاتب:

---

(١) المصدر السابق. (ص: ١١٠).

«مُدِّي عريَك الصيفي للضيف المباغت

أسلسي فتح الإزار القز يا مهمورة الغنج. . . . .

● ● ●

رحلت إليك أشرع زورقا للسفك

انتهك النعاس معي سرير الريح والتكوين والجدل،

الملوث والخيانة أقتدي بالحكمة الحرباء

ومن محمد عمران يسوق لنا نماذج أخرى:

يـهــاجــر أمـنــي

ثأسكر **(لماذا أتت الثاء هنا مع السين. . . . !)**

أســـكــر

أسـكـر حتى قـــرارة حـــزنـي. . . . . !!!

ويقول: . . . .

مـــن جـــائـــع يـقـطـنـنـي

مـــن ظـــامـــىء يـعـصـــرنـي

الحـق أقـول مـن لديه فرح رخو ليكسره

ويـتـبـعـــنـي. . . . . !!!

لعله جعل نفسه «نبيا»، فأخذ من الإنجيل أو القرآن ألفاظاً. . . . !

وفي الفصل الخامس: نحو منهج بنيوي في تحليل الشعر، يأخذ نماذج لأبي نواس وأبي تمام. ولا يجد لأبي نواس إلا قصيدة سماها «صبوح»:

يـــا ابـنـة الـشـيـخ أصـبـحـيـنـا	مـــا الـــذي تـنـتـظـريـنـا
قـد جـرى في عـــودك الـمـــا	ء فـأجـــرى الـخـمـر فـيـنـا

ويظل كمال أبو ديب لا يصحو من الخمر إلا على الخمر، ولا يصحو من جنس إلا على جنس ملوَّث، حتى حسب حركة الأغصان وحركة الأطيار حركة جنسية. إنه مرض في النفس، ومأساة هذا المرض أن المريض يحسب نفسه معافى! نسأل الله العافية!

لعل القارىء الأديب، المسلم المؤمن، لو كان يقرأ في كتاب التجلي والتخفي، لما احتاج إلى أن يتابع القراءة حتى الفصل السادس. فقد يجد ما يكفيه في الفصول الأولى ليحدد النية والاتجاه لدى المؤلف في كتابه. ولكن الفصل السادس، يعلن بعنوانه فسادَ النية والاتجاه والتعبير. إنه: «الآلهة الخفية نحو نظرية بنيوية للمضمون الشعري»!!

نموذج من كتاب جدلية الخفاء والتجلي مأخوذ من صفحة (٢٦٢)	الفصل السادس الآلهة الخفية نحو نظرية بنيوية للمضمون الشعري في بنية المضمون الشعري: هاجس النزوع - ١ - « كيمياء النرجس - حلم »

الآلهة الخفية... ! وهل من إله إلا الله والحمد لله رب العالمين.

وبالإضافة لفساد العنوان كان المضمون مُجْمَعاً لفساد أكبر، لا يخرج كثيراً عما عرضناه سابقا. فيختار في هذا الفصل قصيدة ـ أو ما يسمونه قصيدة ـ «كيمياء

النرجس ـ حلم» لأدونيس، وقصيدة «الجزء الثاني» ! «بيتس»، وقصيدة «المدينة» ل «كفافي». وحتى لا نتعب القارىء معنا كثيراً نورد بعضاً من كيمياء النرجس:

A أدونيس: « كيمياء النرجس حلم »

2 A المرايا تصالح بين الظهيرة والليل.

خلف المرايا (N)

2 A جسد يفتح الطريق (F)

لاشقاليمه الجديدة (F)

جسد يبدأ الحريق (F)

في ركام العصور (N)

ماحياً نجمة الطريق (F)

بين إيقاعه والقصيده (N)

عابراً آخر الجسور (F)

3 A وقتلت المرايا (N)

ومزجت سراويلها النرجسيه (N)

بالشموس. ابتكرت المرايا (N)

هاجساً يحضن الشموس وأبعادها الكوكبيه (F)

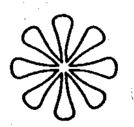
ثم يعطي كمال أبو ديب لكل سطر حرفا بالانكليزية أو حرفا ورقما: F-N-2A - 3A . . . . . . ! ثم يبـدأ التحليل ليحـاول أن يوجـد شيئـاً يستخرجه من الأسطر السابقة، وأنَّي له، إلا حين يخاطب سكارى ومخدَّرين. ويستغرق هذا بحدود خمس وأربعين صفحة. وهو يضع لها مخططات، ثم جداول، مع أحرف انكليزية. ويحاول أن يبحث عن معنى، وعن إيقاع، فلا تجد معنى ولا إيقاعاً.

لعلنا رأينا هنا في كتاب «جدلية الخفاء والتجلي» أن «البنيوية» ليست مذهباً أدبيـاً يقف عند الأدب فحسب، ولكنها مذهب فكري فلسفي يحاول فهم العالم والحياة، فهم الوجود، فهم الإنسان والثقافة والطبيعة، على نحو جديد، حسب ما

يظن المؤلف، مخالفاً لما سبق للناس في تاريخ البشرية أن عرفوه، رافضاً لكل ما سبق، مهدِّماً ما سبق.

إن هذا ليس اتهاماً ولكنها نصوص يسوقها لنا الدكتور كمال أبو ديب في كتابه هذا وفي غيره، وأدونيس في كتبه كذلك، ومنها «مقدمة في الشعر العربي».

لا أعتقد أن الدكتور كمال أبو ديب متفرد في تصوره للبنيوية، فإننا نجد اتحاد المنحى والاتجاه بينه وبين أدونيس، ونرى التقاء التصورات والأفكار. ولا نستطيع أن نَمُرَّ على جميع كُتَّاب الحداثة لنستعرض آراءهم، ولكننا نأخذ متقطفات نعتقد أنها تعطي صورة منصفة للحداثة وللبنيوية، دون أن نعتمد على ظنون، ولكن على نصوص من عند أنفسهم، ومن عند روادهم، كما يعترف جميعهم بذلك.



الفصل الرابع

وقفات مع «كتاب الخطيئة والتكفير»

للدكتور عبدالله الغذامي

ندرس في هذا الفصل بعض النصوص الواردة في كتاب «الخطيئة والتكفير» للدكتور عبدالله محمد الغذامي. ومن الإنصاف أن نوضح أن الكتاب يختلف في الأسلوب عن الكتابين السابقين. فهو لا يهاجم الدين والإيمان كما هاجمه أدونيس وكمال أبو ديب، ولا يعتمد أسلوبهما. وربّما لجأ إلى بعض الآيات الكريمة والآحاديث الشريفة ليحاول تقديم حجة أو دعم رأي، كما سيرد معنا أثناء البحث في هذا الفصل وفي فصل آخر. ولكن الكتب الثلاثة تعتمد أسساً واحدة في الفكر الحداثي والبنيوي، مما جعل الاستشهاد بالآيات والأحاديث في سياق كان أطيب للنفس لو تجنَّبه الكاتب.

ولا ننكر أن السياق يأتي في كثير من الأحيان منمقاً، يثير في نفس القارىء حماسة مضطربة وعاطفة هائجة، تفوّت عليه فرصة التثبُّت، وبلاغ الروّية، وتذهب بجمال الدقة في ضباب كثيف.

ولا نهدف كذلك إلى أن نناقش الكتاب كله، ولكننا نأخذ نصوصاً منه نجد أنها تعبر عن أساس من أسس الحداثة والبنيوية، أو نصّاً يلتقي في وضوحه مع الاتجاه العام في البنيوية أو الحداثة، على ضوء ما سبق أن عرضناه.

إن محاولة تطبيق النظريات الأدبية واللغوية التي يضعها الغرب في أجوائه الفكرية المضطربة على اللغة العربية وآدابها، تحتاج منا إلى تريث طويل، مهما حملت تلك النظريات من بريق. إن تميّز اللغة العربية يجعلها تدعو أبناءها لينطلقوا في بناء ذاتي لا يمنع الاستفادة من تجارب الشعوب الأخرى، ولكن يمنع الولاء والتقليد. عسى أن ننهض ذات يوم لبناء نظرياتنا وقوانينا، لتتعلم منها شعوب الارض، فإن

لغتنا أعز، وزادنا أوسع، ومسئوليتنا أكبر.

في دراسة للنص يورد (**الدكتور الغذامي**) مثالاً قدمه (**رولان بارت**) : «شبَّه فيه النص بفصِّ البصل حيث لا لب ولا نواة ولا قلب. ولكن هناك بَصَلة تتكون من أغشية متتالية، بعضها فوق بعض. ونَزْع الغشاء يكشف عن غشاء مماثل حتى النهاية، حيث لا نهاية ولا بداية. فكلها أغشية وكل الأغشية لب. . . . .»[١].

لا بأس أن يُشبِّه (رولان بارت) النص الأدبي بفصِّ البصل. ولكن لا يحق له أن يقول: «حيث لا نهاية ولا بداية» هذه جملة الانفلات عند الحداثيين. ففصُّ البصل، وأغشيته، له بداية وهو الغشاء الأول، وله نهاية وهو الغشاء الأخير. وكل شيء مادي في الحياة الدنيا نتعامل معه على أساس أبعاده، وعلى أساس حدوده، وبدايته ونهايته، وبدون ذلك ينهار تعاملنا مع الأشياء المادية في متاهة نحن نضيّع حدودها، ونحن ننشر ظلمتها. إن طرح هذه الألفاظ في حياتنا لا يساعد على نمو الجهد البشري حين يتفلّت دون حدود، ويُبَعْثر في عالم مجهول.

ثم يقول: «وهذا هو النص الأدبي فوجوده ذاتي فيه وليس لشيء مخبوء فيه. . . .»[٢]. إن مناقشة هذا النص يدخلنا في دوامة من الجدل لعدم وضوح معناه. فوجود النص الأدبي ليس ذاتياً فحسب، وإلا اقتربنا من نظرية الفن للفن، وإلى ما نادى به (لو كنت دوليل) من أن الأدب لا غاية له، لأنه غاية في حد ذاته، وأعاد (جوتيه) هذا المبدأ على صيحة أخرى: «الفن للفن». حيث لا أخلاق ولا خير ولا شر في المذهب البرناسي.

ونحن في حياتنا الإسلامية نعتبر الأدب له مهمة في الحياة، ووظيفة في الدعوة الإسلامية، إذا فقد الأدب أهدافه ومهمته وارتباطه بالإيمان والتوحيد، فقد وجوده الحقيقي. وشتان بين النظريتين.

يتحدث الدكتور الغذامي عن البنيوية ونشأتها، فبيَّن أنها مدٌّ مباشر من

(١) الخطيئة والتكفير. (ص: ١٥). (٢) المرجع السابق. (ص: ١٥).

«الألسنية» أي علم اللغـة. ثم يبـين كيف امتـدت البنيوية إلى علوم أخرى مثل الأنثروبولوجيا وعلم النفس. وحين يعرض لنا رأي (بياجيه) في «البنيوية» وأساسياتها الثلاث، يقول وهو يتحدث عن «الشمولية»: «والجملة لا تحتاج إلى مقارنتها مع أي وجـود عيني خارج عنهـا ليقرر مصداقيتها. وإنما هي تعتمد على أنظمتها اللغوية الخـاصـة بسياقهـا اللغـوي. ففي قولـه تعالى: «**طلعها كأنه رؤوس الشياطين - الصـافات ٦٥**»، نحن لسنا بحاجة إلى الوجود العيني للشياطين كي ننفعل بهذه الآية. فالجملة هنا تقوم بتأسيس انفعالها في نفس المتلقي عن طريق طاقتها التخييلية الذي هو التحكم الذاتي في لغة (بياجيه)، بأن تعتمد البنية على نفسها لا على شيء خارج عنها. وهذه النظرة التكاملية في تصور الوحدة تخدم في تقديم العمل الأدبي لا على أنه ناقلة للمعنى ولكن على أنه قيمة جوهرية ذاتية التولد ذاتية التحول»[1].

لا نرى هذا الرأي سليماً. فحتى ننفعل بالآية الكريمة لابد من أن نعتمد على شيء خارج النص. وهو أن النص حق يتحدث عن شيء نؤمن يقيناً بوجوده. ولولا الوجود الحق للشياطين، ولولا إيماننا اليقيني بهذا الوجود، لذهب الانفعال. فالذي ينفعل بالنص هو المؤمن، وأما الكافر فلا ينفعل بالنص وقد كفر بوجود الشياطين، واعتـبر أن النص لا يتحدث عن حق ولا وجود عنده للشياطين. وربما يستهزىء الكـافر بالنص تعبيراً عن كفره وإنكاراً لوجود الشياطين. واللحظة التي يفقد فيها النص الأدبي علاقتـه مع الإنسان الذي يتم عنده الانفعال به، في هذه اللحظة يفقد النص طاقته المؤثرة، ويفقد مبرر وجوده، ويفقد مهمته وأهدافه. وكيف يكون للنص الأدبي اعتبار إذا فقد صلته بموضوعه وأصبح ذاتي الوجود، وفقد صلته بالإنسان الذي يتعامل معه وينفعل به، وفقد صلته مع من قاله وقرره، وأصبح كذلك ذاتي الوجود؟!. في هذه الحالة لا يعود هنالك وجود اعتباري للنص، ولا وجود للطاقة المؤثرة، ولا حاجة لنا بعد ذلك إلى النص كله.

وأمر آخر هام. إن النص وقيمته، ومدى تقديرنا لمصداقيته، ومدى تأثرنا به،

(١) المرجع السابق. (ص: ٣٢).

يعتمد بصورة رئيسية على مصدر النص وقائله، وعلاقة المتلقي به.

فهذا النص آية من كتاب الله. وحي من عند الله، يتلقاه المؤمن على هذا الأساس بكامل التصديق والتأثر والانفعال. ولو كان النص من عند غير الله لكان له في ميزان التصـديق والتـأثـر شأن آخـر، ووزن مختلف. **فمصدر النص له أثر بالتصديق والانفعال.**

وقضية أخرى كذلك: فقد ذكر الكاتب أن الجملة لا تحتاج الى مقارنتها مع أي وجود عيني خارج عنها ليقرِّر مصداقيتها. إن «المصداقية» أو عدمها لا تتقرر إلا **بقيام علاقة بين المصدر، والنص، والمتلقِّي، والواقع، وإلا فما قيمة المصداقية أو عدمها؟! بم ترتبط المصداقية؟! ولأجل من ؟! ولأي هدف؟!**

وقد جاء هذا التعبير عن «المصداقية» مغايراً للتعبير الآخر: «. . . نحن لسنا بحاجة إلى الوجود العيني للشياطين كي ننفعل بهذه الآية»؟ فالمصداقية أمر يتطلب شروطـاً معينـة، والانفعـال يتطلب شروطاً أخرى مختلفة، أو زائدة على الشروط الأولى، وقد يكون بينهما شروط مشتركة. وقوله: «فالجملة هنا تقوم بتأسيس انفعالها عن طريقة طاقتها (التخييلية) الذي هو التحكم الذاتي، في لغة (بياجيه)» **فهنا يرد السؤال**: ما هو مصدر هذه الطاقة التخييلية؟! أهي اللغة ذاتها فقط منقطعة عن المصدر والمتلقِّي؟! لا . . ! إن مصدر هذه الطاقة التخييلية هو اجتماع عوامل اللغة من ناحية، وعـوامـل الموضوع المطروق ذاته، وعلاقته بالمصدر والمتلقِّي، وعلاقته بالواقع. إنها كلها تغذي هذه الطاقة.

إن التعبير «الوجود العيني» تعبير غير دقيق. ويحتمل تفسيره وجوها عدة تكون مصدر جدل ونقاش لا يعين على الوصول إلى الحقيقة. فسواء أكان النص الأدبي عن الشياطين، أم عن منظر طبيعي في بلدٍ ما، فإن القارىء لا يفترض أن يُحمل إليه المنظر الطبيعي ليراه عياناً حتى ينفعل بالنص. ولكنه يراه من خلال طاقته هو، ومما حمله في حياته من علم وخبرة وزاد، ومما وهبه الله من وسع، لا من خلال طاقة النص المجـردة. **فالوجود الضروري لتحقيق «المصداقية» ولتحقيق الانفعال هو الوجود**

الحق، **الوجود الذي نؤمن به، الوجود الذي لا باطل معه**. فهذا الوجود العيني الضروري لتحقيق المصداقية والانفعال. هما أمران لازمان لا غناء عنهما: **أن يكون حقاً** حتى يكتسب الوجود العيني وحتى تتحقق مصداقيته، **وأن نؤمن بهذا الحق** حتى ينهض الوجود العيني بالنسبة لنا وحتى يحدث الانفعال. وبدون ذلك لن يكون هنالك مصداقية ولن يكون هناك انفعال. وبذلك يظل النص الأدبي،وبصورة مستمرة،ناقلا للمعنى، ليس ذاتي التولد ولا ذاتي التحول. ولا أنكر أن هذا التعبير: «على أنه قيمة جوهرية ذاتية التولد ذاتية التحول»، هو تعبير منمق حسن النغمة، ولكنه في معناه غير مدقق، مثير للجدل، لا يوصل إلى غاية عملية في بناء الأدب الإنساني، ولا يساهم في بناء حياة الإنسان، وتواصل الناس وترابطهم، من خلال لغة مفهومة وأدب مفهوم يجمع الأمة كلها.

وحتى تتضح لنا الصورة جلية فإنه يحسن بنا أن نقارن النص الذي أورده الدكتور الغذامي بصدد هذه الآية الكريمة، والألفاظ والتعابير التي ساقها من خلاله، مع ما استخدمه علماء التفسير والبيان في صدد هذه الآية نفسها. فحين نجد عند الدكتور الغذامي ونصِّه التعابير التالية: «نحن لسنا بحاجة إلى وجود عيني خارج عنها ليقرر مصداقيتها. . .» أو «التحكم الذاتي. . .»، إلى غير ذلك، نجد أن التعابير في كتب التفسير تحمل الوضوح والدقة لتمضي مع جلال الآية الكريمة. ولا نستطيع أن نورد هنا تفصيل ذلك ولكننا نأخذ لمحات وموجزاً. **فابن جرير الطبري** يوضح الأسس التالية في رده على من زعم غرابة في التشبيه وفي توضيح معنى الآية الكريمة، فيقول ما معناه: **إن الله سبحانه وتعالى عرَّف الشجرة للناس ولم يتركهم في عماء**. وكذلك فإن اللغة العربية قد جرى فيها أسلوب تشبيه كل قبيح بالشيطان، لما ثبت في النفوس من وصف القبيح بالشيطان إذا أرادت المبالغة في الوصف، أو أن التشبيه جاء ليمثل الطلع برأس حية معروفة عند العرب تسمى شيطاناً، وهي حية لها عرف قبيح النظر، أو أن التمثيل جاء على اسم نبت معروف برؤوس الشياطين. وذكر ابن حيَّان في البحر المحيط مثل ما ذكر ابن جرير، وذكر في «النهر الماد» أن التشبيه جاء على ثمر شجرة يقال لها رؤوس الشياطين معروفة بناحية اليمن يقال لها

الأستن. وجــاء بدليل من الشعــر وغـيره على كل رأي. ولا تخرج كتب التفسـير الأخرى، كابن كثير والقرطبي والكشاف عن نحو ذلك.

نجد مما سبق أن كتب التفسير تربط التشبيه بشيء خارج عن النص. فهو إما ما اشتهر في النفوس، أو الحيّة، أو النبات، أو ثمر شجر. هذا كان كله ليوضح عوامـل البيان وقـوة التشبيه ومساهمته في الانفعال. أما بالنسبة للمصداقية فالأمر يختلف عن قضية التأثر والانفعال. إنه الوحي المنزل من عند الله!

ولو أخذنا أي صورة من الصور السابقة للتشبيه فإنها تظل خاضعة لعظمة اللغة العربية وبلاغة التشبيه التي تحملها أساليبها البيانية، على نحو ما استطاع علماء اللغة والبلاغة أن يكشفوا لنا عن كثير من جوانبها. فالخطيب القزويني يذكر الآية الكـريمـة ذاتهـا أثنـاء حديثه عن التشبيه وبلاغته في كتاب «الإيضاح» أو كتاب «التلخيص». فقد ذكر أن طرفي التشبيه قد يكونان حسّيين ندركهما بأحد الحواس الخمس، أو عقليّين. ولكن الخطيب القزويني لم يستنتج أن النص ذاتي التولد بهذا التشبيه، ولا أنه مستغن عن «الوجود العيني لإثبات مصداقيته...»، أو أنه ذاتي التحول، ولم يطرق هذه المذاهب كلها.

ومن العوامل الأخرى التي تقرب النصوص إلى الناس وتزيد من انفعالهم، هو ما يحملونه من زاد وعلم وتجربة توفر للأديب وللقارىء عامة طاقة أوسع على التخيل والتقدير والانفعال. فلا يحتاج الإنسان لأن يرى واقعِ النص كلِ مرة أمام عينيه. فإذا لم يره فإن ذلك لا ينفي وجوده، ولا يعطي للنص استقلالاً ذاتياً في التولد والنشأة والتحول.

وعامل آخر كذلك، ألا وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فأودعها ماشاء من طاقات تكون زاداً لابن آدم في حياته الدنيا. فخلق الله الناس على فطرة الإيمان، ووهبهم القدرة على التعلم والتفكر والتدبر، وعلم آدم الأسماء كلها، وجعل أساس الفطرة الإيمان بالغيب والتوحيد، الإيمان بالله الواحد الأحد، والملائكة واليوم الآخر،

وسائر أسس التوحيد. فأصبح الإيمان بالغيب أساساً عظيماً من أسس الإيمان:

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة: ٣)

فالفطرة إذن عامل آخر يؤثر في التعامل مع النص، وفي تقديره والانفعال به، وتنشىء العلاقة الضرورية بين النص الأدبي والإنسان، بين النص الأدبي وتربته وهوائه.

هذا النص الذي ناقشناه كان يتعلق بالجملة، وبالحديث عنها، وعن الشمولية التي يعتبرها (بياجيه) أحدى الوحدات الثلاث التي تقوم عليها البنية. والوحدتان الأخريان هما التحول والتحكم الذاتي. والجملة الواحدة يتمخض عنها آلاف الجمل التي تبدو جديدة. فالبنية غير ثابتة بل هي دائمة التحول.

وهذا التحول يحدث نتيجة (لتحكم ذاتي) من داخل البنية، فهي لا تحتاج إلى سلطان خارجي لتحريكها. هذا بعض ما أورده الدكتور الغذامي في حديثه عن البنية وعن الجملة. لقد انقطعت الجملة والبنية عن الكون، عن كل شيء خارجها، عن الإنسان، عن الإنسان الذي صاغها، وعن الإنسان الذي نأمل أن يتفاعل معها. **وعندئذ نتساءل كيف يظل للبنية وجود وحياة وقد قطعت أوردة غذائها وشرايين عطائها.**

وهذا النص الذي عرضناه من الكتاب، يتعارض مع نص آخر يرد في صفحات أخرى، حيث يقول الكاتب الكريم: «ولذا فإن الكلمة في البنية (لا تكتسب قيمتها إلا من بروزها كمعارض لكل ما هو سابق لها أو لا حق بها - أو لمعارضتها لهما معاً - كما يقول سوسير). وهذا يلغي الوجود الجوهري للكلمة، ويؤسس العلاقة كقيمة أولى لنشوء وظيفة لها»[1].

نعم، هناك كان الحديث عن الجملة الأدبية، وهنا كان الحديث عن الكلمة.

---

(١) المرجع السابق. (ص: ٣٩).

ولكن الاعتراضات التي سقناها عن الحديث السابق المتعلق بالنص، تجري نفسها هنا، مع اعترافنا بأثر العلاقة بين الكلمة وما يسبقها وما يتبعها. ولكننا لا نقر بأن العلاقة هي علاقة تعارض لكل ما سبق ولكل ما لحق. فالعلاقة هي تعارض أو تآلف، فهناك رابط بياني، رابط بلاغي، ينشىء العلاقة بين لفظة وأخرى، حيث يقوم هذا الرابط من خلال تاريخ طويل يرسم للكلمة معناها وظلالها وعلاقتها. ونستطيع عند مقارنة النصين السابقين أن نلاحظ أن «النص كان ذاتي التولد» حسب تعبير الكاتب، أي أن نشوءه وتولده كان ذاتياً مستغنياً عن غيره مما هو خارجه، أما عند الحديث عن الوظيفة فإن الكلمة نفسها تفقد جوهرها وتصبح العلاقات هي الأساس. وحين يذكرنا هذا التصور وهذه التعابير بما سبق أن الح عليه الدكتور أبو ديب حسب ما ذكرناه سابقاً، فإنها تذكرنا في الوقت نفسه بملامح الفكر المادي الجدلي مما سيلي شرحه في فصول مقبلة.

ولنعد قليلاً إلى النص السابق الذي كنا بصدده عن الجملة والبنية حسب مفهوم (بياجيه)، كما يقدمه لنا الدكتور الغذامي، فإنه يضيف فيقول: «. . . . وبشكل مطلق على أنه، أي النص الأدبي، كل ذاتي الاعتبار ولا حاجة إلى ما هو خارج حدوده ليقرر طبيعته وهذه هي البنية في مصطلحات بياجيه»[1].

مع قليل من التأمل والتدبر في نفس الإنسان، في الحياة، في الكون، في منهاج الله قرآنا وسنة، ندرك أنه لا يوجد شيء ولا نصٌّ ولا غير نصّ في الكون لا يحتاج إلى ما هو خارج حدوده ليقرر طبيعته إلا الله سبحانه وتعالى. ذلك لأن الله سبحانه وتعالى ذاتي الوجود،المستغني هو عن غيره. فلابّد من أن يكون خالقاً، بارئاً، مصوراً، لا مثيل له، ولا كفء له، واحداً أحداً، وإلا فسد الكون كله واضطربت الحياة، وكل ما هو ذاتي الوجود مستغن عما هو خارجه فهو إذن دائم الوجود، هو الموجد والخالق.

إن هذا التعبير ـ في الأدب وفي غير الأدب ـ مزلق خطير لا يجوز استخدامه إلا

---

(١) المرجع السابق. (ص: ٣٢).

مع اسم الجلالة:

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ (الإخلاص: ١ - ٤)

و «الصمد» من معانيه: الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم، وهو وحده المستغني عن خلقه، وخلقه كلهم بحاجة إليه:

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ ﴾ (الحديد: ٣)

وكل ما في الكون مهما صغر أو كبر هو خاضع لله سبحانه وتعالى الخالق البارىء، المصور، له الأسماء الحسنى: الكلمة، والنص، والأديب، والشجر، والدواب، والشمس، والقمر، والنجوم، والجبال. . . . ! كل شيء!

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤ ﴾ (الإسراء: ٤٤)

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٠٢ ﴾ (الأنعام: ١٠٢)

خلال بعض التعابير العائمة، التي قد تتداخل مع بعض النفوس، مثل: «لا بداية ولا نهاية»، «ذاتي الوجود»، «التحكم الذاتي. . .»، من خلال مثل هذه التعابير تنسلُّ أفكار ومباديء قد تصدم مع الإيمان والتوحيد، والإيمان والتوحيد هما أساس وجودنا، وحياتنا، وديننا ومنهجنا، وأدبنا كله. ويظل لكل شيء في الحياة والكون دوره ومهمته التي منحها له الله وحدَّدها له الله، ويظل كل شيء، ما خلا الله، غير ذاتي الوجود، محتاجاً إلى الله سبحانه وتعالى، محتاجاً إلى غيره.

وعندما يعرض دور (ليفي شتراوس) في تحديد مبدأ «الصوتيم» يقول: «حيث يأخذ بمبدأ النسبية لآينشتاين ويترجمه إلى مصطلح إنساني يقوم على أن قيمة الشيء

ليست في جوهره، ولكنها في وظيفته أي في تفسيرنا له وفي نظرتنا إليه»[1].

إن (آينشتاين) في نظريته النسبية لم ينكر «جوهر الشيء»، أي شيء، وإنما درس أسس الربط بين الظواهر الفيزيائية كما يراها مشاهدان بينهما حركة نسبية خطية منتظمة، وذلك في نظريته النسبية الخاصة. وعلى العكس مما يتوهم بعض الناس من لفظة «النسبية»، فإن نظريته تقوم على فرضيتين أساسيتين. **احداهما** : أن سرعة الضوء لها دائماً نفس القيمة في جميع الأنظمة بصرف النظر عن وجود حركة نسبية بين المشاهد والمنبع الضوئي. **فهي ثابت عالمي**. وهذه فرضية ولكن العلم ما زال يعتمد عليها. ونقصد من ذلك أن نبين ان النظرية النسبية تقوم على أساس من وجود شيء ثابت نسبي. فاذا دَرَسَتْ هذه النظرية الحركة النسبية والعلاقات، فإنها لم تنكر وجود الأشياء وأهميتها ودورها في الحياة، ولم تنكر وجود الأشياء الثابتة. **والفرضية الثانية** : تنص على أن جميع قوانين الطبيعة **تأخذ نفس الشكل ولها نفس التماثل الرياضي في** جميع أنظمة القصور الذاتي. فمن هاتين الفرضيتين نرى أن النسبية لا تنكر الجوهر والحقيقة. ومجال البحث هنا أضيق من أن نتوسع في ذلك. ولكن وجود شيء ثابت أساس في النظرية النسبية.

إن هذا التطرف ظاهرة واضحة في التفكير الحداثي، كما كان ظاهرة واضحة في المذاهب والنظريات الأدبية والفكرية في أوروبا، حين تأخذ جزءاً فتجعل منه حقيقة مطلقة، تغفل سائر جوانب الحياة، وما هي بحقيقة مطلقة. وظل الفكر الأوروبي يتقلب في تناقضات غريبة في جميع عصوره، بما في ذلك مثالية (هيجل) ومادية (ماركس)، ظل يتقلَّب في التناقضات دون أن يستطيع إقامة موازنة عادلة بين عناصر الحياة وقواها ومظاهرها، ولن يستطيع. **وإننا لن نجد هذه الموازنة الأمينة إلا في الإسلام، إلا في منهاج الله الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، قرآناً وسنة.** فهناك فقط نجد الموازنة العادلة الأمينة، وهناك فقط نجد الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. نجد ذلك في الفكر والأدب وفي الحياة كلها،

(١) المرجع السابق. (ص: ٣٥).

موازنة عادلة أمينة تقوم على أن كل شيء في الكون يصمد إلى الله الواحد الأحد، الخالق الباريء المصور له الأسماء الحسنى. إنها الموازنة العادلة الأمينة التي تقوم على أساس التوحيد. وبدون التوحيد تتصادم الأشياء وتنهار الحياة، ويضطرب الكون كله، ويفسد الأمر كله. لذلك فنحن بحاجة إلى أن تنهض نظرياتنا الذاتية.

نحن أولى من أولئك الذين ادّعوا بأنهم وضعوا نظريات وقوانين. نحن أولى منهم بأن نضع النظريات والقوانين التي تحكم أدبنا وأدبهم. نحن نستطيع أن نفعل ذلك عندما تستقلّ إرادتنا ونفسيتنا، وعندما يستقل فكرنا في حرية صادقة. ونحن نستطيع ذلك، ونحن أولى لأن لغتنا أوسع، وميدانها أرحب، ولأنها هي اللغة الأقوى.

ونحن نستطيع ذلك، ويجب أن نفعل ذلك لأننا نحن حملة رسالة الله إلى خلقه وعباده، نحن حملة الإسلام العظيم لنبلغه لأهل الأرض. نحن نملك هذا النور العظيم والقوة العظيمة والزاد الكبير، وغيرنا لا يملكه إلا أن يؤمن بما نؤمن به، فنسير على درب واحد في رسالة واحدة.

إن تبعيتنا للغرب أو الشرق نابعة في حقيقة أمرها من هزيمتنا النفسية، وهزيمتنا في الميدان، وهزيمتنا بعد ذلك في ميدان العلم والابتكار. لنعد إلى الله صادقين حتى تعود لنا قوتنا وشخصيتنا وإرادتنا المستقلة، عندئذ يقوم أدبنا المستقل، وتنهض نظرياتنا المستقلة، نقدمها للعالم كله مع أدبنا العظيم.

ويمضي الدكتور الغذامي يعرض البنيوية فيقول: «وأهم ما فعلته البنيوية هو الانطلاق من مبدأ العلاقة فيما بين الأشياء....» إلى أن يقول: «.... وبذلك تبرز كأكبر تحول أدبي في هذا القرن مسَّ وجوه الفكر الإنساني....»[1]. فالبنيوية إذن نظرية شاملة ممتدة.

وبذلك يتضح لنا أن «البنيوية» تحمل مفهوماً واحداً في أسسه وخطوطه العامة عند أدونيس، وكمال أبو ديب، وعبدالله الغذامي، وسائر رجال الحداثة. ألم يقل كمال أبـو ديب في مقـدمة كتابه: «... ولكنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة

(١) المرجع السابق. (ص: ٤١)

الوجود». ثم عرّف الوجود فقال: «الإنسان والثقافة والطبيعة.....».

لا شك أن كتاب الخطيئة والتكفير قد تدَّرج في عرض البنيوية بصورة موجزة ولكنها حملت قدراً غير قليل من الوضوح، مع ربطها بعلوم أخرى في نشأتها ومسيرتها. والكاتب يقتبس عن (رولان بارت) ويعرض كثيراً من نظراته ونظرياته. وعندما يتحدث عن كتاب «S/Z» لـ (رولان بارت) يبين لنا أن الكتاب يدور حول قراءة تشريحية لقصة قصيرة (لبلزاك) لا تزيد عن عشرين صفحة. ولكن القراءة التشريحية في كتاب «S/Z» استغرقت مائتي صفحة. فيعلق الدكتور الغذامي على ذلك بقوله: «وقد هال ذلك بعض نقاد الأدب مما جعلهم يعجبون لكاتب يكتب مائتي صفحة عن قصة لا تزيد عن عشرين صفحة. وسخر بعضهم من ذلك عاجزين عن إدراك قيمته الفنية. ولكن القارىء العربي لا يجد ذلك عجيباً ولا غريباً، **ويكفي أن نتذكر كتاب «مدارج السالكين» (لابن القيم) حيث إنه ثلاثة مجلدات كلها سُخِّرتْ لشرح آيات «إياك نعبد وإياك نستعين». وبه تتمدد جملتان لتغطي دلالاتها الضمنية والشكلية مئات الصفحات»**[1].

لا أرى عجباً في أن يكتب (رولان بارت) مائتي صفحة عن قصة لا تزيد عن عشرين صفحة. فالقضية ليست بعدد الصفحات. وقد أخطأ النقاد الذين عجبوا من ذلك. فلقد كان أحرى بهم أن يحكموا على الأفكار الواردة، ويقولوا إنها تستحق أو لا تستحق مائتي صفحة، لا أن يحصروا عجبهم بعدد الصفحات.

ولكن الذي يثير التساؤل هو مقارنة عمل (بارت) هذا بعمل (ابن القيم) في شرح الآية الكريمة الواحدة (وليس الآيات) في ثلاثة مجلدات. ويقول: «ولكن القارىء العربي....» والقضية ليست قضية القارىء العربي ولكنها قضية المسلم المؤمن. فلربما وجدنا من العرب من ينكر على ابن القيم عمله هذا إذا كان غير مؤمن. ولكن القضية المهمة هي أن الآية الكريمة تحمل في معانيها وظلالها ما قد يستحق أكثر مما كتب ابن القيم. وذلك لسبب بسيط جداً وهو أن هذه الآية الكريمة

---

(١) المرجع السابق. (ص: ٦٧).

تمثل حقاً مطلقاً وليس حقاً نسبياً، حقاً تقوم عليه السموات والأرض كلها، والخلق كله، والإنسان، وما بين السموات والأرض. إنه الحق الذي يقوم عليه كل شيء، وبدون هذا الحق ينهار كل شيء. إنها كلام الله ووحيه على عبده ورسوله. فكان أطيب للنفس أن نتجنب مقارنتها مع أي كلام من كلام البشر، حتى نكون أصدق مع أنفسنا في المقارنة، وأعدل فيما نهدف إليه، وأقرب إلى الأسلوب العلمي الدقيق، ونتجنب مصطلحات عائمة وقضايا، لا يوصلنا الجدل فيها إلى شيء.

وعندما يحاول الدكتور الغذامي وضع الأساس في دراسة أدب حمزة شحاته، فإنه يضع المرأة هي الأساس الذي يختاره، إنه يقول: «. . . . . وبرزت لي المرأة في هذه الخطوة كأقوى الأضواء إشعاعاً حيث وجدتها تحتلُّ مكاناً خطيراً في هذه النصوص. . . . . .»[١].

ثم يقول: «وفي مواجهتها يقف الرجل بين مقبل ومدبر، وبين راج وخائف . . . . . هذه صورة لمعترك (المرأة / الرجل) في أدب شحاته»[٢].

ثم يقول : «وهي صورة لا يملك القارىء وهو يتأملها إلا أن يتذكر تاريخ البشر الأزلي في قضية الوجود الأولى كما رسمها القرآن الكريم، ممثلة في حادثة أبينا آدم عليه السلام مع حواء»[١]. أن يكون هذا المعترك بين حمزة شحاته والمرأة في أدبه، فهذا ممكن، أما أن يكون هذا المعترك صورة يرسمها القرآن الكريم بين آدم وحواء فلا.

فالقرآن الكريم لا يرسم الحادثة كما يصورها لنا الدكتور الغذامي، ولا يجعلها حادثة بين أبينا آدم عليه السلام مع حواء. **إن القرآن الكريم يرسم لنا الحادثة بين طرفين: الطرف الأول هو آدم وحواء معاً، والطرف الثاني هو الشيطان**. ثم يرسم القرآن الكريم هذه المعركة مع الشيطان لتمثل تاريخ البشر الأزلي، لا معركة آدم مع حواء. فالمعترك إذن هو مع الشيطان وليس مع حواء.

أما العلاقة بين آدم وحواء، أو بين الرجل والمرأة فهي ليست علاقة صراع

(١)،(٢)، (٣)-المرجع السابق. (ص: ١١١).

ومعترك، إلا بمقدار ما تحمل الحياة الدنيا من ابتلاء وتمحيص للناس فيما يهبهم الله من نعم. ولا يتسع المجال هنا لعرض تفصيلي للعلاقة التي يرسمها القرآن الكريم بين الرجل والمرأة، ولكننا نكتفي بالإشارة هنا إلى أن القرآن الكريم رسم العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة بناء الحياة، وتعاون وبذل، في أندى عاطفة وأجمل مودة، وأكرم رحمة، جعلها آية من آيات الله، سكناً للرجل، وطمأنينة ونعمة.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الروم : ٢١)

كما صور الحديث الشريف الزوجة الصالحة خير متاع الدنيا:

فعن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال:

«الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة». (رواه مسلم)[٢]

هذه ناحية، والناحية الأخرى التي يصورها القرآن الكريم هي معترك الإنسان (آدم وحواء وذريتهما) مع الشيطان، في الجنة ثم في الحياة الدنيا، معركة ماضية إلى يوم القيامة:

﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾ (طه : ١١٧)

أما الدكتور الغذامي فيقدم لنا صورة أخرى فيقول: «فحواء كانت هي اللحظة الحساسة في تاريخ البشر منذ تواجه معها آدم على مشهد (التفاحة) وهي تقدمها له ليأكل منها. وهو يضعف أمامها ناسياً تحذير الله سبحانه وتعالى من الفاكهة المحرمة. وأخيراً ينسى نفسه فيأكل الحرام ويأثم. وعندئذ يحكم الله بالهبوط إلى المنفى (الأرض).....»[١].

(١) صحيح مسلم : كتاب (١٧). باب (١٧). حديث (٦٤ /١٤٦٧) - (٢) الخطيئة والتكفير. (ص: ١١١).

ثم يضيف: «ومن هنا تصبح علاقة شحاته مع المرأة تمثلا أدبياً لقصة البشر من خلال أبيهم. . . . ».

ولا شك أن القارىء يشاركني العجب والدهشة من هذه القصة العجيبة التي أوردها الكاتب، دون أن يحدد لنا المصدر الذي استقى منه هذه المعلومات إلا بما قاله: . . . . «كما رسمها القرآن الكريم. . . . ». ويكون العجب أشد حين تكون هذه القصة هي الأساس الذي يقوم عليه التحليل الأدبي والنظرة والنظرية. (فحواء)، إن كانت لحظة حساسة في تاريخ البشر، لم تكن كذلك على أساس مواجهة (آدم) لها على مشهد التفاحة. فالتفاحة كلها ليست واردة في قرآن ولا سنة، (وحواء) لم تحمل التفاحة لتقدمها إلى (آدم) ليأكل منها، وهو لم يضعف أمامها، ولكنهما هما معاً ضعفا أمام الشيطان فأزلهما عما كانا فيه.

إن قصة آدم وحواء، والحية، والشيطان، والشجرة، إن قصة ذلك كله هو من علم الغيب، وهو ليس من العلوم البشرية التجريبية والاستنتاجية. وعلم الغيب ليس له عند المسلم إلا مصدر واحد هو المنهاج الرباني ـ قرآناً وسنة. ولولا أن الله أعلمنا عن ذلك لما عرفنا منه شيئاً. والتفاحة، وتقديم حواء لها، وهذا اللون من الضعف الذي رسمه المؤلف لآدم عليه السلام، هذا كله ليس من القرآن الكريم، ولا مما رسمه القرآن الكريم. وربما جرت مثل هذه القصص في الاسرائيليات، أو في بعض روايات النصارى، ما لا يجوز لنا الأخذ به.

وكتب التفسيرلم تذكر التفاحة ولا شجرتها، ولا الفاكهة التي تصورها الكاتب الكريم. ولقد ذكرت بعض كتب التفسير نباتات أخرى لم تكن التفاحة بينها، وكل هذه الروايات لا يؤخذ بها لأنها لم ترد في قرآن ولا سُنّة. **لقد ذكرت بعض كتب التفسير:** السنبلة، الكرم، التين، وزعمت اليهود في بعض ما يروى عنهم أنها الحنطة، وقيل إنها شجرة العلم. كل ذلك لا نأخذ به ما دام لم يرد في قرآن ولا سنة، وهو من علم الغيب، والقرآن والسنة هما المصدر الوحيد. **ولذلك نكتفي بأن نقول ما علمنا إياه الله وحياً على رسوله محمد ﷺ من أن الله سبحانه وتعالى نهى آدم وحواء**

معا عن الأكل من شجرة لم يبينها الله ولا رسوله لنا. ونقف عند ذلك ولا نزيد.

فبعد أن ذكر (ابن عطية) في تفسيره مختلف الأقوال التي وردت عن الشجرة، والتفاحة على كل حال لم تكن بينها، قال: «وليس في شيء من هذا التعيين ما يعقده خبر. وإنما الصواب أن نعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة فخالف هو إليها وعصى في الأكل منها»[1]. وكذلك (ابن كثير) في تفسيره: «ج ١ ص ٧٩» يذكر قول أبي جعفر بن جرير بما لا يخرج عن ذلك. وكذلك (القرطبي) وسائر التفاسير تؤكد ذلك.

ويقول (ابن عطية) في تفسيره: «ولا خلاف بين العلماء أن إبليس اللعين هو متولي إغواء آدم. ثم يروي مختلف الأقوال في الإغواء، ومن بينها الحية، ثم عن طريق حواء، ولم يصح في ذلك خبر. وقال ابن عباس وابن مسعود وجمهور العلماء: أغواهما مشافهة»[2]. وهذا ما يتفق ونص القرآن الكريم.

وما رواه الدكتور الغذامي: «وهو في قصة آدم اقترانه بحواء وتعلقه بها، وبها خطىء آدم فخطئت ذريته ـ كما نقل الترمذي في تفسيره لسورة الأعراف»[3]. فلم أجد في سنن الترمذي حديثاً مثل هذا. فالأحاديث الواردة في تفسير سورة الأعراف هي من حديث رقم (٣٠٧٤ حتى حديث ٣٠٧٨)، ليس بينها واحد يدخل حواء في الموضوع هذا. وربما كان الذي يقصده الدكتور الغذامي هو آخر الحديث ٣٠٧٦، حيث يرد فيه: « . . . . **فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطىء آدم فخطئت ذريته**». وهذا حديث حسن صحيح، إلا أنه لا ذكر لحواء فيه، ولا لاقتران آدم بها، ولا لإغوائها آدم. إن الحديث يدور حول آدم نفسه: جحوده هو، ونسيانه هو، وخطؤه هو نفسه!

إن قصة إغواء حواء لآدم عليه السلام قصة ثبت أنها لم تأت في قرآن ولا سنة، ولكنها روايات تعددت لا تُرْفَعَ الى الرسول ﷺ، وقد ذكرت بعض كتب التفسير هذه

(١) تفسير ابن عطية: ج ١. (ص: ٢٥٢). طبعة مؤسسة دار العلوم.

(٢) المرجع السابق. (ص: ٢٥٤).

(٣) الخطيئة والتكفير. (ص: ١٥٠).

الروايات، ثم ذكرت كتب التفسير أن هذه الروايات لم يثبت منها شيء يعضده الخبر.
ويقول ابن جرير الطبري في تفسيره بعد أن أورد جميع الروايات التي بلغته:

«وأولى ذلك بالحق عندنا، ما كان لكتاب الله موافقاً. وقد أخبر الله تعالى ذكره عن إبليس أنه وسوس لآدم وزوجته ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءآتهما. . . . . وأنه قاسمهما إني لكما لمن الناصحين مدلياً لهما بغرور. ففي إخباره جل ثناؤه عن عدو الله أنه قاسم آدم وزوجته بقوله لهما (إني لكما لمن الناصحين) الدليل الواضح على أنه قد باشر خطابهما بنفسه. . . . وذلك أنه غير معقول في كلام العرب أن يقال: قاسم فلان فلاناً في كذا وكذا، إذا سبب له سبباً وصل به إليه دون أن يحلف له، والحلف لا يكون بتسبب السبب. وكذلك قوله: «**فوسوس إليه الشيطان**. . . .»[1] ويتابع الطبري شرحه ليثبت ضرورة الأخذ بمعاني القرآن والروايات التي تطابقها، وأن إبليس لعنه الله أغوى آدم نفسه وحوّاء نفسها مشافهة.

ومما يؤكد هذه الحقيقة القرآنية هو أسلوب القرآن الكريم في التأكيد والتثبيت، والإعادة والتكرار، باستخدام ضمير المثنى، وإذا استخدم المفرد حصر ذلك بآدم عليه السلام. ويأتي النص في سورة الأعراف يحمل هذا التأكيد والوضوح والحسم.

ولم ينفرد الطبري بنقض هذه الروايات الإسرائيلية أو النصرانية، وإنما كان ذلك سبيل المفسرين ممن روى هذه الروايات. وهناك مفسرون آخرون تركوا هذه الروايات وتجاوزوها، ولم يذكروها في شروحهم وتفسيرهم.

والدليل الهام كذلك هو أن الرواية في القرآن الكريم تهدف بشكل واضح إلى بيان عداء الشيطان لآدم وزوجه وذريتهما. إن هذه هي قضية أساسية في القرآن والسنة، يرد ذكرها في سور كثيرة، وبمناسبات عديدة خلاف قصة آدم وحواء مع الشيطان في الجنة. وربما مال بعضهم إلى الإشارة إلى قصة إغراء حواء لآدم في الجنة في شرح حديث رسول الله ﷺ:

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لمحمد بن جرير الطبري، ج ١ (ص: ٢٣٨).

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

« لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخنز اللحم ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر». (رواه الشيخان)[1].

فهذا الربط لا يصح. فالحديث لا يشير إلى ما تدعيه بعض الروايات من أن حواء أغْوَت آدم. الحديث حديث صحيح رواه الشيخان، والرواية عن إغواء حواء لآدم رواية ضعيفة تركها معظم المفسرين، وهي رواية ليست عن الرسول ﷺ، وإنما هي عن أهل الكتاب. وقد ذكرنا قول ابن عطية والطبري وغيرهما بنقض هذه الروايات، واتباع ما وافق القرآن الكريم.

وسبب آخر لعدم صحة هذا الربط أننا لا نجد هذا الحديث معتمداً لدى كتب التفسير في صدد تفسير الآيات المعنية، لا لعدم صحة الحديث، فالحديث صحيح، ولكن لعدم مناسبته وعلاقته بالقصة، فما وجدت واحداً من كتب التفسير ذكر الحديث أو اعتمده في شرح الآيات المعنية بقصة آدم وحواء.

وإذا كنا نريد ربط الحديث مع شيء من قصة آدم وحواء مع الشيطان في الجنة، فلابد من أن يتفق هذا الربط مع معاني القرآن الكريم وما تعرضه الآيات الكريمة من هذه القصة. ولا يتأتى هذا إلا إذا أشرنا إلى ناحية واحدة من القصة، وهي ضعف حواء نفسها أمام إغراء الشيطان لها كما أغرى الشيطان آدم عليه السلام. **فيكون الحديث الشريف بذلك يشير إلى جبلة وطبع خلقت عليه حواء حمل شكلاً من أشكال الضعف امتد إلى بنات آدم بالولادة ونزع العرق، كما أن خلق آدم عليه السلام حمل طبيعة جعل الله فيها ضعفاً لحكمة يريدها سبحانه وتعالى. فالضعف صفة من طبيعة الإنسان ذكراً كان أو أنثى.** كما قال الله سبحانه وتعالى:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ (النساء: ٢٨)

وإنما خص هذا الحديث الشريف حواء بالذكر، لمناسبة اقتضاها الحديث، مما

(١) صحيح البخاري: كتاب الأنبياء في فتح الباري طبعة دار الفكر حديث رقم (٣٣٣٠). صحيح مسلم: كتاب الرضاع (١٧)، باب (١٧) حديث [(٦٢)و(٦٣)و / (١٤٧٠)].

لم يرد الحديث على ذكره، ومما لم يأت عليه الرواة، فبقيت المناسبة مخفية علينا. وإلا فكما يمكن أن يظهر الضعف من النساء، فإنه يظهر كذلك من الرجال، وكما يمكن أن تخون زوجة زوجها كما تدل عليه وقائع الحياة، فإنه يمكن أن يخون الزوج نفسه زوجته، وفي جميع الحالات يكون ذلك صورة من صور الضعف الذي جُبِلَ عليه الإنسان عامة، والذي قرره القرآن الكريم، والذي جاء هذا الحديث الشريف يعرض لنا طرفاً منه، هذا الضعف البشري في حواء وبنات آدم. وربط الحديث بمناسبة اقتضته، أولى من ربطه برواية لم تصح.

وخيانة الزوجة لزوجها، مهما كانت صورة الخيانة، لا تتناسق مع الرواية التي لم تثبت صحتها من أن حواء أغرت زوجها بالأكل من الشجرة. حالتان مختلفتان كل الاختلاف، فالخيانة تعني أن الحدث تم بدون علم الطرف الآخر، **وأما إغواء حواء لآدم - لو تم - فإنه تم بوعي من آدم وجلاء، فيظل آدم عليه السلام يحمل مسئولية قبوله وهو غافل**، والحق أن نقول كما قال القرآن الكريم إن آدم هو الذي نقض ونسي وعصى: «**وعصى آدم ربه فغوى**»، وكذلك: و« **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً**». أيعقل بعد أن يقرر الله سبحانه وتعالى هذه الصورة الواضحة الجلية الحاسمة، أيعقل بعد هذا كله أن نقلب نحن الصورة ونقول إن حواء خانت آدم، استناداً إلى رواية عن أهل الكتاب لم يعضدها قرآن ولا سنة؟!!!.

يضاف إلى هذا كله أن الحديث الشريف لا يتحدث عن خواء في الجنة، ولا عن شيء دار فيها، وإنما هو يتحدث عن بني إسرائيل في الدنيا وعن حواء كذلك في الدنيا وعن خيانة الزوجة زوجها في الدنيا، ولا إشارة في الحديث عن الجنة وما دار فيها، ولا عن قصة إغواء الشيطان لآدم وحواء. فمن الخطأ إذن الاستدلال بالحديث على وهم تصوره بعض الناس من أن حواء أغْوَت آدم عليه السلام في الجنة.

والدكتور الغذامي لم يورد هذا الحديث الشريف في كتابه الذي نحن بصدده. ولكني حاولت جهدي أن أُشير إلى أي مصدر يمكن أن يكون سبباً للتصور الذي عرضه لنا الدكتور الغذامي، ثمَّ أُحلله لأجلو القضية كلها، على أساس من كتاب

الله وسنّة رسوله.

لذلك ندعو، حتى تساهم جهود جميع أفراد الأمة ببناء آدابها وحضارتها، إلى أن نلتـزم جميعنا بعرض قضايانا وتصوّراتنا على أسس إيمانية جلية، وقواعد ربانية نقية، تنهض بها قلوب خاشعة، ونفوس أوابة!

كان من الأقـرب للتقـوى أن نضـع النصوص من القرآن والسنة في صورة دقيقة، توضح الصورة وتنفي الشبهة وتوحد الرأي وتدفع الجدل.

فلا شك أن الكتاب لم يرسم الصورة التي يعرضها لنا القرآن الكريم عن آدم وحواء. ومن المحتمل أن يكون هنالك بعض الروايات التي شاعت بين الناس مما يُروَى من الإسرائيليات أو مما يُروَى عن النصـارى. ولكن ذلـك كله لا يصـح الاستدلال به لإقامة منهج أدبي.

وكذلك يكون حكم الرواية الثانية من أن حواء قدمت التفاحة لآدم فضعف أمامها هي رواية لا تنسجم مع نصوص القرآن الكريم:

﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (البقرة : ٣٥)

فالخطاب ابتدأ أولا إلى آدم عليه السلام: «**وقلنا يا آدم....**». ذلك لأن آدم هو المسئول الأول، وهو الذي أخذ الله منه العهد، كما سيرد بعد قليل. ثم يتوجه الخطاب بعد ذلك إلى آدم وحواء معاً عندما يبتدىء الأمر والنهي بالنسبة للشجرة، ليتحملا المسئولية معاً: «**... ولا تقربا هذه الشجرة ... فتكونا من الظالمين**». ثم تمضي الآيات الكريمة تبين مسئوليتهما معاً في المعصية، ولكن بعد ذلك تتأكد مسئولية آدم عليه السلام في الآيات التي تلي بعد ذلك من سورة البقرة:

﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ (البقرة : ٣٦)

فهي هنا مسئولية مشتركة وعقاب مشترك:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ (البقرة : ٣٧)

إنها هنا مسئولية آدم عليه السلام وحده، فهي مسئولية العهد، ومسئولية النبوة، ومسئولية ممتدة في حياة الإنسان في الأرض، تقوم عليها قوامة الرجل.

والقضية الهامة هنا هي أن الذي قام بدور الإغراء والغواية هو الشيطان وليست حواء «فأزلهما الشيطان . . . فأخرجهما. . . .» ويتأكد هذا المعنى الثابت في جميع القرآن الكريم حيث ترد هذه القصة. ففي سورة الأعراف يأتي تفصيل لذلك:

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٢٢﴾ (الأعراف : ٢٢)

فالشيطان وسوس لهما وخاطبهما وأغراهما معاً، وقاسمهما ودلاهما بغرور. ثم أكلا من الشجرة معاً: «فلما ذاقا الشجرة. . . .» ثم يضع الله سبحانه وتعالى عليهما المسئولية: «وناداهما ربهما ألم أنهكما . . . وأقل لكما. . . .».

ثم تأتي القضية الأساسية في الإيمان والفكر: «. . إن الشيطان لكما عدو مبين». فكيف نحمِّل حوّاء كامل مسئولية هذه المعصية أو كامل مسئولية الإغراء، ونطوي دور الشيطان طياً حتى لا يذكر أبداً في رواية الكتاب.

وفي سورة (طـه) تتأكد المعاني السابقة كلها. فآدم عليه السلام هو المسئول الأول، فهو الذي أخذ الله سبحانه منه العهد:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ١١٥﴾ (طه : ١١٥)

ثم تتابع السورة القصة لتصور لنا أهمية العهد، ومسئولية آدم عليه السلام، فيمضي الخطاب موجهاً إلى آدم وحده، حتى تأتي لحظة مقارفة المعصية فيتوجه

الخطاب لهما معاً:

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾

(طه: ١١٨ - ١٢٠)

ونلاحظ هنا أن الخطاب كله محصور في آدم عليه السلام، حتى يتناسق السياق مع الآية السابقة آية العهد، وحتى تبرز حقيقة المسئولية، مسئولية العهد، وبعد ذلك مسئولية النبوة في الأرض، ونلاحظ كذلك «فوسوس إليه الشيطان. . . .»، تأكيداً للمسئولية الأولى على آدم عليه السلام. وأما عندما وقعت المعصية، فقد جاء النص ليبين المشاركة والمساواة فيها:

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ (طه: ١٢١)

وحين تُظهرُ هذه الآية الكريمة المشاركة في إقتراف الإثم، والمساواة في ظهور السوءة، والبحث عما يستر ذلك، تعود الآية الكريمة فتؤكد لنا مسئولية آدم عليه السلام، مسئوليته الأولى: «وعصى آدم ربه فغوى».

وتؤكد هذه الآيات من سورة طه الحقيقة الكبرى الأساسية، التي أكدتها سورة (البقرة) وسورة (الأعراف) وغيرهما، ألا وهي مسئولية الشيطان في الإغراء والغواية، والعداء الثابت المستمر إلى يوم القيامة بين آدم وزوجه من ناحية، وبين الشيطان من ناحية أخرى:

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ ﴾ (طه: ١١٨)

﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

(الأعراف: ٢٢)

نخـرج من هذا العرض الموجز السريع بأن هنالك قضيتين لم يوفق الكاتب في عرضهما، ولا في بناء القاعد السليمة للتحليل الأدبي. هاتان القضيتان هما: علاقة آدم وحواء، الرجل والمرأة، الزوج والزوجة، كقضية أولى، ثم علاقة الإنسان (آدم وحواء وذريتهما) بالشيطان، وعداء الشيطان للإنسان.

أما علاقة الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل، فقد رسمها الإسلام على نحو مشرق كريم، تحتاج الإنسانية اليوم كلها إلى أن تتعلم منه، كما أشرنا إليه بإيجاز سابقاً، وكنا نود أن يجعل الدكتور الغذامي من هذه القواعد الإيمانية صورة مشرقة في تحليله الأدبي ليتعلم منها (رولان بارت)، و (سيوسير)، (رومان ياكوبسون)، (وبياجيه)، (وهيجل)، (وماركس)، (وفيورباخ)، (وإنجلز)، (وفيشته)، وسائر أقطاب الفكر في الغرب والشرق. إن هاتين القضيتين كما يرسمها القرآن تصلحان أساساً لقواعد في الفكر والأدب والنقد.

إننا نستطيع أن ننطلق بنظرياتنا الأدبية وقواعدنا في النقد والنصح والبناء، لنقدم للعالم ما عجز هؤلاء عن تقديمه.

إن المعركة بين الإنسان والشيطان، ونظرة الإسلام للعلاقة بين الرجل والمرأة، علاقة السكن والرحمة والمودة في ظلال الإيمان، يمكن أن يكون هذا كله منطلقاً عظيماً لقواعد في الفكر الإنساني والأدب العالمي، يقدمها الأدباء المسلمون ليقودوا بها العالم إلى خير كبير، ولنعلم أولئك ما هم بحاجة إليه، وما ضلوا عنه.

يستطيع (حمزة شحاته) أن يرسم علاقته مع المرأة كيف يريد، وهو يتحمل مسئولية عمله في الدنيا والآخرة. ولكن ما يرسمه هو لا يجوز لأحد أن يعتبره أنه هو الذي يمثل الصورة التي يرسمها القرآن الكريم. فما يرسمه القرآن الكريم تقرره الآيات والأحاديث الصحيحة.

وتـظل التفـاحة محور تحليل الدكتور الغذامي، ويظل دور المرأة هو دور «الإغراء»، الذي توهم الدكتور أن القرآن الكريم رسمه لحواء، وكلا الأمرين لا

أصل لهما في الإسلام.

فيقول الدكتور الغذامي : «والعلاقة بين شحاته والمرأة (آدم وحواء) تحكمها مركزية محورية خطرة. . . . وهذه المحورية هي صورة التفاحة»[1].

ونعيد لنؤكد أن التفاحة وهم، لم يرسم القرآن قصتها، حسب ما توهَّم الدكتور الغذامي فذكر ذلك في كتابه، كما أوردنا سابقاً. ولكن قضية التفاحة تستمر في التحليل وتتكرر في أكثر من مناسبة، حتى جعلها محوراً عبَّر عنه بالنص، ثم بالرسم الموضح في الصفحة (١١٢) من الكتاب. ثم يعيدها في صدد ذكره لحديث رسول الله ﷺ عن الفطرة: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة**. . . ». فهو يقول: «فالصورة الأولى هي صورة البراءة، وهي تمثل حياة أبينا آدم في الجنة حتى يوم أكله للتفاحة الحرام». مسكينة التفاحة، ومسكينة الشجرة، ومسكينة حواء!

ولا نتفق بعد ذلك كله مع الدكتور الغذامي في النتيجة التي يخرج منها وهو قد بدأ فيها، حيث يقول: «ولذلك نرى موقف الرجل والمرأة في كل التاريخ موقف خوف وتوجس، وموقف صراع بين الحب والكراهية، والثقة وعدمها»[2] فالمرأة في الإسلام، وموقف الرجل من المرأة في الإسلام، يختلف عن ذلك. وإن وجود خلافات أحيانا بين الرجل وزوجه لا يمثل صراعاً ممتداً في التاريخ، فصراع الرجل مع الرجل أشد وأوسع، وخوف الرجل من الرجل أعتى، والحب والكراهية أوضح، ولا بأس أن نرى شيئاً مما قاله الدكتور الغذامي موجوداً في حياة الغرب، حيث أصبحت المرأة مساوية للرجل، أو أعلى منه.

ويأتي عرض دور الشيطان بعد ذلك عرضاً باهتاً لا يقدم الصورة القرآنية الواضحة بقوتها وجلائها، ودورها في تفسير الحياة وحقيقة الصراع في الحياة. إن الصراع الذي يرسمه لنا كتاب «الخطيئة والتكفير» صراع غير عادل ولا هو دقيق من حيث ارتباطه بالمعنى القرآني. وإن تصوير حياة الإنسان كلها على هذا النحو يحمل من المبالغة ما يضيع حقيقة المعاني القرآنية لحياة الإنسان. يقول الدكتور الغذامي:

(١) المرجع السابق. (ص: ١١٢).

(٢) المرجع السابق. (ص: ١٥٠).

«وهكذا يدخل آدم ومن بعده بنوه في صراع دائم بين قطبين أزليين هما الخطيئة والتكفير»[1].

لا شك أن اختيار الألفاظ يضفي ظلالاً معينة على المعنى الذي يريده الكاتب. فكلمات صراع، قطبين أزليين، الخطيئة والتكفير. وكلمة صراع تقربنا إلى التصور المادي بين الشيء ونقيضه، ويزيد الاقتراب من ذلك باستخدام «قطبين أزليين»، **«فالقطبان»** تعبير عن المتناقضين، و**«أزليين»** تعبير عن استمرار الصراع. وسنرى صورة أوضح عن ذلك في فصول مقبلة، أما **«الخطيئة والتكفير»** فلفظتان تحملان ظلالاً كثيفة أيضاً، ولكنهما لا ترسمان نشاط الحياة الحقيقة في الإسلام، ولا ترشدان إلى مهمة الإنسان.

فالإسلام رسم للإنسان درباً وحدد له أهدافاً. وعبر القرآن الكريم عن مهمة الإنسان في الحياة الدنيا بأربع ألفاظ، ترسم كلها بمعانيها وظلالها أبعاد المهمة وميادينها: فهي:

أولا: العبادة:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ (الذاريات: ٥٦)

والعبادة هي كل عمل ابن آدم إذا توافر فيه شرطان: صحة النية وصدق التوجه إلى الله، ثم مطابقة العمل لمنهاج الله.

ثانيا: الخلافة:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة: ٣٠)

ثالثا: الأمانة:

(١) المرجع السابق. (ص: ١١٢).

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ (الأحزاب : ٧٢)

رابعا : عمارة الأرض :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ (هـود : ٦١)

هذه ظلال مهمة الإنسان في الأرض، كلَّفه الله بها وأمره بها. واقتضت سنة الله في الحياة أن ينهض الإنسان لمهمته هذه من خلال ابتلاء وتمحيص حتى يميز الله الخبيث من الطيب، وحتى يُمحِّص الله النفوس، لتقوم عليها الحجة وهو أعلم بها:

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ (الملك : ١، ٢)

ومن خلال هذا الابتلاء في الحياة الدنيا يقع الإنسان في خطأ أو إثم أو معصية، لا تلتصق به، ولكن الله فتح للإنسان باب التوبة والاستغفار. فإذا كان الخطأ يقع من الإنسان فإن التوبة يقوم بها الإنسان كذلك لمسح الخطأ، حتى يجدد عزيمته في الحياة، دون قلق قاتل أو فزع مدمر. من هذا العرض الموجز نرى أن التصور الإيماني للخطأ والخطيئة يختلف عما عرضه الكتاب ابتداء من قصة التفاحة. ويصبح الابتلاء في الحياة الدنيا، بكامل تصوره القرآني دون تجزئة أو تغيير، يحمل أنداء الراحة مع الشدة، وفرحة اليقين مع البلاء، ويصبح بذلك يميز الناس إلى مؤمن يعمل الصالحات فيدخل الجنة، وكافر يدخل النار:

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (يونس : ٤)

ولا يبقى الخطأ عقدة قاتلة تحطم قوى الإنسان وتدمر نشاطه. ولكنه يصبح مدرسة واسعة تجدد العزيمة وتدفع للمضي:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ (الزمر: ٥٣)

لذلك لم ينصف الدكتور الغذامي إشراقة الصورة الإيمانية عن الخطأ والتوبة، فجاءت تعابيره قاسية لا تحمل نداوة الإسلام. فيقول في كتابه:

«ثم يسقط الإنسان ويأكل التفاحة المحرمة فيقترف الإثم... وهي ممارسة ظلت مع الإنسان في كثير حتى صارت صفة له وفي ذلك جاءت الأحاديث: «**كل ابن آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون**»، «**ولو أنكم لا تخطئون لأتى الله بقوم يخطئون فيغفر لهم...**»......»، إلى أن يقول: «ودخول الإنسان في هذه الدوامة كان حتمية فرضها على نفسه جهلاً منه بخطورتها....»! فجاء التعبير «.... في هذه الدوامة....» لا يتناسب وجلال الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة. ولا يتناسب وصحة المعنى، وجمال التصور الإيماني. وبصورة عامة فإن عرض صورة «الخطيئة» كان غير مطابق للتصور القرآني، مخالفاً لإشراقة النصوص القرآنية.

ولقد زاد عرض «التكفير» الصورة ظلمة وقسوة. فلم تحمل الصورة التي يعرضها الكتاب عظمة الحقائق الإيمانية عن «التكفير»، وترك سلوك حمزة شحاته بكل ما فيه من خطأ وقسوة يوحي إلى القارىء بظلال التكفير. وتتكرر ألفاظ قاسية في ثنايا العرض: «عذاب النفس....، مما هو صفحة من الشقاء البشري المديم... وهذه الصورة الخامسة»[1] فارتبط التصوير كله في ذهن القارىء كأنه حقائق إيمانية.

يقول الدكتور الغذامي وهو يعرض من صور العقوبة والتكفير: «وبذلك يرتكب الإثم ويقترف الخطيئة. مكرراً بذلك صنيع أبيه آدم من قبل. والآثم لابد له من عقاب ولهذا فإن شحاته يكتب على نفسه العقاب فيسجنها في شقة معزولة في

(١) المرجع السابق. (ص: ١٥١).

القاهرة، ويحرم عليها كل متع الحياة. فلا وظيفة ولا زواج. ويمنع عن نفسه حتى الاختلاط بالبشر. . . . . »[١].

«والآثم لا بد له من عقاب. . . . »! لماذا؟! أليس باب التوبة مفتوحاً؟! أليس من الحق والإنصاف أن نعرض حقائق الإسلام بجلائها، وليؤمن بها بعد ذلك من شاء! وجاء هذا التعبير كأنه يوحي بأنه القاعدة الإيمانية الوحيدة، فارتبط سلوك حمزة بالإسلام بإيحاء مباشرٍ وغير مباشر. والاستشهاد بالآيات والأحاديث يقوي هذا الإيحاء.

والعقوبة والتكفير في الإسلام تختلف عن ذلك كلية. فإذا كانت التوبة والاستغفار هي مهمة الإنسان، فإن التكفير هو رحمة الله، هو من عند الله وحده وليس من عند الإنسان. فالله وحده هو الذي يكفر السيئات. وما جاءت كلمة كفَّر أو يكفِّر في كتاب الله إلا مرتبطة باسم الجلالة:

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ﴾ (محمد : ١ ـ ٢)

ولا يزيد دور الإنسان في قضية التكفير عن تنفيذ أمر محدد يأمر به الله سبحانه وتعالى بصدد خطأ محدد. والتكفير في هذه الحالة لا يتجاوز حالات معدودة محدودة.

الخطأ والاستغفار من الإنسان، والتكفير من عند الله. والاستغفار باب واسع غير محدود، والتكفير في نطاق الإنسان محدود. فسلوك (حمزة) وما عاقب به نفسه هو تصور بعيد عن الإيمان وسماحته، وعن التصور القرآني، وأما النفس، وديمومة الشقاء، والدوامة الحتمية، فهي تعابير بعيدة عن آفاق الإسلام وعظمة توجيهه وبنائه. ولا يتسع لنا المجال هنا لنطيل في موضوع الخطيئة والتكفير من حيث النظرة الإيمانية، فنكتفي بهذا القدر الموجز.

من ذلك نرى أن النموذج الذى يعرضه لنا الكتاب عن الخطيئة كان غير موافق

(١) المرجع السابق. (ص: ١١٢).

للتصور القرآني، وكذلك كان التكفير وعرضه. والإسلام يملك ثروة غنية في هذا الموضوع، كما في غيره من الموضوعات، تصلح لأن تكون هي الأساس والقاعدة والنموذج في الفكر والأدب والنقد. وما أكثر حاجتنا اليوم إلى أن تنطلق الطاقات الفكرية المؤمنة، والطاقات الأدبية المؤمنة، لترسي قواعد الإيمان في ذلك كله، حتى يساهم الفكر والأدب في المعركة الشرسة التي تخوضها الأمة، وحتى يساهم الفكر والأدب في بناء الفرد والأمة، وفي رسم النهج وتحقيق الأهداف.

وإننا نخشى أن تتسرب بعض التصورات الإسرائيلية،أو مما يردده النصارى إلى صفاء الفكر الإسلامي والتصور الإيماني. ولذلك حرص كبار علماء الأمة في تاريخها، وكبار المفسرين لكتاب الله، حرصوا جميعهم على بيان الروايات غير المرفوعة إلى رسول الله ﷺ، وإلى البيان بأنه لا يؤخذ بها ولا يعتمد عليها، ولقد أوردنا قول (ابن عطية) في ذلك، وقول (ابن جرير الطبري)، وغيرهما من المفسرين. ولا ننسى أن عذاب النفس في بعض الفلسفات غير الإيمانية يمثل صورة من التكفير، وأن النصارى يدعون بأن صلب عيسى عليه السلام (وهو صلب مزعوم نفاه القرآن الكريم) كان تكفيراً عن ذنوب البشرية.

ينتقل الدكتور الغذامي بعد عرض نموذجه الدلالي لأدب حمزة شحاته، النموذج الذي يقوم على ثنائية (الخطيئة ـ التكفير) وعناصره الستة، ينتقل بعد هذا إلى عرض صورة النموذج في أدب شحاته. يعرض نماذج من شعره ونماذج من رسائله لابنته. ومن خلال ذلك يخرج بنتيجة خاصة وتصور خاص عن الأمانة التي حملها الإنسان. إنه يقول : «فاللغة إذن هي مفتاح الحقيقة وهي ما يميز الإنسان عن الحيوان. فهي إذن الأمانة كما ورد في الآية الكريمة حيث رفضتها الكائنات الكبيرة وخافت منها ولكن الإنسان حملها «إنه كان ظلوماً جهولاً»، وهذه هي جرثومة شحاته التي ظلت تؤرق مضجعه، لأنه وعاها حيث غفل عنها الآخرون، فحمل عنهم شحاته أعباءهم (أخطاءهم)...»[١].

والتعبير «مفتاح الحقيقة» تعبير عام إذا جاز فلا ينسجم مع التعبير الذي يليه

(١) المرجع السابق. (ص: ١٦٠).

: «وهي ما يميز الإنسان عن الحيوان». فاللغة تعبير عام لا يخرج الحيوان من دائرته. وربما امتد إلى الكائنات كلها فالكائنات كلها تسبح الله سبحانه وتعالى بلغة خاصة بكل منها، ولكننا نحن البشر لا نفقه تسبيحهم:

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (الإسراء : ٤٤)

ويتكرر هذا المعنى في آيات أخرى. والحيوانات بصورة خاصة لا تفقد شكلاً من أشكال اللغة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن اللغة ليست هي الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها فحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً. فهنالك آيات أخرى توضح لنا هذه الأمانة الكبيرة. وقد سبق أن عرضنا مهمة الإنسان في الحياة الدنيا، وبينا كيف أن الله سبحانه وتعالى بيّن لنا هذه المهمة من خلال أربع كلمات: **العبادة، الأمانة، الخلافة، عمارة الأرض،** ليقوم ذلك كله من خلال الابتلاء. والكلمات الأربع تعرض مهمة الإنسان في الحياة الدنيا بظلالها المختلفة حتى تتكامل الصورة وتتناسق. فالأمانة هي ممارسة منهاج الله في واقع الحياة الدنيا، هي عبادة الإنسان لربه في كل عمل يصدق به النية، هو عمارة الأرض على أساس من الإيمان والتوحيد، هي خلافة الله في الأرض لتكون كلمة الله هي العليا. وبإيجاز هي الوفاء بجميع وظائف الدين في الحياة الدنيا على أن يتوافر الشرطان: صلاح النية ومطابقة العمل لأمر الله.

وكيف يصح أن تكون اللغة هي الأمانة، وقد أفرغ الحداثيون اللغة من محتواها ومعانيها وجوهرها، وأفقدوا الكلمة وجودها، وألقوا بالقواميس وألغوا «الوجود الجوهري» للكلمة! كيف تكون اللغة هي الأمانة مع هذا الضياع؟! إذن ستضيع الأمانة، ستغيب في العالم الذي دعوا إليه، عالم «الغيبوبة» ستغيب في التيه، في الظلام.

أما الأمانة التي أرادها الله فقد جعلها عبادة وخلافة وعمارة، عملاً يشمل

الحياة الواعية اليقظة، المؤمنة، المجاهدة، التي تخشع وتنيب إلى الله! وبذلك يكون استخدام اللغة، وكذلك استخدام سائر نعم الله، جزءاً من الأمانة، وستظل الكلمة الطاهرة الواعية جزءاً من الأمانة.

والله سبحانه وتعالى بين لنا أن اللغة نعمة من نعم الله على الإنسان، وآية من آياته.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾
(الروم : ٢٢)

وحين نعتبر اللغة هي الأمانة نكون قد خطونا خطوة من «الخطوات» في طريق ضياع الأمانة، في طريق ينتهي بإفراغ الكلمات من معانيها والانطلاق في اللاوعي، اللاحقيقة، اللامحدود.

ينتقل بنا الكاتب بعد ذلك إلى قصيدة: «يا قلب مت ظمأ» ويتحدث عن شاعرية العنوان أو عن عدم شاعريَّته، ثم يقول[1]:

«. . . . فالشعر تحرر لِلُّغة وللإنسان وانعتاق من كل القيود. والشاعر ليس إلا هائماً منطلقاً خارج نفسه وخارج واقعه». ثم يستشهد على قوله هذا استشهاداً خاطئاً بالآية الكريمة.

﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ ﴾
(الشعراء : ٢٢٤ ، ٢٢٥)

هذا الذي خشيناه قبل قليل من ضياع الأمانة كما ذكرنا أعلاه. والاستشهاد بالآية الكريمة لم يكن موفقاً. فالآية تهاجم وتنتقد وتذم ذماً عنيفاً، تذم ذلك النوع من الشعراء. والدكتور الغذامي هو في صدد المدح والثناء والإعجاب. والآية الكريمة تصف نوعاً واحداً من الشعراء، والدكتور الغذامي يطلق وصفه على الشعر كله والشعراء كلهم، فأنى التوافق؟!.

(١) المصدر السابق. (ص: ٢٦١).

إن هؤلاء الشعراء الذين تصفهم الآية الكريمة هم شعراء الكفر والضلالة ولنستمع إلى الآيات كلها في هذا الصدد عن هذا اللون السّيء من الشعراء:

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ (الشعراء : ٢٢١ - ٢٢٦)

فهم إذن شعراء تنزَّل عليهم الشياطين، أفّاكون، آثمون، كاذبون، غاوون..! ثم تمضي الآيات الكريمة لتصف النوع الآخر من الشعراء، شعراء الإيمان والتوحيد، شعراء العقيدة والجهاد، والعمل الصالح والكلمة الطيبة، الذين يذكرون الله كثيراً:

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ (الشعراء : ٢٢٧)

شتّان بين هذين النوعين من الشعراء. وجميع هذه الصفات السيئة التي امتدحها الكتاب عن الشعر والشعراء تتعلق بالصنف الأول، شعراء الشياطين!.

ثم يمضي الكاتب في تحليله فيقول:

«... حتى إذا ما عاد الشاعر من هيامه ورجع إلى وعيه، نطَّ عقله من رأسه لينتهك حرمة القصيدة....»[1] ثم يقول:

«ولذلك فإن حالة الوعي تصبح أسوأ حالات التلقّي للشعر، وأحكامها ظالمة على الشعر، لأنها حالة عقلية ومقاييسها عقلية، والشعر غير عقلي....»[2].

ولابد من أن نقول هنا إن الإسلام يرفض هذا التصور للشعر والنثر ولكل قول، ويعتبره قول الشياطين المفسدين في الأرض. إن الإسلام يعتبر الإنسان محاسباً على كل حركة ولفظة يقولها:

---

(١)،(٢) المرجع السابق. (ص: ٢٦١، ٢٦٢).

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ (ق : ١٨)

ومن القـول ما يكبّ صاحبه في جهنم: « . . . . . **وهل يكبّ الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم**». (رواه الترمذي)[1]

يجب أن ننتبـه إلى أن حالـة الـلاوعي التي يعيشها عدد غير قليل في العالم الإسلامي أوصلتنا إلى ما نحن عليه من ضياع وهوان. وعدونا واع لما يريد، واع لما يفعل، واع لما يقول، فلماذا يَطلبون منا أن نفقد الوعي؟! إلى أين نسير؟!.

يقـول كذلك: «تختلف الحقيقة الشعرية عن الحقيقة الواقعية. فالشعر هو اللاواقع واللاحقيقة، وهذا لا يعني أن الشعر ضد الحقيقة وضد الواقع. . . . ». **ثم يضيف** : «والشعـر تجربـة روحية وهيام من المحـدود إلى المطلق، وكما أنه انعتاق للإنسـان فهـو كذلـك انعتـاق للغـة. فالشـاعـر يأخذ الكلمة ليحررها من قيود السنين. . . . ». **ثم يعيد ويقول** : «إن الشاعر يحرر الكلمة من معانيها مما علق بها من غبار السنين فيطهرها ويغسلها. . . . »[2].

فليسمح لي الكاتب الكريم أن أسأل هل يستطيع هو أن يوفق بين تناقضات التعريف الأول: «الحقيقة الشعرية»، «والشعر هو اللا حقيقة»، «والشعر ليس ضد الحقيقة». الجملة الأولى تقرر وجود الحقيقة الشعرية، والثانيـة تنفيها والثالثة حرب على كليهما. والشعر هيام من المحدود إلى المطلق. فما هو المحدود وما المطلق؟! أرونا شاعراً واحداً هام هذا الهيام دون خدر وسكر.

والشعر انعتاق للإنسان! لا! ثم لا! **إن الإنسان المؤمن لا يحتاج إلى الشعر ليعتقه لأنه** حر، **وهو ليس بعبد إلا لله**. أما غير المؤمن فإنه عبد لأهوائه وأوهامه، فإذا انعتق فإنما ليغيب في وهم أشد، وظلام أشد، وهوى أطغى. أما انعتاق اللغة بالشعر فلم أفهمه. وأربأ بالأخ الكريم أن يكون ما يعنيه هو ما عناه أدونيس في كتابه «مقدمة الشعر العربي»، وكمال أبو ديب في كتابه «جدلية الخفاء والتجلي». والشاعر المسلم

(١) سنن الترمذي: كتاب الإيمان. باب حرمة الصلاة. حديث (٢٦١٦).

(٢) الخطيئة والتكفير. (ص: ٢٦٩).

لا يأخذ الكلمة ليحررها من قيود السنين، ومما علق بها من غبار السنين. إنه يأخذ الكلمة مع تاريخها المجيد، ففي تاريخها رسالة ونبوة ووحي، وفيها قرآن كريم وحديث شريف. وفيها طهارة ووضاءة وشرف! فكيف إذن يطهرها؟ كيف يغسلها؟ وهي كلمة طيبة طاهرة، تعتز بوثبات الإيمان، وعبقريات الجهاد، وجلال التوحيد؟!

إذا حررنا الكلمة من كل معانيها، من كل تاريخها، من كل أمجادها، فماذا يبقى لنا بعد أن نقتل لغتنا. وعدونا يحيي لغة ميتة وأدباً ميتاً، ويبعث في كل حرف حركة وقوة، لتكون سلاحاً له في معركته ضدنا، فكيف نُدّمر نحن أسلحتنا؟! كيف تكون «اللغة» هي «الأمانة» بعد هذا التدمير؟!

يقول (ج. م هايد) في حديثه عن المستقبلية الروسية التي كان يتزعمها (ماياكوفسكى): «إن القضية المركزية لجماليات المستقبلية (الروسية الشيوعية) هي السعي لتطهير الكلمة نفسها من طلاء التراث الأدبي. نجد إحدى الطرائق التي يتم بها ذلك في المقطع الذي كتبه ماياكوفسكي. . . ، أما الطريقة الأخرى فكانت الإصرار على الاستقلال الذاتي للكلمة وللنص الأدبي». ويقول (هايد) كذلك : «يحرر الشاعر الكلمات من شوائب الحدث اليومي ثم يدخلها في البناء المتحرر لنصه».

إذن تحرير الكلمة، تطهيرها، غسلها، ليست فكرة جاد بها كُتّابنا أو المؤلفون عندنا، ولكنها ألفاظ المستقبلية الروسية، ونهج حداثتها. وهي نهج ممتد في جميع حركات الحداثة. ونحن نُقلِّد تقليداً وننقل نقلاً، نقلّد في شر، وننقل شرّاً.

إلى جميع أدباء العالم الإسلامي، إلى جميع كتابه، إلى جميع مفكريه، أمسكوا باللغة العربية ومعانيها وتاريخها في النثر والشعر وفي كل مقال، واعية، طاهرة، غنية! ولا تغيبوها في تيه فيغيبكم الله في تيه أشد.

لسنا بحاجة إلى حالة الهيام، ولا إلى الانعتاق من المحدود إلى المطلق، ولا إلى محاولة تحرير الكلمة، فالكلمة حرة عزيزة، ولكن هل نحن أحرار؟! إن المؤمن عزيز حر غني، وإن الإيمان والتوحيد هو مصدر قوتنا وحريتنا وغنانا. . . . !

فلنكن مؤمنين بإذن الله، والله ولي المؤمنين.

وكلمة (شِعْر) في اللغة العربية : من فعل شَعَرَ، ومعناها : عِلَمَ به، وفطن له، وعَقَلَهُ. فالشِّعر مرتبط بالوعي والفطنة والوعي والعقل، بعيدة كل البعد عن اللاوعي إلا إذا غاب الإنسان عن الحقيقة والحق، واتبع الباطل والغاوين.

نسأل الله أن يجعل شعراءنا واعين غير مخدرين، صاحين غير غافين، مؤمنين غير جاهلين ولا ظالمين. والحمد لله رب العالمين.

ثم يقول: «وليس غريباً أن يتمَّ ذلك على يدي الشاعر، فالشاعر حامِل روح البشرية، وهو بحساسيته المفرطة يرتقي فوق كل قيود الواقع وأسواره، ليحلق في فضاء الله المطلق، ومعه تسبح الكلمات التي تنتظر القارىء ليسبح معها. فتأخذ اللغة في تحقيق دورها في حياة الإنسان فتصبح هي وجوده وهي حرِّيته من كل قيود المادة. وهذا هو (سحر البيان) وهو الكلمة التي اختارها الله لتحمل معجزته إلينا»[1].

إنها صورة مضطربة واستشهاد غير موفق! لقد كان أحرى بالكاتب الكريم أن يجعل كلمات الرسول ﷺ (سحر البيان)، وكلمات الإيمان والقرآن (تُسبِّح) بعيدة عن هذه التصـورّات الغائبة، التصورات البعيدة، في كلمات لا تجد لها معنى محددا: «فالشاعر حامل روح البشرية»! لماذا؟! ولماذا يفرض علينا الكاتب هذه الجملة تنسلُّ من خلال تعابير انسلالاً خفياً مع كلمات تغيب بنا: «يرتفع فوق كل قيود الواقع. . .»! كيف؟! «ليحلق في فضاء الله المطلق. . .» كلمات مبهمة عامة ولكنها تحمل بريق الألفاظ ونعومة التيه، فيحسب الإنسان نفسه لأول وهلة أنه شُدَّ إليها وفهم شيئاً، ثم يعود ليرى كفَّيه فارغتين، لم ينلْ شيئاً! لو أبعد الكاتب هذه الكلمات الإيمانية: سحر البيان، التسبيح، حتى تظل في جلالها وعظمتها، لتظل هي تعابير الإيمان لا تعابير الشعر. وهذا هو (سحر البيان): : : : ! فهل أصبح النبيُّ شاعراً كما جعله أدونيس حين قال: «. . . . هذا ما يعطي لهذه الغنائية نَفَس النبوّة»! وسيرد التعليق على كلمة الرسول ﷺ في مكان آخر، في الفصل الثاني من الباب الثالث:

---

(١) المرجع السابق. (ص: ٢٧٠).

الشعر بين البنيوية والشاعرية.

هذه الصورة التي يقدمها الكاتب وهي شبيهة بالصورة التي يقدمها أدونيس في كتابه مقدمة في الشعر العربي، لا تمثل في واقع الإنسان، إلا وهماً يدفعونه إلينا حتى تختلط علينا المعاني والحقائق. ولكن ليطمئن جميع الحداثيين إلى أنَّ المؤمن الذي ثبَّته الله يعلم من هو الشاعر، ويعلم ما هي النبوَّة، وقد هداه الله وحماه.

ويصرّ الكاتب على جعل النبوّة شاعرية، وكلامها شعراً. يصرّ في هذا الموقع من الكتاب أو ذاك، بأسلوب ناعم ينسلّ انسلالاً لا تكاد تحسّ به مع ألفاظ هائجة مائجة مثيرة، قد تعطل عندك قدرة التأمل والتدقيق.

فعندما يروي حديث الرسول ﷺ إلى عمه أبي طالب: «**والله، يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت، حتى يظهره الله أو أموت دونه**»، وعندما يسمى الرسول ﷺ **قائد البشرية الكامل** دون أن يسميه نبيّاً ورسولاً، وعندما يدخل لفظة «صلى الله عليه وسلم» مع كلامه، عندما يقول هذا كله، يعقب على كلامه فيقول: «هكذا تتحول الفلسفة إلى شعر، والعقلانية إلى زخم عاطفي تتفجر كلماته بين السطور»[1]. لماذا تتحول الفلسفة إلى شعر، وكلام الرسول ﷺ خالٍ من الفلسفة خال من الشعر. من أين أتى الشعر على لسان الرسول النبيّ الأُمي الذي قال عنه سبحانه وتعالى:

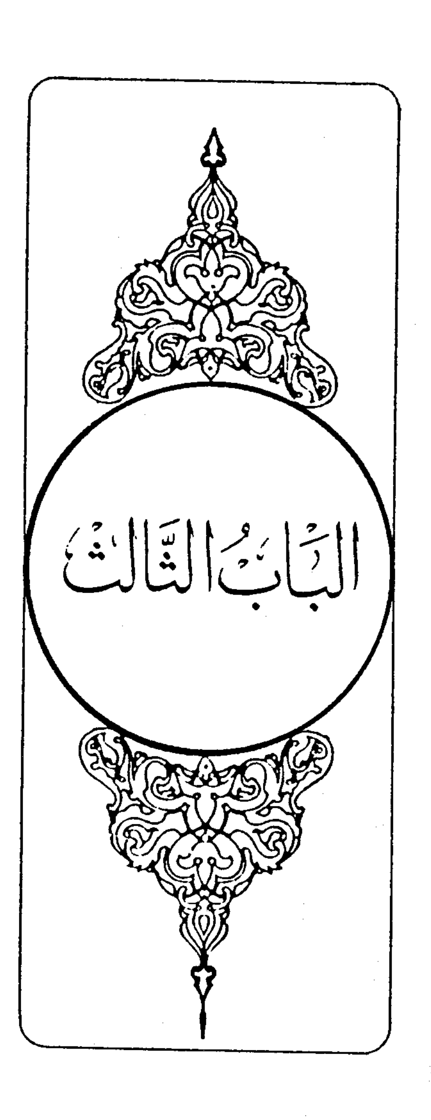
﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ ﴾ (يس: ٦٩)

ولماذا تتحول العقلانية إلى زخم عاطفي تتفجر الكلمات بين السطور؟! لماذا لا تبقى العقلانية وتبقى العاطفة في لحظة واحدة؟!. مغالطة وتناقض......!

إنها النبوة فحسب! إنها تحمل أعلى صفات الإنسان، حتى تتهيأ لتتلقى الوحي الكريم من عند الله.

---

(١) المرجع السابق. (ص: ٢٠٥).



الحداثة بين الشعر والنثر

الفصل الأول

ملامح فاصلة بين النثر والشعر

ما زال الشعر في تاريخ جميع الشعوب يحتل الدور البارز في الدراسات الأدبية والنقدية، وقد تتحول بعض الدراسات الأدبية حتى تشعر معها أن الأدب هو الشعر، وأن الشعر هو الأدب، وكم دار خلاف حول تفضيل الشعر على النثر أو النثر على الشعر. ومنهم من اعتبر الشعر أسبق في حياة الإنسان من النثر.

وعندما نتحدث عن تطور المذاهب الأدبية في أوروبا ابتداء من الكلاسيكية حتى «حداثة» اليوم، نرى أن المذهبية تكاد تدور حول الشعر والشعراء. وعندما يتحدث بعضهم عن الفن في الأدب فأول الأمثلة التي يسوقونها تدور حول الشعر.

لا شك أن الشعر قديم في حياة الإنسان، وليست قضيتنا هنا أيهما أسبق الشعر أم النثر أو أيهما أفضل. فنحن نكتفي بالقول إن النثر والشعر شكلان للتعبير مختلفان، وهما شكلان معروفان لدى الإنسان في مختلف عصوره وأقطاره.

وفي هذه الكلمة العاجلة لا أهدف إلى استعراض تاريخ النظرية الشعرية منذ اليونان إلى يومنا هذا، ولكن هناك نقاط لا بّد من إثارتها.

١ - تميز اللغة العربية :

ليس من الضروري أن نعتبر أن ما قاله الغرب عن الشعر ونظرياته يجب أن ينطبق على اللغة العربية، وعلى شعرائها وأدبائها. فاللغة العربية نفسها متميزة عن تلك اللغات الأوروبية تميزاً جذرياً ظاهراً. تتميز بتاريخها وقواعدها وأوزان شعرها وطبيعة قوافيه. والشعر الغربي نشأ في بيئة مقطوعة الصلة عن التوحيد، غارقة، تائهة بالكفر الصريح والوثنية. وخرجت الفلسفة والآداب، ومعها الشعر، من هذه الأجواء المضطربة، وظلت في نموها وتطورها ثمرة أجواء مضطربة هائجة، حتى كأن

كل نظرية هي رد فعل مباشر لنظرية جزئية سابقة. وفي حمى هذا الاضطراب والهوى كانوا يعتبرون النظرية الجزئية كأنها شاملة لجميع نواحي الحياة، حتى يظهر عجزها وإفلاسها، وحتى يثور الناس عليها. وأما اللغة العربية وأصولها فقد نمت في كل تاريخها الطويل في مرابع الوحي وأنوار النبوة وطهارة الإيمان، وعزة التوحيد، وما كان الشرك إلا انحرافاً عن أصل مشرق ظلت أنواره تسري بين ثنايا الظلام، وظل التاريخ الأكبر هو تاريخ النبوة والوحي والرسالة. في أحضان هذه الأرض الواسعة نمت اللغة العربية نمواً طبيعياً على سنن أرادها الله في الحياة الدنيا. نمت اللغة العربية حتى نضجت واكتملت فاختارها الله على علم لغة قرآنه وبيان رسالته وإشراق هديه. ولذلك كان أجدر بنا أن نبحث في ذاتنا، في تاريخنا، في ديننا وعقيدتنا، حتى نضع نحن نظريات الشعر والأدب، ليقتفي العالم كله أثرنا ويتعلم منا. لا بأس أن تتبادل الشعوب تجاربها وعلومها، ولكن شتان بين التبادل والتبعية، شتان بين تعارف القوي مع القوي وتبعية الضعيف الواهي للقوي. ولقد فتح الله لنا جميع الأبواب حتى نكون أقوياء، وهبنا أعز موقع في الأرض، وأغنى ثروة لدى الشعوب، وأعظم عدد بين الأمم، ووهبنا الدين الحنيف، وأجمل وأكمل لغة عرفها الإنسان.

وفي كل باب من أبواب اللغة العربية نلمس تميز اللغة العربية عن سائر لغات الأرض، وعظمتها وسموها وشرفها، لفظاً ومعنى وجرساً وظلالاً. وخير ما نأخذ منه أمثلة سريعة هو كتاب الله حيث تجد الإعجاز، ومن جوانب الإعجاز هو إعجاز اللغة التي جعلها الله تلين لإعجاز المعاني والكلمات والجرس. في كل آية من كتاب الله نجد مثلا على ذلك. وهنا نأخذ قبسات سريعة للدلالة العاجلة:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الروم : ٢١)

في كل كلمة نجد إعجازاً لا تستطيع اللغات الأخرى بلوغه. فكلمة «آية» تترجم في اللغة الإنجليزية (Sign) وشتان بين اللفظتين، وتظل الكلمة الإنجليزية مقصرة

عن بلوغ معاني وظلال كلمة «آية». وكذلك: (من أنفسكم)، وترجمتها (From you). وكذلك: «أزواجاً لتسكنوا إليها»، فإن من أفضل الترجمات لها: (Mates dwell in tranquil- ity with them). ما أعظم الفرق بين كلمة «تسكنوا إليها» وبين الكلمة الإنجليزية. إن الكلمة العربية تحمل في ذاتها معاني وظلالاً وجرساً، فتتناسق هذه كلها من خلال تاريخ طويل، نضجت خلاله اللغة حتى بلغت أعلى مراتبها، فنزل بها القرآن الكريم وحياً لا عوج به:

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الزمر : ٢٨)

وكلمة «الرحمة» تجدها في الترجمة حينا Mercy وحيناً Kindness، وهي في الحقيقة تحمل مثل غيرها معاني وظلالاً لا تكاد لفظة واحدة في اللغات الأخرى تعدلها. إنك تحتاج إلى جمل منتقاة حتى تقترب من معنى هذه الكلمة أو تلك. ونورد هنا كلمات من اللغة العربية وردت في كتاب الله على مثل هذا الإعجاز لا تجد ترجمة موفقة لها في اللغات الأخرى، نسوقها قبسات لا على سبيل الحصر: **«التي جعل الله لكم قياماً، الخبيث والطيب، الإحسان، الدين، أمة، قولاً معروفاً، الأوابون، التقوى والمتقين، الساعة، عَرَضَ هذا الأدنى، سنستدرجهم، وأملي لهم، إمام، عاكفين. . . إلخ»**. كلمات لا تكاد تحصرها.

ولا يقف تميُّز اللغة العربية عند الكلمات والألفاظ، ولكنه يمتد إلى الصياغة والتركيب حيث تلتقي الكلمات وتتشابك الظلال والمعاني، ويتناسق الجرس واللحن، على صورة متميزة بالجمال والمتعة الممتدة، لا تجدها في أي لغة أخرى.

ويمتد التميز كذلك حين تتسع الصياغة لتجمع جملة إلى جملة، أو فقرة إلى فقرة، لتستكمل اللوحة الفنية أجزاءها وألوانها.

إننا نشير هنا إشارة. ولكن علماء البيان واللغة في تاريخنا الطويل أفاضوا في شرح عبقرية اللغة العربية، وبيان قواعد بلاغتها، وقواعد نحوها وصرفها.

ولقد كنت أشعر في حياتي أن من أهم العلوم التي وصل إليها الإنسان والتي تكشف

عن «جمـال» عبقـري وآيات بينـات في العلوم : الرياضيات واللغة العربية، حيث تنبع الرياضيات من سنن الله في الكون، وتنبع اللغة العربية من سنن الله في الإنسان، ينبع هذا وذاك دون كدرٍ، ينبع صافياً غنياً، يلتقي جمال مع جمال. في كل العلوم الصادقة التي وصل لها الإنسان جمال، ولكن جمال هذين العلمين أعلى وأصفى وأغنى، أو هما النبعان اللذان يمدان سائر علوم الإنسان بالجمال والصفاء. وهذا رأي اجتهادي، فلا عجب إذن، مع هذا التميز للغة العربية في أن تتميز بقواعدها ومقاييسها وشعرها ونثرها.

ولذلك فالشعر العربي لا يستطيع أن يخضع لما يضعه أهل الغرب من قواعد لتطور شعرهم، لاختلاف طبيعة اللغة واختلاف مقاييسها. وكذلك النثر، والأدب بصورة عامة. إلا أن يكون ما يضعه «الغرب» يمثل قانوناً مطلقاً. والقانون المطلق الحق لا يأتي إلا من عند الله. فكيف إذن نخضع شعرنا العربي لنظرياتهم اذا كان ما يضعه الغرب لا يصلح حتى في لغاتهم، وما يزال موضع خلاف، كما كانت المذاهب الأدبية والفكرية في أوروبا في تاريخها الطويل موضع خلاف ونزاع، وكل مذهب يكاد يهدم ما قبله.

ولكننا لا ننفي وجود ثوابت في حياة الإنسان، حتى يقوم جهده وسعيه منطلقاً مع هذه الثوابت التي يراها ثابتة في حياته الدنيا، يعتمد عليها ما دام ثباتها صالحا له. فإذا ظهر له تغيرها انطلق في سعي جديد ليضع فيه ثابتاً جديداً يعتمده. والله سبحانه وتعالى اختار اللغة العربية لغة الوحي والرسالة والقرآن، لغة الإنسان، وتعهد بحفظها، فهي لغة الذكر الذي تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظه. فإن أردنا أن نبحث عن ثوابت، فإن اللغة العربية أقرب لمثل هذا العطاء وأغنى فيه.

وأمر آخر، فإن اللغة العربية، أدبها، نثرها وشعرها، لا يستطيع أن يخضع مستسلماً لقواعد اللغات الأجنبية وما يطرأ عليها من شيء يسميه أهلها أو بعض أهلها تطوراً، ذلك لاختـلاف مهمـة ووظيفـة اللغة العربية في الحياة، عن مهمة اللغات الأخرى. فاللغة العربية تحمل معها شرف الرسالة وعظمة الأهداف. تحمل اللغة العربية شرف صدق العبـادة لله الـواحـد الأحد، وتحمل شرف بناء الإنسان المؤمن، بناء قلبه ونفسه وفكره وسلوكه، تحمل شرف الامتداد مع الحياة الطاهرة المؤمنة حتى تقوم الساعة، تحمل شرف

الجهاد في سبيل الله حتى تكون كلمة الله هي العليا. ولذلك ظلت اللغة العربية عزيزة قوية تمتد في حياة الشعوب سواء أكان المسلمون منتصرين أم مغلوبين. فهي في الحقيقة لغة الإنسان، تتناسق مع فطرة الإنسان، مع فطرة الإيمان والتوحيد، حتى نبغ من علمائها عدد غير قليل من الشعوب المختلفة في الأرض الإسلامية الممتدة.

لذلك كانت اللغة العربية لغة البيان والدقة والوضوح. فكيف يرضى أدبها أن يكون أدب الغموض والظلام والتيه؟! كيف نقبل أن تنمحي المعاني، وتلغى القواميس، ويمسح التاريخ من الكلمة والجملة والنص؟. وكيف يدعى لمثل هذا في العالم الإسلامي وأرض العرب، باسم الحداثة؟!

والإنسان يحتاج النثر والشعر. فلا فضل لأحدهما على الآخر إلا أن النثر حمل الرسالة والنبوة وبيانها. **والنثر هو بيان الناس كافة، والشعر بيان الموهبة التي يضعها الله فيمن يشاء** من عباده. وليس كل نثر أدباً، ولا كل نظم أدباً. ولابد من أن يكون لنا تصور واضح محدد للأدب حتى نستطيع أن نحكم على هذا النص أنه أدب أو غير أدب.

٢ - من ملامح الأدب:

فالأدب فنٌ من الفنون. بل هو أشرف الفنون كلها، وأوسعها، وأقربها للإنسان، وأكثرها امتداداً في ماضيه وحاضره ومستقبله. ولقد عرَّفنا الفن والأدب في كتاب **«الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته»**.

وعرّفنا الفن بأنه: أسلوب التعبير حين يرتقي فيضم عناصره الأساسية التي تهبه الجمال وقوة التأثير، ليساهم هذا الفن في بناء حضارة إيمانية طاهرة وحياة إنسانية نظيفة خاضعة لمنهاج الله قرآنا وسنة. ولكل فن عناصره الأساسية الخاصة به، والتي تهبه الجمال وقوة التأثير، وتنشأ العناصر الأساسية من وسيلة التعبير، ومن الإنسان ومن الحياة والواقع، والعقيدة.

والأدب: هو الفن الذي يستخدم اللغة وسيلة للتعبير، فله عناصره المميزة التي تهب التعبير الجمال وقوة التأثير، وترفعه إلى مستوى يستحق عندها أن يسمى أدبا. والفن عامة، والأدب خاصة، هو الثمرة وومضة التفاعل بين الفكر والعاطفة

في فطرة الإنسـان، ومضة تطلقها الموهبة المودعة في الفطرة في لحظة زمنية معينة، تجتمع فيها لدى الإنسان شحنات من العاطفة وأخرى من الفكر، تنمو من خلال التجارب والأحداث في الحياة، حتى تشعل الموهبة تلك الومضة بين الشحنتين، تطلقهـا تعبـيراً لغوياً، يحمل عناصره التي تهبه الجمال وقوة التأثير. وتظل الموهبة، والعاطفة والفكر، ترتوي رياً دائماً من العقيدة والإيمان، حتى يأتلق الجمال وهو يرتبط صادقاً مع حقائق الحياة والكون والإنسان، دون زخرف كاذب أو فتنة مضلة. فلا يخرج الفن الصـادق، ولا الأدب الصـادق وهـو خالٍ من العاطفة، أو خالٍ من الفكـر، أو خالٍ من الموهبة، فلابد من قدر من هذه الطاقة وتلك، حتى تحدث الومضة فيخرج الفن أو الأدب، في لحظة ما من الزمن[1]. يخرج خاضعاً لمنهاج الله قرآناً وسنَّة، ليحدد النيّة ويرسم الدرب، ويحدد الأهداف.

٢ ـ جمال في النثر وجمال في الشعر ونماذج منهما :

والشعر باب من أبواب الأدب وضرب من ضروبه. فلا بد أن يكون ثمرة موهبة أودعها الله في فطرة عبد من عباده. ولابد من أن يحمل العناصر الأدبية التي تميزه من النثر الأدبي. ولابد للشعر من أن يحمل خصائصه التي ترفعه إلى المستوى الأدبي، ولابد للنثر كذلك من أن يكون ثمرة موهبة حتى يكون أدباً، ولابد من أن يحمل خصائصه الأدبية مع الموهبة.

ويجب أن نُقرِّر هنا حقيقة أساسية بين الشعر والنثر. فكلاهما يمكن أن يحمل نبضة الوجدان وعظمة الفكر، وكلاهما يمكن أن يحمل جمال الصورة وحلاوة البيان والبلاغة، ولطافة «التخييل» ودفقة الشعور وما يسميه بعضهم «بالشاعرية». إن أيَّ معنى تريده يمكن لك أن تصوغه نثراً، أو تصوغه شعراً، وإن أيَّ صورة وحركة يمكن أن ترسمها نثراً أو ترسمها شعراً، وستظل تلمس دفقة «الشعور» تتوافر في النثر أو في الشعر. لا يوجد في «الشعر» في اللغة العربية معنى أو صورة أو حركة أو دفقة شعور يعجز عنها النثر. وكل ما هو في الشعر مفتوح للنثر، حق له أن يتناوله ويعرضه.

(١) الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته. (ص: ٦١ ـ ٧٧).

والفرق الرئيسي بين النثر والشعر أن لكل منهما حلاوة وجمالاً خاصاً به، حيث يمتد الجمال هنا في الصياغة النثرية دون أن تفقد حلاوة العاطفة وجمال الإحساس والشعور، ويمتد الجمال هناك في الصياغة الشعرية في الوزن والقافية، ويبقى لهذا جماله ولهذا جماله.

وإن أعظم ما عرفته الدنيا من جمال الأدب، جمال يحمل عبقرية الصورة، وسمو البيان، وجمال العاطفة والشعور، وجلال الفكر، وإعجاز البناء، إن أعظم ما عرفته الدنيا من أدب يحمل ذلك كله هو القرآن الكريم. ولقد جاء القرآن الكريم يعرض ذلك كله نثراً، وحياً من عند الله. ولا يقارن هذا الوحي بأي جهد بشري في ميدان الفكر والأدب، ولكنه يظل هناك في منزلته السامقة نتطلع إليه، نقبس من جلالـه ونوره، ونستضي به في ما نبذل ونعطي، ويظل كذلك هو الذي يضع لنا القـواعد والنهج، للناس كلهم، للبشرية كلها، أجناسها ولغاتها، هي تخضع له ولنهجه، ولا يخضع هو لمناهجها. منه يمكن أن نضع القواعد الأعم والمناهج الأوسع في هذا الميدان وذاك.

وإننا لنجد في أدب اللغة العربية نماذج لا تكاد تقع تحت حصر، أقر جميع الأدبـاء، وأقر واضعوها بأنها نثر، ولكنها حملت معها جمال المعنى وحلاوة المبنى، وحققت الصورة والحركة، ودفقة العاطفة، ورقة الشعور، وغناء الفكر، وذلك كله ما انتزعها من دنيا النثر إلى دنيا الشعر. وإننا نأخذ هنا نماذج وأمثلة تعيننا على معرفة حلاوة النثر وجمال الشعر، لنرى بعد ذلك أين يكون ما يسمونه بالشعر الحديث.

*** نأخذ فقرات من خطبة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه:**

«. . . أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرأوا القرآن فأحكموه، وهيجوا إلى القتال فوَلِهوا ولَهَ اللقاح إلى أولادها، وسلُّوا السيوف أغمادها، وأخذوا بأطـراف الأرضِ زحفـاً زحفاً، وصفّاً صفّاً: بعض هلك وبعض نجا، لا يُبَشَّرُنَّ بالأحياء ولا يُعزُّون بالموتى، مُرهُ العيون من البكاء، خُمَّصُ البطون من الصيام، ذُبَّلُ الشفاه من الدعاء، صفر الألوان من السهر، على وجوههـم غبرة الخاشعين».

حلاوة معنى ودفقة عاطفة وجلال فكر، على جرس غني، لا يمكن للشعر الحديث أن يبلغ منه شيئاً. هذه هي اللغة العربية، وهذا نثرها، وانظر إلى دقة الصياغة وعظمة الحركة والصورة: «وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً، وصفاً صفاً».

*** واسمع عظمة المعنى في جمال الصياغة في صدق العاطفة وصفاء الفكر في خطبة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه:**

«أيها الناس! إنه لم يبلغ ذو حق في حَقِّه أن يطاع في معصية الله، وإنى لا أجد هذا المال يصلحه إلا خلال ثلاث، أن يؤخذ بالحق، ويعطي في الحق، ويمنع من الباطل. وإنما أنا وما لكم كولي اليتيم، إن استغنيتُ استعففتُ، وإن افتقرت أكلتُ بالمعروف. ولست أدع أحداً يظلم أحداً ويعتدي عليه، حتى أضع خده على الأرض وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يُذعن للحق».

ثم يقول:

«... وقد اقترب منكم زمان قليل الأمناء كثير القراء، قليل الفقهاء كثير الأمل، يعمل فيه أقوام للآخرة يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها كما تأكل النار الحطب، ألا كل من أدرك ذلك منكم فليتّق الله ربه وليصبر».

مع كل كلمة نتعلم أدباً، وحِكَماً، وحُكْماً. صور وحركة، ونغمة وجرس، وروعة وجلال. إنه جلال كلمة الحق.

* ومع الحسن البصري: نسمع الجرس الغني، ونقرأ الكلمة الأمينة، ونرى الصورة الحية، في صياغة فنية وموهبة زكية، يصف الإمام العادل فيقول:

«اعلم يا أمير المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف...».

كل كلمة في موقعها جوهرة، وكل جوهرة، مع أخواتها عقد منظوم.

واسمع إليه يصف المؤمن:

«هيهات هيهات، أهلك الناس الأماني، قول بلا عمل، ومعرفة بغير صبر، وإيمان بلا يقين. إنما دين أحدهم لعقة على لسانه، إذا سئل أمؤمن أنت بيوم الحساب؟ قال: نعم! كذب ومالك يوم الدين. إن من أخلاق المؤمن قوة في دين وحزما في لين، وإيمانا في يقين».

*** ومن رسالة لابن العميد بعث بها (لابن بلكا) عند استعصائه على ركن الدولة**، يقول فيها: «. . . . . فنشدتك الله لما صدقت عما سألتك! كيف وجدتَ ما زُلْتَ عنه؟ وكيف تجد ما صرت إليه؟ ألم تكن من الأوّل في ظلّ ظليل ونسيم عليل، وريح بليل، وهواء غذيّ، وماء رويّ، ومهادٍ وطيّ، وكن كنين، ومكان مكين، وحصن حصين، يقيك المتالف، ويؤمنك المخاوف. . . .»

جمل تتوالى على سامعها طرقات تطرق القلب، وتبعث الأسى والندم، وتثير الحسرة والعبرة. مقاطع قصيرة، كأنها مطارق ودويّ! . . وبميزان الشعر الحديث هو من أعلى الشعر وأصفاه وأغناه، وبميزان اللغة العربية هو نثر، كأنه حلي منثورة!

*** ويصف الصاحب بن عباد البحر في رسالته إلى ابن العميد وصفاً يأخذ منك بمجامع نفسك. فاسمعه يقول:**

«. . . بِوَصْفِ ما شاهد من عجائبه، وعاين من مراكبه، ورأى من طاعة آلاته للرياح كيف أرادتها، واستجابة أدواتها لها متى نادتها، وركوب الناس أثباجها، والخوف بمرأى ومسمع، والمنون بمرقب ومطلع، والدهر بين أخذ وترك، والأرواح بين نجاة وهلك. إذا فكروا في المكاسب الخطيرة هان عليهم الخطر، وإذا لاحت لهم غُرر المطالب الكثيرة حُبِّبَ إليهم الغَرَر».

ما أدق الوصف لصراع النفس بين مطمع الدنيا وزواحف الهلاك. وانظر إلى جمال الوصف الأخّاذ، مع جمال الإيجاز: «والخوف بمرأى ومسمع، والمنون بمرقب ومطلع». . ويظل هذا الجمال هو جمال النثر، لا ينقله جماله إلى الشعر في اللغة

العربية .

*** ويـرسم لنا بدوي الجبل صوراً حية تتحرك، وينثر عبقاً وعطراً، وهو يرثي علي رضا النحوي :**

« . . . . هذه الغوطة الخضراء تحنو بعطور أورادها، وعطور أمجادها، وبالعبق من كبريائها، وبالوهج من دم شهدائها، على قَبْرِكَ أيها النازح الشهيد. فتكاد وأنت وديعة الثرى، ورهن الردى، تنهل الشذا كما تنهل الريحانة الندى!

لشدَّ ما تستوحش هذه القبور، هي في مكان، وطيوفها وذكرياتها في مكان. وواحسرتاه لها! إنها صامتة كئيبة، ولكنها في صمتها تتكلم، لأنها تتألم، وواحسرتاه لقـبرك بينهـا! إنـه يطوي جوانحـه على أرفع لهفة لأرفع وطن! حتى القبور تبكي وتستوحش وتتغرَّب .

عالم القبـور هو الـدنيا التي ينـوِّر بها بياني ووجـداني، وتنـدي بها سريرتي وأريحيتي. أما عالم الناس فأنا غريب عنه وهو غريب عني. كلما طعنني الغدر فررت بدمائي وأشلائي إلى القبور الحبيبة أناجيها وتناجيني! .

تلك قبـور آبـائك وأجدادك، تفتش عن قبرك في ثرى الوطن الصغير، فوا حنين الرفات إلى الرفات، ويا شوق القبور إلى القبور!

كل مساجعة على الدوح حنين إليك وحنان عليك! وكل نسمة حانية وانية» .

مع هذه النصوص نرى عظمة البيان، وعظمة المعنى والمبنى، وجمال الصورة والتخييل، والحس والشعور، والفكر والرأي. كأن أمامك صورة تتحرك، وأنغاماً حلوة تتناسق. إن هذا هو النثر في اللغة العربية، وهذا جماله وسحره، وهذا شذاه وعطره.

ومـع هذا الأدب الصـادق الـذي عرضناه، **نعرض الآن نماذج من الشعر الحديث، نماذج أتعب الدكتور كمال أبو ديب** نفسه وأتعبنا معه وهو يحاول أن ينبش ما يظنه شعراً أو بلاغة أو معنى .

* **أدونيس**، عرفنا له في الصفحات السابقة مقاطع مما يسميه قصيدة «الدهشة الأخيرة» يقول:

«ألبس الدهشة الأخيرة
في جناح الفراشة
خلف حصن السنابل والضوء في موطن الهشاشة».

لا أعلِّق عليها بشيء إلا بكلمات قليلة: هكذا تقتل الكلمات، وتموت الشاعرية، وينطفىء النثر والشعر. أي شيء أقتل للغة من ذلك.

* وينتفض الشيطان، وتنتفض الشياطين لتصرخ على لسان **صلاح عبد الصبور** بهتاناً وضلالاً:

«ملاحنا ينتف شعر الذقن في جنون، يدعو إله النقمة المخبون، أن يلين قلبه ولا يلين. ينشد أبناؤه وأهله الأدنون، والوسادة التي لوى عليها فخذ زوجه...» **ويتابع كلاماً نستحي أن نعيده....!**

وأمل دنقل: يمضي مع الحداثيين في قتل اللغة، وسوء التعبير والصورة، فيقول:

«كان ترام الرمل
منبعجاً كامرأة في أخريات الحمل
وكنت في الشارع
أرى شتاء الغضب الساطع».

وله كذلك: «في دقَّة بائعة الألبان تتوقف في فكي فرشاة الأسنان...».

هذه نماذج من الشعر الحديث، ومن أدب الحداثة، **نماذج مما يمكن نشره على استحياء، وعلى خوف من الله**. ليقارن القارىء الكريم صياغة بصياغة، وكلمة بكلمة، ومعنى بمعنى، وصورة بصورة، فما نقرأه هنا من أدب الحداثة يرفضه النثر الأدبي، يرفضه الجمال الفنّي، يرفضه الذوق ويمجّه، ويأباه الحس، ويتنكر له

الفكر. ومع هذا يتولاه بعض الناس ليسموه أدباً.

أما النصوص الأدبية الصادقة التي عرضناها في الصفحات السابقة : يشعر القارىء معها بحلاوة المعنى والمبنى، وجمال النغمة والجرس، وطهارة الكلمة والصورة والحس. يشعر القارىء معها بالوضاءة والطهارة، والمتعة في جمال العاطفة وجلال الفكر.

ومع هذا كله تبقى النصوص التي عرضناها نثراً، لا يستطيع جمالها الفني مهما سما أن ينقلها إلى الشعر، فجمالها هو جمال خاص بالنثر، له صياغته، وسبكه، وجرسه ونغمته، له جماله الفني المتميز، جمال متميز بالنثر، تساهم الصياغة في إبرازه، ويساهم أسلوبه وكلمته في عرضه وجلائه، يعرض هذا كله صوره وحركته، ومعانيه ومبانيه، وعاطفته وفكره، مع نغم خاص وجرس متميز، لا يصبح معه شعراً أبداً حتى لو حمل هنا تفعيلة وهناك تفعيلة، لا يصبح شعراً أبداً.

أما الشعر : فله جماله الفني المتميز أيضاً. إنه يحمل الصورة والحركة، ويحمل العاطفة والفكر، ويحمل كل ما يحمله النثر إلا الصياغة، فللنثر صياغته، وللشعر صياغته. وصياغة الشعر تضيف اللون الخاص من الجمال حتى يبرز الجمال الشعري المتميز عن جمال النثر. إن الصياغة الشعرية تفرض على الشاعر صاحب الموهبة أن يختار ألفاظاً تتناسب والصياغة الشعرية، وتفرض أسلوب التعبير والتركيب حتى تتناسق الكلمات على جرس خاص متميز بالشعر، جرس خاص له حلاوته الخاصة، تختلف عن تلك التي في النثر. إن الأوزان الشعرية والقافية لا تشكل في الأدب قيوداً إلا على أحد رجلين : **رجل فاقد للموهبة الشعرية، أو رجل جاهل باللغة العربية،** فكلاهما يشعر بالضرورة الخانقة حتى يتفلت من الأوزان والقوافي، ليدفع كلاماً تحرر من كل القيود، وأفلت لجهله وضعفه العنان، ليضرب في فلاة مظلمة، وليحاول دفعنا معه إليها.

أما الموهبة الصادقة : فإنها تدفع لك الكلام الموزون وإن لم تدرس العروض

به ولا عرفت الأوزان، ولا تفعيلاتها، ولا بحورها. ولكن الشعر يخرج منها موزونا مقفى يحمل حلاوة الشعر وصياغته، تدفعه الموهبة، ثم تصقله علوم وثقافه وتجارب وأحداث، تزيد من قوة الومضة وامتدادها وأثرها. كذلك كان شعراء العربية في الماضي، ينطلق منهم الشعر موزوناً مقفى دون معرفة بالتفعيلات والعروض وقواعده. وما زلنا حتى اليوم نجد الشعراء الذين لا يعرفون العروض وعلومه يتدفق منهم الشعر على أوزانه المختلفة، سجية، وبداهة وموهبة.

ومن حقنا ان نستمتع قليلا بالشعر الصادق، بالشعر الموزون المقفّى، يحمل الشاعرية المجنحة، والصورة والحركة، والنغمة والجرس، يحمل ذلك كله صياغة شعرية متميزة، حتى يلمس الذوق الأدبي جمالاً متميزاً في النثر، وجمالاً متميزاً في الشعر، ويدرك أن لكل شكل من الشكلين جماله الفنّي الأدبي المتميز عن الآخر، وأن جمال الحركة والصورة والشعور، والجرس الموسيقى، واللفتة، وقوة السبك، كل ذلك لا يحِّول هذا الشكل إلى الآخر، ولا ينَزع شعراً أو نثراً من روضه وبستانه وجنانه.

* يقول النابغة الجعدي :

وَلا خَيْرَ في حِلْمٍ إذا لَمْ يَكُنْ لَه بَوادِرُ تَحْمي صَفْوَه أنْ يُكَدَّرَا
وَلا خَيرَ في جَهْلٍ إذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَليمٌ إذا ما أوْرَدَ الأمَر أصْدَرا

لقد سما الجمال الفنّي في هذا الشعر الرائع والسحر الحلال، حتى دعا له رسول الله ﷺ : «لا يُفَضِّضُ الله فاك» فعاش مائة وثلاثين سنة لم تفضّ له ثنيّة. قارن هذا بالشعر الحر، وبأحسن الشعر الحر.

ومن ميدان الجهاد في سبيل الله يخرج شعر يحمل أزكى عطر، يعبق بالدم الطاهر، ويخفق بالجولة الصادقة، من عمير بن الحمام يوم بدر:

رَكْضاً إلى الله بِغَير زَادِ إلَّا التُّقَى وعَمَل المَعَاد
والصَّبر في الله عَلَى الجهادِ وكل زاد عرضةُ النَّفادِ
غير التُّقى والبِرِّ والرَّشادِ

ما أعـظم هذا الشعـر الذي يمتدُّ خالداً في حياة الإنسانية كلها، بأصدق كلام، وأحلى صورة، وأقوى حركة، صورة الجهاد الذي يركض ركضاً، ولكن إلى أين. . . . ؟ إلى الله! . إنها لوحة فنية رائعة في ميدان رائع.

* ومـع ابن زريق البغدادي يصف وداعه لزوجته، تهزّك كلّ كلمة، مع حركتها ودفقتها وجرسها:

أَسْتَودِعُ اللهَ في بَغْدَادَ لي قَمَراً — بالكَرْخِ مِنْ فَلَكِ الأَزْرَارِ مَطْلَعُه
ودَّعتُه، وَبِوُدِّي لَوْ يُودِّعُنِي — صَفْوُ الحَيَاةِ وَأَنِّي لَا أُودِّعُهُ
وَكَمْ تشبَّثَ بِيَ يومَ الرَّحيل ضُحىً — وأَدْمُــعِي مُسْتَهِـلَّاتٌ وَأَدْمُعُــه

مع هذه المقتطفات من الشعر، نستطيع أن نلمس ذلك اللون الخاص من الجمال الفني الذي تسوقه «الصياغة الشعرية»، بما تحمل من سبك وتراكيب يدفعها الوزن وتوجهها القافية، وتموج بها الصور والحركة.

وقـد يدفـع الـوزن والقافية التركيب الشعري، حتى يسهل على اللسان، ويسمو به البيان، فيسير في الناس مثلا:

فاسمع قيس بن الملوّح يقول:

وقَـدْ يَجْـمـع الله الشتيتين بَعْـدَما — يَـظُـنَّـان كُـلَّ الـظَّـنِّ أن لا تَـلاَقِـيـاَ

* وتروى أبيات ليزيد بن معاوية، تكاد تمثل الجمال الشعري المتميز، يدفعه النغم المتميز بالوزن والقافية، تسوق التعابير والتراكيب وتتحكم بها، حتى تجد أمامك لوحة فنية رائعة:

أنِيسَةٌ لو رَأَتْها الشَّمْسُ مَا طَلَعَتْ — مِنْ بَعْدِ رُؤْيَتِها يوماً عَلَى أَحَدِ
وأَمْطَرتْ لُؤلُؤاً مِنْ نَرجِس، وَسَقَتْ — وَرْداً وَعَضَّتْ عَلَى العُنّابِ بالبَرَدِ
إنْ يَحْسُدُوني عَلَى مَوْتِي، فَوَا أَسَفِي — حَتَّى عَلَى المَوتِ لَا أَخْلو مِنَ الحسدِ

* والنفس العالية تدفع القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني حتى يقدم لنا أدباً رائعاً، وحكمة غالية، في صياغة شعرية يمضي بها جرسها على سحر حلال:

يَقُولونَ لِيْ فيكَ انْقباضٌ، وإنَّما رَأوا رَجُلاً عَنْ مَوقِف الذُلّ أحْجَما
أرى النَّاسَ مَنْ داناهُمو هَانَ عِنْدَهُمْ وَمَنْ أكرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفس أُكْرِمَا
وَمَا زِلْتُ مُنحازاً بِعِرْضِيَ جَانِباً مِن الذمِّ أعْتَدُّ الصِّيانَة مَغْنَما
ولَمْ أقْضِ حَقَّ العِلْمَ إنَ كَان كُلَّما بَدَا مَطْمَعٌ صيّرْتُهُ لِيَ سُلَّما
أأشْقَى به غرساً وَأجْنِيهِ ذِلَّةً إذنْ فاتِّبَاعُ الجَهْل قَدْ كَانَ أحْزَمَا
وَلَوْ أنَّ أهْلَ العِلْم صَانُوهُ صَانَهُمْ وَلَوْ عَظمُّوهُ في النُّفُوسِ لعُظِّمَا
ولكنْ أهانُوه فهانُوا، ودنّسُوا مُحَيَّاهُ بِالأطْماع حَتَّى تَجَهَّما

وهو القائل:

وقالوا توصَّلْ بالخضوعِ إلى الغِنى وَمَا عَلِموُا أن الخُضُوعَ هو الفَقْر
وبيني وَبَيْنَ المَالِ بَابَانِ حَرّما عليَّ الغِنى: نفسي الأبيّةُ والدهرُ
إذا قيل: هذا اليُسْر، عَايَنْتُ دُونَهُ مَوَاقِفَ خَيْرٌ مِنْ وُقُوفِي بِهَا العُسْرُ

شعر حلال، وسحر حلال، وجمال شعري خاص حتى يكاد يقول لك إني أنا الشعر. فلا يحتاج الشعر عندئذ إلى تعريف.

من هذه النماذج أرجو أن يكون قد اتضح الرأي الذي ندعو له، وهو أن النثر والشعر شكلان من أشكال التعبير عرفتهما اللغة العربية، وهي لا تعرف معهما شكلا آخر. وهذان الشكلان نموا مع تاريخ اللغة نُمُوّاً طبيعياً، على سنن أرادها الله في الكون، فما وضعتهما لجان ولا أدباء، ولا سلطان. ولكل شكل أهميته ودوره ومكانه الخاص به في الحياة، وفي الأدب، ولكل منهما جماله المتميز عن الآخر. وأول ما يتميز به الشعر هو الأوزان والقوافي على النحو الذي بنته آلاف السنين، وانتهت به إلى ما نعرفه اليوم. وإن الوزن والقافية لا يشكلان قيداً للموهبة الشعرية

الصادقة، وإنما يوجهان إلى صياغة فنية متميزة، تحمل بتميزها جمالها الفني الخاص المتميز. **والنثر كذلك له صياغة فنية متميزة من الشعر، تدفع تراكيب وتعابير خاصة بالنثر، وتحمل جمالاً فنياً خاصاً بالنثر.** وإن مجرد وجود جمال في هذا التعبير أو ذاك، أو وجود صورة وحركة، أو وجود شعور وعاطفة، أو وجود تشبيه وخيال واستعارة، او وجود تفعيلة هنا او هناك، او عدد من التفيعلات يحددها المزاج والرغبة بدون ضابط او قاعدة، كل هذا وحده لا يجعل الكلام شعراً، لأن هذا كله ممكن في النثر، كما هو ممكن في الشعر. هذه هي اللغة العربية، ولعل هذه قاعدة اللغات كلها.

وقد درج كثيرون على أن يسمُّوا أوزان الشعر بأنَّها أوزان «الخليل». فإن كانت هذه تسمية مجازية صحت، وإلا فإنها تسمية خاطئة. **(فالخليل بن أحمد الفراهيدي)** لم يخترع هذه الأوزان والبحور، وإنما هو مكتشف لشيء سابق له ولاحق له، مكتشف لشيء بناه تاريخ طويل، فلا تنتسب الأوزان لأحد من الناس، وإنما تنتسب للغة العربية وحدها وتاريخها الطويل.

يقول لي أحد الأصدقاء عن الأوزان والبحور: أليست تلك الأوزان نمطاً جاهلياً خلفها لنا امرؤ القيس وأضرابه؟! أقول : لا! وإلا فالنثر كذلك نمط جاهلي، فلماذا نستعمله؟! واللغة العربية، نثرها وشعرها، أسبق من امرىء القيس، وأسبق من تاريخ مجزوء في مكان محدود. إنها لغة أمة نمت، ونمت لغتها، لتكون لغة العصور والأجيال والقرون حتى تقوم الساعة.

الشعر له صياغته الفنية المتميزة من النثر. والنثر له صياغته الفنية الخاصة كذلك. ولكن الصياغة ليست هي العنصر الوحيد في العمل الأدبي، وإنما هي عنصر تقوم عليه عناصر أخرى، أو تنشأ بسببها. فالصياغة الفنية تهب الشكل الأدبي أولاً وتحدده. والصياغة الفنية تفرض اختيار هذه اللفظة أو تلك، وتسوق هذا التعبير أو ذاك، ثم ينشأ عن ذلك كله أسلوب خاص بهذه الصياغة وأسلوب خاص بتلك، وتأخذ هذه العناصر تتفاعل فيما بينها من خلال الموهبة حتى تخرج لنا النص الأدبي بصياغته المتميزة، وتعابيره وأسلوبه. وحين تتفاعل هذه العناصر فيما بينها،

فإنها تتفاعل كذلك مع سائر الطاقات والقدرات في الإنسان، وهو يتأثر بالواقع والبيئة. ومن خلال هذا التفاعل يمضي تاريخ طويل للكلمة واللغة والإنسان والواقع، يمضي هذا التاريخ على قدر معيّن تأخذ به الموهبة، ويقدمه الوسع في الإنسان. فيخرج لنا من هذا التفاعل الذي يتم في داخل الإنسان شعر متميز بعناصره الفنية كلها، أو نثر متميز بعناصره الفنية كلها، ثم يكون بعد ذلك لكل منهما جماله الفني المتميز.

فالشعر إذن حين يتميز بالصياغة الفنية أولاً فإنه يصبح بعد ذلك يتميز بالكلمة والتعبير والأسلوب، يتميز بعناصره الفنية كلها من النثر تميزاً ظاهراً لا يجمعهما إلا الموضوع الفني.

ولنوضح ذلك بمثل : فإننا نسوق خطبة (قس بن ساعدة الإيادي)، والشعر الذي أتبعها. فقد كان الموضوع واحداً في النثر وفي الشعر. وتميز النثر من الشعر تميزاً واضحاً في الصياغة والتعبير والأسلوب، حتى كان لكل منهما جماله المتميز كذلك.

يقول قس بن ساعدة الإيادي في خطبته المشهورة :

« . . . إنّ في السماء لخبراً، وإنّ في الأرض لعبراً، ليل داج وسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج. مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون، أَرَضُوا بالمقام فأقاموا! أم تُرِكوا هناك فناموا! أقسم قسماً حقاً، لا حانثاً فيه ولا آثماً، إن لله ديناً هو أحبُّ إليكم من دينكم الذي أنتم عليه، ونبيّاً قد حان حينه وأظلكم أوانه وأدرككم إبانه. فطوبى لمن أدركه فآمن به وهداه، وويل لمن خالفه وعصاه».

لو عرضنا هذا الكلام على ميزان الحداثة لكان ـ حسب اعتبارها ـ شعراً أعلى من كل شعر قالوه. ولكن اللغة العربية وتاريخها وآدابها تقرر أن هذا نثر على درجة عالية من البلاغة والبيان، ولكن ما يحمله من بيان وبلاغة لا ينقله إلى الشعر. فظلت له صياغة النثر، وتعبير النثر وأسلوب النثر، صياغة وتعابير أسلوب متميز، تتفاعل كلها لتقدم لنا الجمال الفني المتميز للنثر.

ثم يعيد قس بن ساعدة بعض ما قاله نثراً في القطعة السابقة، يعيده لنا شعراً بصياغة فنية جديدة وتعابير جديدة وأسلوب جديد، اجتمعت هذه كلها في وزن محدد وقافية محددة، فكان ذلك كله شعراً:

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يمضي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إلى ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر

لقد أصبح من السهل علينا أن نرى كيف أن الموهبة الشعرية هنا عملت فاختارت الألفاظ والتعابير والأسلوب يحملها كلها «البحر» المحدد والقافية المحددة، وكأن الوزن والقافية دفعا ذلك كله من خلال الموهبة الشعرية لتقدم لنا الجمال الفني المتميز في الشعر.

وإننا نأمل أن يكون هذا المثال قد أوضح أن النثر شكل فني له أسلوبه ومبناه، وله جرسه ونغمته، وبذلك يكون له جماله الفني. وأن الشعر شكل آخر من الكلام يدفع الوزن والقافية تعابيره وأسلوبه من خلال الموهبة الشعرية لتقدم لنا الجمال الفني المتميز للشعر. ويصبح تميز الشعر من النثر لا ينحصر في الوزن والقافية، ولكنه يقوم عليهما، ثم يمتد إلى التعابير والأسلوب، فتجتمع عناصر التميز كلها، وتتفاعل فيما بينها لتقدم لنا عبقرية الشعر من موهبة عبقرية.

أما وقد عرضنا نماذج من الشعر العربي الحلال، على نغمته الرائعة، وجرسه العبقري، فلنقارن ذلك بنماذج مما يسمى بالشعر الحديث، لنرى هل لهذا «الشعر الحديث» مكان في الشعر، بعد أن رفضه النثر.

يقول ممدوح عدوان في ما يسمى : «وتمرُّ المدينة برقا».

«خبّأوا الموت بين الصدور،
ومضوا غيمة سائحة
غير أن الصقور
عرفتهم من الرائحة
لو أني أكلت على المائدة
لقلت : قبضت الثمن».

تاهت الكلمات، وتكسرت التعابير، واختلطت المعاني. ولو عرض هذا على أحد من أبناء اللغة العربية لأكّدوا لك أن هذا ليس لغة عربية أبداً.

ولعلي الجندي في «التحديق في المجهر اللولبي»، يقول:

«ألمح من خلل الماء أعين وحش له رهبة الجزر الهامدة
وأسمع دقات قلبي في رعدة الماء
أشعر كيف انسيابي في الموج يمنحني خفة في النشور».

ما أشك أبداً أن من يقرأ هذا، ويقرأ الشعر الذي عرضناه في الصفحات السابقة، ما أشك أبداً في أنه سيقول عن كلام (ممدوح عدوان)، وكلام (علي الجندي): الشعر منه بريء! والنثر منه بريء، والأدب والفكر هما بريئان منه كذلك!

إذا تبرّأ النثر منه كما رأينا، وتبرّأ الشعر كما نرى، فأين ترى يكون مكان ما يسمى بالشعر الحديث؟!

مكانه خارج اللغة العربية وآدابها، إلا أن يلتزم بعض منه سلامة المعنى ووضوحه وبيانه، وسلامة الكلمة والتعبير، فعسى أن يجد مكاناً ضيقاً هنالك عند النثر.

لقد أضاع «الشعر الحديث» معنى الكلمة، وجمال الصياغة، وعبقرية الجرس. وربما أتى بعض «شعراء النثر» بكلام حسن التركيب، نزعوا منه الوزن

والقافية، وسموه بعد ذلك شعراً، وحسبوا أن الأمر سيقف عند الحد الذي بلغوه. وما دروا أنهم بخطوتهم تلك، استدرجتهم شياطين الإنس والجن إلى عمل مهدوا فيه الدرب لجريمة أكبر، وضلال أوسع، وكانت كل خطوة تزيد في عمق التيه وظلام المجهول، حتى أصبحت العودة عليهم غير مأمونة، والمضي هلاك محتوم! فإذا الجريمة لم تكن لتقف عند ذلك، بل امتدت بعد حين لتقتل الكلمة والمعنى والتركيب، ولتلغي القواميس، ثم تلغي الفكر والدين والتاريخ. . . !

لقد ظن رواد ما يسمى بالقصيدة الحديثة أن القضية تحرر من وزن وقافية، ثم إذا هم يتحررون شيئاً فشيئاً من معنى وطهارة، ومن لغة وتاريخ، ومن فكر ودين، ثم يقطعون وشائجهم كلها بأيديهم، ويخربون بيوتهم بأنفسهم. هذا لمن لم يكن واعياً للمؤامرة منذ بدايتها.

سياسة الشيطان وجنوده، سياسة خطوة خطوة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (النور : ٢١)

لقد سبق أن عرضنا في فصل سابق أن أول من استخدم لفظة الشعر الحر هو (كوستاف كان) الذي أعجب به (مارينيتي) الإيطالي زعيم المستقبلية الإيطالية كثيراً.

لقد وعد المستقبليون الناس بابتكار الخيال اللاسلكي الذي سيتمخض عن «توليف متجانس لعناصر الكون التي يمكن احتواؤها عن طريق نظرة خاطفة واحدة، ويمكن التعبير عنها عبر كلمات جوهرية». هذه هي الكلمات الحرة: «بعد الشعر الحر أصبح عندنا أخيراً كلمات حرة».

لنتذكر أيضاً أن الكلمات الحرة التي يعنونها هي الكلمات التي أُفرغت من معانيها، وتاهت في اللامحدود والغيبوبة. هي خطوات شيطانية يدفعنا إليها مهووسون، خطوة خطوة. فالشعر الحر كان عندهم خطوة إلى ضياع أكبر، وكذلك

كان عندنا شعر التفعيلة الذي أغرى بعضهم، حتى إذا سقطوا فيه تاهوا في لجج من الظلام.

عرضنا في ما سبق نماذج من النثر العربي الصادق، ومن الشعر العربي الصادق، وقارنا ذلك مع نماذج مما يسمى بالشعر الحديث، حتى يتضح الفرق، ويبين هول الجريمة، وبشاعة الإثم.

ولكن اللغة العربية أعزها الله ببيان أعلى من كل ما عرضنا؛ ببيان النبوة التي أعطاها الله جوامع الكلام. هناك يسمو البيان فوق كل بيان بشري، يسمو في كل نواحيه الفنية والفكرية، ومع ذلك يظل بيان النبوة هو نثر لا شعر فيه، حتى ولو حمل الكلام هنا تفعيلة، وهناك سجعاً.

فلنأخذ نماذج من أدب النبوة حتى نرتقي بأنفسنا مع إيماننا، إلى مستوى عال كريم، في ظلال حانية، وأنداء غنية.

فعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ:

«من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل. ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة» (رواه الترمذي)[1].

ويقول النبي الكريم ﷺ في أمر الحديبية:

«إن قريشاً قد نهكتهم الحرب، فإن شاءوا ماددناهم مُدّة وَيدَعُوا بيني و بين الناس. فإن أظهر عليهم وأحبُّوا أن يدخلوا فيما دخل الناس، وإلا كانوا قد جمُّوا. وإن أبوا فوالذي نفسي بيده لأُقاتلنَّهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي هذه، وَلَيُنْفِذَنَّ الله أمره»[2].

بيان من جوامع الكلام، وكل كلمة تحمل من الظلال حتى كأنها مقالة: نهكتهم الحرب، جموا، تنفرد سالفتي. وكل جملة وتعبير بيان متفرد، والنص كله بعد

(١) سنن الترمذي: أبواب صفة القيامة (٣٨). باب (١٨). حديث (٢٤٥٠).
(٢) التصوير الفني في الحديث النبوي. د. محمد الصباغ. (ص: ٦٣).

ذلك في أعلى درجات البيان.

واسمع هذا الدعاء من الرسول ﷺ، في ظلال الخشوع والاستسلام لله سبحانه وتعالى. خشوع يهب الطمأنينة، واستسلام يهب العزة والقوة، وبيان يهب الأمن والرضا:

«اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك. لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك. آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت» (رواه مسلم)[1]

ودعـــاء آخـــر:

عن ابن عمر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبّر ثلاثاً ثم قال: **«سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كُنّا له مقرنين وإنّا إلى ربنا لمنقلبون. اللهم إنّا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا واطْوِ عنّا بُعْدَه. اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل. اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل»** (رواه مسلم)[2]

أي بيان أعلى، وأي بلاغة أجل، إلا أن يكون القرآن الكريم، الوحي المنزل من عند الله، قرآناً عربياً غير ذي عوج أبداً. هناك القمة العليا والذروة التي لا يبلغها أحد. قرآن يحمل من الإعجاز ما لا يستطيع إنس ولا جان أن يأتي بمثله، ولا بسورة من مثله، ولا بعشر آيات من مثله. ومع هذا الإعجاز إعجاز آخر، ذلك بأن جعله الله ميسراً للذكر، ميسراً للتدبر، بياناً للناس أجمعين، إلى يوم الدين، لا يضل عنه إلا الكافرون. وهذا الإعجاز في القرآن جاء نثراً، وقد نفى الله سبحانه وتعالى عنه أي صفة من صفات الشعر، كما نفاه عن النبوة.

ولنستمع إلى قبسات من كتاب الله، لنرى جلال البيان في إعجاز القرآن:

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء (٤٨). باب (١٧). حديث رقم (٢٧١٠).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الحج (١٥). باب (٧٥). حديث (١٣٤٢).

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾
(النور : ٣٥)

لوحـة فنية ما أجلّها وأعظمها! لوحة حملت جلال المعنى وجلال الصورة، وجلال الجرس، على نحو معجز. إنه الوحي الكريم.

وصورة أخرى:

﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾
(النور : ٤٠)

وآية أخرى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾
(النحل : ٩٠ ـ ٩٤)

هذه قبسات من كتاب الله أوردناها في ختام هذه النماذج، لنرى سمو البيان

حين يبلغ درجة الإعجاز في كتاب الله ، ونرى بذلك هبوط أدب الحداثة ، هبوطاً فقد جمال الكلمة والتعبير، والمعنى والصورة والحركة ، والنغمة ، والعاطفة والفكر، حتى لم يدع شيئاً له جمال إلا نزع منه الجمال ، ودفع القبح في كل ناحية من نواحيه ، وعطّل خيراً ورمى شراً .

لو تركنا القياس لأهل الحداثة والبنيوية ، لو تركنا لهم الحق ليضعوا مقاييس القبح ـ وقد حسبوه جمالاً ـ لو تركنا لهم ذلك ، ربما سقطوا فقالوا هذا شعر، لينكشف ما كانوا يكتمون ويظهر ما يمكرون .

ونأمل أن نكون بهذه الأمثلة كلها أوضحنا الجمال الفني المتميز في النثر، والجمال الفني المتميز في الشعر الصادق ، حتى تأكد لنا أن قانون اللغة العربية وسنة الله في نموها وتطورها ، جعلت لها شكلين متميزين في التعبير: النثر والشعر. فلا يوجد نثر شعري ، ولا شعر نثري . وتأكد لنا أن أساس الشعر نغمة يحددها الوزن والقافية . فلا يصلح في الشعر أن نأخذ تفعيلة هنا ، وتفعيلة هناك ، ونجمع ونطرح ، ونزيد ونُنقص ، على هوى مريض ، وفطرة منحرفة ، في أناس فقدوا إحساس اللغة العربية ، وانفصلوا عن تاريخها ، وحرفها ، وكلمتها ، وبنائها ، ثم جاءوا ليفرضوا أوهام الغرب على لغة القرآن . وليس كل كلام نظمته على الوزن والقافية يسمى أدباً ، فلابد أن يقوم على النظم جمال العناصر الفنية ، لتجتمع فتضم جمالا إلى جمال . وليس كل كلام نثرته كان أدباً ، وإنما لابد من أن يحمل النثر عناصره وخصائصه التي ترفعه إلى مستوى يصبح عندها أدباً .

٤ ـ المغالطة والتناقض في فهم النمو والتطور :

يريد بعض الأدباء أن يجعل من «الشعر الحر» نمواً وتطوراً . وهو في الحقيقة أبعد ما يكون عن النمو والتطور، حتى ما حافظ منه على تفعيلة هنا وهناك . لم يكن النمو والتطور في أي علم من العلوم هدماً أو تدميراً . فأساس النمو والتطور هو أن يقوم على جذور لا تُقْتَلَع وساق لا تُقْتَطَع ، حتى تستمر الحياة ويقع النمو ويمتد التطور. كيف تنمو شجرة اقتلعت جذورها ، واقتلع ساقها من فوق الأرض . إن هذا

الحال مَثل ضَرَبَهُ الله للكلمة الخبيثة، لا للكلمة الطيبة:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ (ابراهيم : ٢٤ - ٢٦)

لقد بيّن الله صورة حية للنمو والتطور، وبيّن لنا أساس ذلك وقاعدته: **«أصلها ثابت وفرعها في السماء»**. جذور ممتدة في الأرض هي الأصل، وساق تقوم عليها الفروع، ثم تمتد غنية قوية إلى السماء، فروع متصلة بساق، وساق متصلة بجذور، فإذا هي ثمار غنية تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. مثل يضربه الله للناس لعلهم يتذكرون. هذا هو النمو والتطور وهذا أساسه.

فإذا أردنا أن نرى نمواً في الشعر فلابد من أن نطمئن أولاً إلى سلامة الجذور، وثبات الساق، ولابد من حمايتها وصونها لتكون الباب الذي يروي، والغناء الذي يعطي. والوزن والقافية هي جذور الشعر العربي وساقه، فإذا ذهبا تعطل النمو وتوقف التطور. إذا ذهبا، واقتلعت الجذور، وقطع الساق، أصبح هذا مثلا يضربه الله للكلمة الخبيثة، كالشجرة الخبيثة اجتثت من فوق الأرض حتى لم يعد لها قرار.

والنمو والتطور عمل يصحبه الانتشار والامتداد، وتقبله الفطرة السوية والسجية السليمة، ولايصطدم مع تاريخ الأمة، وركائزها، ولا مع عقيدتها ودينها. بذلك يمتد النمو حتى يكون مقبولا عند الأمة لأنه منسجم مع فطرة الإنسان السوية، فلا يكون النمو قاعدة شواذ، ولا مذهب ضلال، ولا بؤرة فتنة وفساد، ولا باب شر وجريمة.

عندما تتطور نظرية علمية فإنه يصحبها برهانها وحجتها، ثم ترتبط مع النظريات السابقة لتمثل نمواً حقيقياً، فإذا انقطعت عنها فما هي بنمو، ثم إذا تم

ذلك قبلها الناس هنا وهناك، وامتدت وانتشرت لتكون حاجة الناس ومبتغاهم، لا لتكون مذهباً شاذا يرفضه علماء هذا العلم أو ذاك. وعندما نراجع اليوم علومنا في الرياضيات والفيزياء والكيمياء والهندسة والطب وغيرها من العلوم التطبيقية، نجد أن نظرياتها تمثل امتداداً تاريخياً لم يرفض إلا ما ثبت فساده وبطلانه لدى العلماء كلهم، وما خرج عن سلامة تاريخ العلم. وتظل كل نظرية يقوم عليها التطبيق أساساً للنظرية الجديدة تتكامل معها، وتمضيا معاً لبناء خطوة جديدة.

ما زالت سيارة اليوم تحتفظ بأبسط قواعد العلوم التي قامت عليها السيارة قبل نصف قرن مثلاً. ولو أن صناعة السيارات ألغت نظريات العلوم تلك، ما كان لها إذن أن تتطور إلى ما هي عليه اليوم.

لذلك سيظل الوزن والقافية، والقواعد النحوية والصرفية، وقواعد البلاغة والبيان، سيظل هذا كله أساساً لكل جمال فني جديد، وعطاء غني تدفعه الموهبة الغنية، لتقدم أروع النماذج في تاريخ طويل ممتد، عطاءً إنسانياً متدفقاً. ذلك لأن هذا كله يمثل الجذور الحقيقية للغة العربية ويمثل ساقها، لتقوم الكلمة الطيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

عندما يصبح النمو تفلُّتاً من قواعد وأسس، وانطلاقاً في «اللامحدود» و «اللاوعي» و «اللانهائي»، والتعارض الثنائي، والثنائيات المتعارضة والمفتوح، المغلق، الطالع / النازل، واعتباطيات الإشارات، عندما يصبح النمو والتطور أن لا تفهم أنت ولا أنا، ولا القائل، ولا السامع، ولا أحد من الناس، عندما يصبح النمو والتطور إفراغ الكلمات من معانيها، وإلغاء القواميس، واقتلاع الإنسان بكل جذوره ورميه في بوتقة التحول على دقات أدونيس وفرقته، وهي تعزف لحن الموت في جنازة اللغة والفكر، عندما يصبح النمو والتطور مثل هذا، هنا نتوقف عن الكلام فلا فائدة من الكلام. ولكننا ندعو الله من قلوب خاشعة خائفة: اللهم اهْدِ عبادك، وادفع بلاءك، ونجِّ المؤمنين!. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

وأهم من ذلك، فإن النمو والتطور ليس شيئاً تفرضه لجان وهيئات وجماعات.

إن النمو والتطور في اللغة يمضي على سنن في الحياة، كما كانت اللغات تنمو منذ آلاف السنين. فليس التطور شيئاً جديداً نبتدعه نحن، ثم نحاول أن نفرض له قوانين من عند أنفسنا، نحشرها حشراً في حياة الأمة وندفعها دفعاً للعقول، ونحاول إلصاقها على الألسنة. ستمضي سنن الله في كل شيء:

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢١﴾ (يوسف : ٢١)

طلعت علينا نظريات الشعر الحديث، ونظريات «الشاعرية» وطلع الشعر الحديث، طلع ذلك كله نبتة غريبة عن الأمة واللغة والتاريخ، طلعت مع سائر ما طلع علينا من محاولات التحديث في حياتنا مثل: تغيير أحرف اللغة العربية، وتغيير بعض قواعدها، والدعوة إلى العامية، وغير ذلك من أساليب الهدم والتدمير، لا البناء والتعمير. ولا نستطيع أن نعتبر إقبال بعض الناس على هذا المنحى أو ذاك دليلاً على صحة المنحى. ذلك أن الرأي العام قد يُفتن أحياناً بمظاهر لو عرف حقيقتها لرفضها. فلكم صفق الناس في تاريخنا لجزاريهم، وكم هتفوا لجلاديهم، وكم نحروا أنفسهم في سبيل أعدائهم. فحتى نحكم على صحة هذا المنحى أو ذاك، فلا بد من أن يعتدل الميزان في أيدينا، ميزاناً عادلا أميناً، ميزاناً يقيمه منهاج الله.

وإن أخطر ما نجابهه هو ذلك البريق الخاطف لكل ما جاء من الغرب، حتى للرجل الغربي نفسه، للرقص، للغناء، للتحلل، للانفلات. وربما حاول بعضنا أن يلوي حنكه تشبها بالغرب، فلم يعد الكثيرون يعرفون ما يأخذون ومالا يأخذون. إن هذا البريق لزخرف الغرب يختفي أمام الإشراقة القوية للإيمان، والنور الممتد من منهاج الله قرآناً وسنة.

وقضية أخرى بالنسبة للنمو والتطور، يقع الناس عند تجاهلها في تناقض وتضارب ومغالطات. ذلك أن من سنن النمو في الحياة قاعدتين:

أولاً: ضرورة وجود ثوابت وأصول تمد العمل بالريّ والغذاء. فكما رأينا قبل قليل، فهذه الثوابت مثلها كمثل الجذور للنباتات، فبدونها يتوقف النمو وتموت الأشجار والنباتات. وعندما لا يجد الإنسان ثوابت أو لا يهتدي إليها يضع من عنده

فرضيات يعتبرها ثوابتّ، حتى يستطيع الانطلاق. وفي سنن الكون ثوابت هي آيات بيّنات، يقوم عليها سعي الإنسان وجهده. وبدونها تضطرب الحياة وتظلم.

وثانياً : ضرورة الارتباط والاتصال بين الجذور والساق والفروع والثمار. وضرورة الاتصال بين الأجيال والعصور. ولكل نظام اتصال وروابط، ولأجيال المؤمنين روابط ثابتة حتى تقوم الساعة، إيمان، ولغة عربية. وستظل اللغة العربية رابطة من روابط الإيمان. فكيف يقوم نمو ويمضي تطور حين نمسح التاريخ واللغة والعقيدة، ونمزّق الأجيال ونقتلع الإنسان لنرميه في بوتقة التحول؟! ما أشقى الإنسان حينئذ!

٥ - مع الموشحات الأندلسية :

يقول بعضهم إن الموشحات كانت تمثل تجديداً في الشعر فلماذا نضيق اليوم بهذا التجديد؟! أعتقد أن القارىء الكريم نفسه يستطيع أن يكتشف وحده عظيم المغالطة في هذا الادعاء. مغالطة وخلط لا ينهض لهما أي أساس من منطق أو أدب صادق.

أولا : ظهرت الموشحات في أرض واحدة من ديار العالم العربي والإسلامي، ظهرت في الأندلس، ونقلها ابن سناء الملك إلى المشرق على قصور فيها في المشرق عما بلغته في الأندلس. ولم ترافق اللغة العربية في رحلتها في الأرض. إنها ولادة أرض محدودة وعصر محدود فهي لم تمثل نمواً ممتداً في لغة ممتدة.

ثانيا : لم يكن ظهورها إلا في فترة الانحطاط، مع آثار سيئة على اللغة، جعل الأدباء الكبار لا يقبلون عليها. وهذه نقطة مشابهة لحالة «الشعر الحديث».

ثالثا : لقد كان من بين العوامل التي ساعدت على ظهور الموشحات، انحلال خلقي غارق في الرقص والغناء، وكان الغناء من أهم عوامل ظهوره، وكان الغناء واللهو والطرب من أهم أسباب ضياع ملك المسلمين. فبئس

الاقتداء!

رابعا : لا يكاد المؤرخون يتفقون على من بدأ به. ولكن يغلب القول على شاعرين من بلدة واحدة هي «قبرة». ويقال إنه قد بدأت محاولات منذ القرن الثالث الهجري لم يكتب لها النجاح ولم تنتشر، ولم يصل إنتاجها إلينا. فمضى قرن لم تستطع الموشحات أن تأخذ مكانها. حتى جاء القرن الرابع الهجري حيث أصبحت الموشحات لها قواعد، ولها عدد محدود من الشعراء. ثم ينتهي هذا الأسلوب ويطوى، ولا يستمر في حياة الأمة، لا في الشرق ولا في الغرب. ولا تجد اليوم أحداً ينظم الموشحات.

خامسا : لقد ظهرت بعض محاولات معقولة لا تقتل جذور الوزن والقافية، في العصر العباسي كالمخمسات، والمزدوجات، والمسمط، مع محاولات في القافية لا تلغي القافية ولا تقتلها ولكن هذه المحاولات نفسها لم تعش في الأمة ولم تمتد في الأدب إلا تاريخاً يروى، وإلا في بعض النظم في الفقه والنحو مما لا يدخل ساحة الشعر الأدبي. كل هذه المحاولات لم يكتب لها الخلود لاصطدامها مع طبيعة راسخة وجذور ممتدة. ويبقى بعضها صالحاً لبعض أبواب الشعر والنظم.

سادسا : إذا كانت الموشحات أتت لتخفيف ما يسمونه قيود الوزن والقافية، فقد وضعت بدل ذلك قيوداً أصعب وأدهى. ذكر (ابن سناء الملك) في كتابه «دار الطراز» يُعرِّف الموشح : «الموشّح كلام منظوم على وزن مخصوص. وهو يتألف في الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات ويقال له التام. وفي الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع. فالتام ما ابتدىء فيه بالأقفال، والأقرع ما ابتدىء فيه بالأبيات. ومطلح الموشح يتألف أحياناً من أربعة أجزاء تسمى اصطلاحاً القفل الأول، ثم يأتي القفل الثاني بأجزائه. والأقفال أجزاء مؤلفة يلزم أن يكون كل قفل منها متفقاً مع بقيتها في وزنها وقوافيها وعدد أجزائها. . . .»، إلى غير ذلك من القواعد

والقوانين. من هذا نجد أن الموشحات أخذت من الوزن والقافية في الشعر العربي ما جعلت منه قيوداً أصعب وشروطاً أدق. فالقفل يتركب من جزأين إلى ثمانية أو عشرة، والبيت إما بسيط أو مركب وهكذا تمضي الشروط حتى تجعلك تَتَيَقَّنُ أنها قيود خانقة، وأن قيود الشعر ما أحيلاها. وقيود الشعر ليست قيوداً عند الموهبة الصادقة، ولكنها حاجة وأدوات فنية ضرورية، ممتعة.

سابعا : إن قيود الموشحات من حيث الوزن والقافية، والقفل، والبيت والأجزاء، والبسيط، والمركب. . . . إلخ لايمكن أن تخرج من سجية وفطرة وبداهة. إنها صنعة وتكلف وتعقيد. ولكن الشعر العربي انطلاق فطرة فيها موهبة. ولذلك عاش الشعر العربي آلاف السنين، لأنه نمو طبيعي نابع من طبيعة لغة، وفطرة إنسان، وموهبة سليمة. وأما الموشحات فَطُويَتْ تاريخاً وذكريات.

ثامنا : هنالك شبهة تدور حول «الموشحات» تقول إن هناك علاقة بين الشعر الفرنسي القديم - الإسباني القديم الذي كان ينشده ويتغنى به المعروفون بالتروبادورز (Troubadours) وبين الموشحات. ولعل مصدر الشبهة هو تشابه الغايات والأغراض من لهو وغناء وطرب وحب وغزل وأمثال ذلك. وظهرت قصائد (البالاد La ballade)، (والوجدانيات La chanson courtoise)، حيث حملت هذه بعض التشابه مع الموشحات من حيث البناء والشكل والموضوع. ولكنه موضوع ما زال لدى بعض الأدباء منه شبهة. أما «الشعر الحديث» واتباعه سنن الغرب شِبْراً بشبرٍ وذراعاً بذراع، حتى لو دخل الغرب جُحْرَ ضَبٍّ لدخله الشعر الحديث، فإنه لا يمثل بهذه التبعية والاضطراب نموّاً، ولا تطوّراً، ولكن تفلّتاً. إن هذا التقليد لا يمكن أن يسمى تطوراً ولا نمواً، وإنما هو تبعية ورجعية وتهديم.

من هذا العرض السريع للموشحات ندرك أن من يحتج بظهور الموشحات حتى يبرر ظهور الشعر الحديث، قد وقع في أكثر من خطأ واكثر من مغالطة.

فالموشحات ظاهرة في بيئة محدودة وعصر محدود، خرجت من أجواء الفساد واللهو والغناء الذي أضاع مُلْكاً وأمة، وهي ظاهرة طويت ولم تعش كما عاش الشعر العربي، وهي ظاهرة أتت بقيود أصعب من قيود الشعر، وهي ظاهرة لم تُمثّل عمل أُمة ونمو لغة، وإنما مثلت عمل أفراد محدودين جداً، وشعراؤها ظلوا على مدى التاريخ محدودين، وهي ظاهرة لم تنبع من فطرة وموهبة ممتدة، وهي ظاهرة قد تحمل سوء التبعية وشرّها دون أن تحمل جدِّية التأثر والتأثير.

لهذا كله لا يمكن أن نعتبر ظهور الموشحات حجة ومبرراً للدفاع عن الشعر الحديث. ولكن مع كل سيئات الموشحات، فقد ظلت محافظة على حلاوة اللغة وصدقها، وسلامة التعبير، وجمال الجرس. والشعر الحديث فقد ذلك كله. وكفى بالأمثلة السابقة دليلاً على ذلك. ولكن قد يفيد القارىء لو قرأ نموذجاً من الموشحات التي طواها التاريخ ولم تَقْوَ على الامتداد، ونموذجاً من الشعر الحديث:

يقول ابن بقي:

عَبثَ الشوقُ بقلبي فاشتكى أَلَم الوَجْدِ فلبَّتْ أدمُعي

أيها الناس فؤادي شَغِفُ

وهو في بغي الهوى لا يُنصِفُ

كم أداريه ودمعي يكف

أيُّها الشَّادِنُ مَنْ عَلَّمَكا بِسِهامِ اللحْظِ قَتْلَ السَّبُعِ

وهذا قفل من جزأين مع بيت بسيط من ثلاثة أجزاء، وتمتد النماذج بين الأقفال والأبيات والأجزاء لتعطي صنعة متشابكة يصبح الشعر بأوزانه وقوافيه أسهل وأيسر. ولكننا هنا، على كل حال، نقرأ لغة عربية، ونجد صورة ومعنى، ونجد جرساً. والموشحات لم تطعن في الدين ولا النبوة ولا الله. وهو يحافظ على الوزن والقافية.

أما الشعر الحديث فاستمع إليه مع هذه الأسطر:

يقول محمد جبر الحربي :

«شاغل خطوة البال منحرف السؤال

أقول كما قال جدي الذي ما انتهى

رأيت المدينة قانية

أحمر كان وقت النبوءة

منسكباً أحمر كان أشعلتها»

أين اللغة العربية، أين المعنى والمبنى، ماذا تعني «منسكباً أحمر كان أشعلتها» وما هذا التعرض للنبوة: «أحمر كان وقت النبوءه»، وماذا يعني: «شاغل خطوة البال منحرف السؤال». ! تيه وإماته للغة، واللغة العربية، نثرها وشعرها، من ذلك براء.

من هذين المثالين نجد أن الموشحات، مع محافظتها على الوزن والقافية كما رأينا، ومع محافظتها على جمال التعبير وجمال الصورة وسلامة اللغة، مع هذا كله، لم تستطع أن تمتد في تاريخ الأدب، ولكنها طويت. وما ظهر لها شعراء عديدون يمتدون في الأرض وفي العصور، وإنما ظهر عدد محدود من الشعراء في التاريخ كله. **وأما الشعر العربي الحق فممتد في الأرض والزمان.** فكيف يحقُّ لأحَدٍ أن يستخدم هذا دليلاً على صلاح فساد أوسع، واضطراب أعم، وظلام ممتد؟!

الشعر العربي بوزنه وقافيته شعر ممتد مع الأمة المسلمة في الأرض كلها، وفي العصور كلها، إنه دفقة أمة ممتدة، وعقيدة ممتدة، ولغة ممتدة، وموهبة عبقرية ممتدة. وقد صمدت اللغة العربية أمام جميع التحديات، وستصمد، لأنها محفوظة بحفظ الله لها، محفوظة مع الدين الحنيف، والذكر الدائم:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر : ٩)

كتب إليَّ صديق أديب شاعر يحاول الشعر الحديث، فيدافع عنه. كتب إليَّ يقول: وما رأيك يا أخي في شاعر عمودي يقول:

«وذكـر بيتـاً من الشعر فيه كفر صريح أمتنع عن روايته هنا، وأكتفي بهذه الإشارة» أننتصر لهذا الشعر لأنه عمودي؟ ونغضب من شاعر يقول:

«قل لهم ن يسألوك
نحن من ماء
واستعد الآن حان الابتلاء»
لا لشي إلا لأنه قاله في شعر غير عمودي!
فأجبته إجابة أضع جوهرها وأهم نصوصها الآن هنا:

يا أخي! إنّ من قال ذلك الشعر «العمودي» كما سميته فجريمته كبيرة. فقد أقرَّ الكافر بكفره صراحة. وجريمته هي في ما قاله وليس في الشعر. ولقد قال الكفار في النثر أسوأ من ذلك، أفنترك النثر؟! لا ننتصر لهذا الشعر الكافر أبداً بل نُحرّمه ونحرِّم روايته. ولكننا لا نُحرِّم اللغة العربية. وهذا الشعر ليس بشعر عمودي، فقد خسر أهم مقومات الشعر العمودي. فالشعر العمودي ليس الشعر الموزون المقفى، فالوزن والقافية أساسان في الشعر نفسه، لا يدخلان في خصائص الشعر العمودي. وإنما الذي يدخل هو قضايا سبع حسب ما يذكرها (أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي) حين يتحدث عن عمود الشعر، فيقول:

«إنهم كانـوا يحاولـون شرف المعنى وصحتـه، وجـزالـة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف.... والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى، وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما ـ فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر، ولكل منها معيار».

فنلاحظ من هذا أن الذي يدخل في عمود الشعر هو «تخير من لذيذ الوزن»، وليس وجـود الوزن أو عدمه، فوجودُ الوزن قاعدة أصيلة. وكذلك «... وشدة اقتضائهما للقافية....» أما القافية نفسها فشأنها شأن الوزن لا تدخل هي ذاتها في

عمود الشعر، وإنما يدخل «اقتضاء اللفظ والمعنى للقافية» فالقافية أساس في طبيعة الشعر.

ونعود لحديثنا : فذلك البيت من الشعر خسر شرف المعنى وصحته، وشروطاً أخرى من عمود الشعر حتى لم يُبْقِ إلا الوزن، وكأنك لم تُبْقِ من جسم الإنسان إلا هيكلا عظمياً لا روح فيه ولا حياة. فهو ليس بشعر عمودي. ونحن نرفضه رفضاً كاملاً. أما ما رويت لنا من الشعر الحديث، لتقارنه مع الشعر الكافر، فإن رَفَضْنَا ذلك لأسباب، نرفضْ هذا الشعر كذلك لأسباب أبسطها أنه ليس بشعر، وأنه فارق الأبواب السبعة كلها من عمود الشعر. (ثم تحدثت في نقاط سبق عرضها ولا حاجة لإعادتها هنا). وهذا الشعر الحر لم أستطع أن أدرك مناسبته، وقد فقد جمال الصياغة الفنية، وحلاوة المعنى، وجمال الجرس، سواء أكان هكذا أو هكذا. ومن الخطأ مقارنته ببيت شعر كافر حتى نستبيح حمى اللغة كلها. ولكن المقارنة تكون أقرب للعدالة لو قارنا هذا الكلام: «قل لهم إن يسألونك نحن من ماء. . . .» بشعر حقيقي غير حديث، أقوله وأنظمه لك يا أخي ارتجالا وأنا أكتب إليك دون أن تمسها يد التهذيب. فاسمع رعاك الله:

إن يَسْألوك فقل لهم لا نَسْتَذَلُّ ولا نَلِينْ
لا يَسْتَهِينُ بِنا العدَى وَلَوَ انَّنا مَاءٌ وطينْ
فَلَقَدْ سَرَتْ بَيْنَ العرو قِ عَزائِمُ الحَقِّ المُبِينْ
وعزائِمُ الحقِّ المُوَثَّـ قِ بالعَقِيدَةِ واليَقِينْ
فانْهضْ لِعَهْدِكَ واصْبِرَ نَّ فإنَّه عَهْدٌ وَدِينْ

أجبتُ أخي الكريم على أسئلته بإجابة فصّلت في بعض نقاطها هنا، واختصَرْت ما سبق ذكره في الصفحات السابقة، في هذا العرض. وما ذكرته هنا هو روح الإجابة ومعظم نصوصها.

أرجو أن يكون في هذا العرض السريع توضيح مبدئي لمنزلة ما يسمى بالشعر الحديث، ولحقيقته، والخطر الذي تحمله «الحداثة» وهي تتجه هذا الاتجاه.

ولابد من أن نعيد في ختام هذا الفصل، أننا نتحدث عن جريمة ما يسمى «بالشعر الحديث» أو «الشعر الحر»، أو «الشعر المنثور»، دون أن نعني أنها جريمة محصورة في الشعر مخنوقة فيه. إن هذه «البدعة» تمثل باباً واحداً فقط من أبواب الفتنة، وأبواب الفتنة كثيرة، ولكنها كلها تمتد وتتصل بالجريمة الواسعة، والمكر الكبير، في أسلوب مفاجىء، أو أسلوب متدرج، حتى يقتل الكلمة العربية ويلغي معانيها وتاريخها، وحتى يقتل التركيب والتعبير، وحتى يحاول قتل اللغة كلها. ثم يمتد المكر إلى التاريخ والعقيدة والدين.

من هنا، من امتداد الجريمة، نهيب بالشعراء المسلمين لينهضوا ويصحوا، فلا يضعوا بأيديهم درباً ممهَّداً لجريمة أكبر، حين تستهويهم شياطين الإنس والجن، فينزلقوا إلى «شعر التفعيلة»« أولاً، ثم إلى شعر حر من التفعيلة، ثم تهوي بهم الريح إلى مهاوي الفكر المنحرف. . . . !

«الشعر الحرُّ» كله بجميع أشكاله وألوانه مرفوض، لا يمثل نمواً ولا تطوراً. مرفوض لأنه شارك في الجريمة الواسعة ومهّد الطريق لها، وكان شعر التفعيلة هو الخنجر الأول، والمزلق الأول وباب الفتنة. **واسألوا (نازك الملائكة) هل شفع لها اشتراكها بالجريمة، أو ابتداؤها لها، بأن تسكت عنها عصابة الإجرام لما اكتشفت هي نفسها أن شعر التفعيلة الذي قدمته كان مفتاح الجريمة؟** لقد أبوا عليها التراجع فشنوا عليها حملة واسعة.

شعر التفعيلة مرفوض لأنه أول خطوة من خطوات الشيطان في فتنته الواسعة. والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١ ﴾ (النور : ٢١)

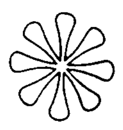
شعر التفعيلة مرفوض، والشعر الحر كله مرفوض، فقد لوثته الجريمة

الدامية، وأفسدته المشاركة الاثمة، فخرج عن ميدان النور، وساحة الوضوح.

شعر التفعيلة والشعر الحر بعيد عن الطبع الصافي والموهبة التقية، والسجيَّة الغنية.

أغلقوا أبواب الفتنة كلها، أغلقوا الطاقة والثقب والباب. فمن كل فتحة يدخل وحش قاتل: عقرب، أو حية، أو ثعلب، أو حشرات تنسلّ انسلال «الإيدز»، فلا يشعر الناس بهول المعصية إلا بعد سنين طويلة، ولات ساعة مندم.

إن الذي قدمناه هنا هو تاريخ مؤامرة وخطوات شيطان، مدعمة بالتحليل والحجة. وإن واقعنا اليوم لأكبر دليل على صحة ما ذهبنا إليه. ولكن «الهوى» ، و «الرغبة» و «المزاج» هذه أيضاً قد لا تقبل ما عرضناه، ولا يقبله كذلك من يريد ان يشارك في الهدم والجريمة.



الفصل الثاني

الشعر بين «البنيوية» و «الشاعرية»

من الكلمات التي رمتها «الحداثة» و «البِنيويَّة» في متاهات مظلمة هي : «الشعر» و «الشاعرية» . كلمة الشعر كلمة مألوفة لنا ، لمجتمعاتنا ، لتاريخنا ، لأدبنا ، يعرفها المتعلم وغير المتعلم ، ويتخاطب بها الناس وهم أمة واحدة ، وتظل مداولات اللغة من الروابط الحقيقية للأمة .

لا ينكر أحد في أمتنا اليوم أن أعداءنا يسعون ليل نهار لتمزيق روابط الأمة ، بجميع الوسائل الممكنة ، بالحرب والسياسة والكيد يمزِّقون الديار، بالفكر والفلسفة وغيوم ذلك وضبابه ، يُشتِّتون القوى ، ويقطعون العرا بالإعلام ، بالمصالح ، حتى العلوم سخروها للفتنة والشر ، ولتقطيع الأمة وتمزيقها ، ولنشر الرذيلة والفتنة ، والشر والفساد في الأرض . والآداب لم تنج من عدوانهم ، فجعلوها مدية إجرام ، وأداة فتك ، ولكنها تنسل في الأمة انسلالا ، أو تدب فيها دبيباً أخفى من دبيب النمل ، حتى يقع في شراكها عقلاء بعد أن يُخدَّروا ، وصالحون يخلطون عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، ابتلاء منه سبحانه وتعالى ، ليمحص الناسَ وهو أعلم بهم ، ولتقوم الحجة على كل إنسان يوم الحساب . والكلمة ومدلولاتها من روابط الأمة ، يسعى كثيرون إلى قتلها وتمزيقها اليوم .

كلمة «الشعر» كلمة معروفة بين الناس . لم يكن أحد من العرب يسأل ما هو النثر وما هو الشعر . كان ذلك أمراً بدهياً في حياتهم . وفي العصور التالية أعانت قواميس اللغة على حفظ روابطها ، وتمتين عراها ، ومدِّ حبالها ، لتراصَّ الأمة على قرآنها وسنَّة رسولها ، تتدبرهما كما يأمر الله سبحانه وتعالى بذلك .

في القاموس نجد أن كلمة (شعر) تعني : عَلِمَ به ، وفَطِنَ له ، وعَقَلَهُ . فكلمة شَعَرَ ومشتقاتها مرتبطة بالوعي لا بالخدر ، بالفطنة لا بالبلادة ، بالعقل لا بالضياع ،

بالعلم لا بالجهالة. إنها مرتبطة بشيء كريم في أمة كريمة لها لغة كريمة، تحمل شرف المعنى والفعل. ولذلك كان الشعر ديوان العرب. ولولا هذه الظلال والمعاني لما كان كذلك، ولا جاز له أن يكون كذلك.

يقول قاموس المحيط (للفيروزبادي): «والشِّعْرُ غلب على منظوم القول، لشرفه بالوزن والقافية». فالعرب في كل تاريخها تعرف أن الوزن والقافية شَرَفٌ للشِّعر، وما قال أحد إنهما قيد يجب التخلص منه. فارتبط الشعر بذلك بالعلم والوعي، وبالوزن والقافية ارتباطاً متيناً. ذلك لندرك مدى ارتباط كلمة الشعر عند العرب، ومن ثَمَّ عند المسلمين، بالوعي والعلم، بالعقل والفطنة، بالوزن والقافية، بالشرف قولاً وفعلاً.

ولما جاء الإسلام يدعو الناس إلى التوحيد، آمن فريق من الناس وبرز عندهم الوعي والعلم والعقل والفطنة، بعد أن محَّصت الدعوة نفوسهم وعقولهم، ومحَّصت قلوبهم ومعادنهم. وكفر فريق من الناس بعد أن كشفت الدعوة مستور غَيِّهم وضلالهم، وخفيَّ جهلهم وفتنتهم، وعَمَهَ بصيرتهم. وقال كل فريق كلامه المنظوم بالوزن والقافية، فقسَّم القرآن الكريم الشعراء إلى قسمين: الشعراء الكافرون، والشعراء المؤمنون. ونزل هذا التقسيم وحياً مباركاً على محمد ﷺ:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

(الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٧)

فريقان من الشعراء، ونوعان من الشعر. أما الشعراء الكافرون: فإن الشياطين تتنزل عليهم، لأنهم أفّاكون آثمون، يلقون السَّمْع وأكثرهم كاذبون، ويتّبعهم الضالُّون الغاوون، وهم يضربون بشعرهم في كل واد، تائهون، يقولون

ما لا يفعلون. وهؤلاء يمكن أن يُحرِّفوا الكلام ويُشوِّهوا معانيه.

أما الشعراء المؤمنون: فإنهم يعملون الصالحات، يذكرون الله كثيراً، ينتصرون من بعد ما ظلموا. وأما الكافرون الظالمون فسيعلمون أنهم ينقلبون إلى أسوأ منقلب بكفرهم وغيهم وشعرهم.

فإذا كان هنالك شعر يمثل الضلالة والغيبوبة والانفلات، فلن يكون أبداً شعر المؤمنين. والمؤمنون يظل قولهم خيراً يصدر عن إيمان ويقين ووعي. أما القول الزخرف الذي يدفعه الغرور فهو وحي الشياطين، شياطين الإنس والجن، جعله الله باب تمحيص ليستمع إليه الكافرون الذين لا يؤمنون، وليرضوه، ثم ليقترفوا ماهم مقترفون. فهم أعداء النبّوة، أعداء الله:

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ (الأنعام: ١١٣)

هكذا تعرف اللغة العربية الشعر، وهكذا يصنّف القرآن الكريم الشعراء. وحتى لا يختلط الأمر على الناس في أي عصر من العصور، وحتى لا يحسب بعض الناس هذا القول أو ذاك شعراً، نزل قول الله سبحانه وتعالى حاسماً قاطعاً لا مجال للظن والفلسفة فيه:

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (يس: ٦٩ - ٧٠)

وكان رسول الله ﷺ كذلك لا يقول الشعر ولا يزنه. وقليلاً ما يروى عنه ﷺ أنه روى بيتاً من الشعر لأحد الشعراء موزوناً. وربما روى البيت فكسر وزنه. **ويروى عن (الخليل بن أحمد) أنه قال**: كان الشعر أحب إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام ولكن لا يتأتىّ له[1]. وإصابته الوزن أحياناً لا يعني أنه يعلم الشعر، فقد يأتي بعض الوزن في بعض كلام الناس فلا يكون شعراً، ولا يوجب ذلك أن

(١) تفسير القرطبي ج٨. (ص: ٥٤٩٦).

يكون قائله عالماً بالشعر. وقد يأتي بعض الوزن في القرآن الكريم، أو قد يأتي الوزن في بعض كلام الناس، فلا يكون ذلك شعراً، إلا أن يستقيم الوزن في جملة الكلام الذي يقال كله، يقصد به قائله نظم الكلام شعراً. فقوله سبحانه وتعالى: «وما علّمناه الشعر» لا تنفي القدرة على روايته وإنشاده، ولكنها تنفي علمه به علماً يجعله ينظمه نظماً. **ويبقى كلام رسول الله ﷺ نثراً مهما حمل من روائع البيان وسحره الحلال.**

وعندما تراوضت قريش فيما يقولون للعرب فيه إذا قدموا عليهم الموسم، فقال بعضهم نقول إنه شاعر. فقال أهل الفطنة منهم: والله لتكذبنّكُمُ العرب، فإنهم يعرفون أصناف الشعر، فو الله ما يشبه شيئاً منها، وما قوله بشعر. وقال (أنيس) أخو أبي ذر: «لقد وضعت قوله على أقراء الشعر (أى أنواعه وطرقه وبحوره) فلم يلتئم أنه شعر» وكان (أنيس) من أشعر العرب. وكذلك (عتبة ابن أبي ربيعة) قال لما كلّمه رسول الله ﷺ: «والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر».

ومن الطريف ما يروى عن المأمون أنه قال (لأبي علي المنقري): «بلغني أنك أمي، وأنك لا تقيم الشعر، وأنك تلحن. فقال: ياأمير المؤمنين: أما اللحن فربما سبق لساني منه بشيء، وأما الأميّة وكسر الشِّعر فقد كان رسول الله ﷺ لا يكتب ولا يقيم الشعر. فقال له: «سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزودتني رابعاً وهو الجهل، يا جاهل! إن ذلك كان للنبي ﷺ فضيلة، وهو فيك وفي أمثالك نقيصة. وإنما مِنعَ النبي ﷺ ذلك لنفي الظنة عنه، لا لعيب في الشعر والكتابة». ويؤكد هذا قوله سبحانه وتعالى: «وما ينبغي له»، حتى لا يقول قائل إن رسول الله ﷺ قوي على القرآن بما في طبعه من قوة على الشعر. فمنع الله سبحانه وتعالى عنه ﷺ الكتابة وقول الشعر حتى تكون النبوة آية جلية للبشرية كلها، لا يمسها ظن ولا شبهة، ولكنها حق أبلج.

هذه جولة سريعة في النظرة الإيمانية «للشعر» وأصله ودوره، بالإضافة إلى ما ذكرناه في الفصل السابق.

فإذا كانت اللغة العربية وأدباؤها يُعرِّفون الشعر كما رأينا، وإذا كان الإسلام ينظر إلى الشعر هذه النظرة الكريمة، النظرة التي تجعل منه كلمة طيبة، واعية، عاقلة، تنبع من العمل الصالح الطاهر، ومن ذكر الله ذكراً كثيراً، ومن انتصار الحق في الأرض ودفع الظلم، فكيف نقارن هذا الطهر والجمال بِشعرِ تدفعه مخدرات (بودلير)، وساقطات فجوره، وهوس مجونه، وضلاله وضلال أمثاله.

لا نستطيع هنا أن نعرض تفاصيل النظرية «الشاعرية» أو نظرية «البيان» كما يعرضها الدكتور الغذامي في كتابه «الخطيئة والتكفير»، ولكننا نستطيع أن نقف مع بعض الفقرات والجمل لنرى إشارات واضحة إلى بعض الأفكار.

يقول: «والنصُّ هو محور الأدب الذي هو فعالية لغوية انحرفت عن مواصفات العادة والتقليد، وتَلَبَّستْ بروح متمردة رفعتها عن سياقها الاصطلاحي إلى سياق جديد يخصها ويميزها»[1].

والسؤال: لماذا الانحراف؟ إننا ندعو إلى الاستقامة لا إلى الانحراف، وإلى الاستقامة على طريق نام غنيٍّ بالعطاء، يظل في كل عصر متصل مع العصر قبله، دون تمردٌ أو انحراف، وإنما هو نموٌ متصل، وأجيال مترابطة، تمتد على صراط مستقيم هو الحق. أما الباطل سواء أكان عادة أو تقليداً، قديماً أو جديداً، فإننا نتركه وننبذه. **فميزاننا إذن ليس هو مجرد قديم وجديد، ولا مجرد عادة أو حديث، ولكن ميزاننا هو هل الأمر حق أم باطل. ولمعرفة الحق من الباطل لنا ميزان واحد هو منهاج الله: لغة ونصاً وعلماً. إننا نتمرد على كل باطل، ونستمسك بكل حق. وهذا هو الأدب الذي ندعو إليه.**

كلمة «العادة والتقليد» أصبحت تثير لدى كثير من الناس الرغبة في التجديد والتبديل، رغبة كأنها ردود فعل نفسية، جعلت في أيدي الناس ميزاناً مضطرباً.

---

(١) الخطيئة والتكفير. (ص: ٦).

وانتشرت ألفاظ جديدة من خلال هذه المحاولات: التراث، الأصالة وكثير غيرهما. !
ثم دار الخلاف بين الناس حول تعريف هذه وتلك، وتعددت الآراء. ومن خلال هذه الخلافات تنسل أفكار ومبادىء تزيد اضطراب الميزان. ولذلك نقف عند النص السابق الذي أوردناه لنؤكد أننا لا ندعو لأدب يمثل «فعالية لغوية انحرفت عن مواصفات العادة والتقليد. . .» فهذه تعابير غير دقيقة من حيث الواقع، ولا تقدم تصوراً محدوداً. لذلك نقول إننا مع العادة والقديم، ومع النمو والتطور، ومع الجديد، ما دام يمثل أمراً حقاً لا باطلاً. وميزاننا في معرفة الحق ورفض الباطل هو منهاج الله قرآنا وسنة، ولغة منهاج الله وما حملته من مبنى ومعنى جعله الله بلاغاً للناس إلى يوم القيامة. فلا حاجة بنا إلى أن نخوض معركة التراث ولا الأصالة، ولكن علينا أن نقرر الميزان الذي نقيس به التراث والجديد، والأصالة والنمو.

وعندما يعرض (رومان ياكوبسون) «نظرية الاتصال» وعناصرها الستة، يعرض لنا نصاً يحتاج إلى روية وتوقف كذلك. إنه يقول:

«. . . ولكن كيف يحدث هذا؟ إنه يحدث من خلال حركة ارتدادية، ترتدُّ فيه (الرسالة) إلى نفسها. فالرسالة ـ كقول لغوي ـ تتجه عادة بحركة سريعة من باعثها إلى متلقِّيها وغايتها هي نقل الفكرة، وإذا ما فهم المتلقِّي ذلك انتهى دور المقولة عندئذ. ولكن في حالة (القول الأدبي) تنحرف الرسالة عن خطها (المستطيل). وتعكس توجه حركتها وتثنيها إليها، إلى داخلها، بحيث لا يصبح (المرسل) باعثاً، و (المرسل إليه) متلقياً، وإنما يتحول الإثنان معاً إلى فارسين متنافسين على مضمار واحد يضمهما ويحتويهما هو القول: أي (النص)، ويتحول القول اللغوي من (رسالة) إلى (نص)، ولا يصبح هدفها (نقل الأفكار) أو المعاني بين طرفي الرسالة، ولكنها تتحول لتصبح هي غاية نفسها، وهدفها هو غرس وجودها الذاتي في عالمها الخاص بها، وهو جنسها الأدبي الذي يحتويها. . . .»[1].

وأنا أقرأ العناصر الستة خيل إلي أنني أقرأ بحثاً في هندسة الاتصالات. ولكنا

---

(١) الخطيئة والتكفير: ص (٨) .

اعتدنا في هندسة الاتصالات أن نتدبر ونعي كل خطوة تتم لبلوغ هدف ثابت واضح محدد. فكما يعرض (ياكوبسون) : مرسل، ومرسل إليه، ثم سياق، ورسالة، ووسيلة وشيفرة. وبغض النظر عن سلامة التعاريف أو تناسقها مع الهندسة، فقد استوقفتني بعض التعابير:

«إنه يحدث من خلال حركة ارتدادية . . . » .

السؤال الأول: هو لماذا يحدث الارتداد. في جميع نظم الاتصالات كالهواتف والإذاعة وغيرها يمكن أن يحدث ارتداد للموجة (Reflection)، في نقطة لا يكون فيها توافق أو تناسق (Matching)، أو أن يكون السطح المستقبل نفسه يحمل طبيعة وقابلية الردّ أو العكس. المهم أن الارتداد يتم لسبب نعرفه، وفي حالة التوافق يكون الارتداد خسارة في الطاقة، نحاول تقليلها وعلاجها، أما هنا فما هو سبب الارتداد؟ الارتداد عيب نعالجه في الاتصالات.

والسؤال الثاني : هو أنه لماذا ترتد الرسالة إلى نفسها، وكيف يكون ارتدادها إلى ذاتها؟! إن ارتداد الشيء إلى ذاته أمر لا نتصوره في واقع الحياة، ويحتاج إلى مراجعة وإعادة تصور، فالارتداد أو الانعكاس يتم بين المرسل والشيء المرتد لا يرتد إلى نفسه أبداً.

والسؤال الثالث : هو لماذا ينتهي دور «المقولة» إذا فهم المتلقّي الرسالة؟! «الرسالة تتجه عادة بحركة سريعة من باعثها إلى متلقّيها وغايتها هي نقل الفكرة، وإذا ما فهم المتلقّي ذلك، انتهى دور المقولة عندئذ». لماذا؟! لماذا نسلم بهذا التصور، والحقيقة هي خلاف ذلك ؟! فالمقولة يفترض أن يستمر دورها، بعد أن يفهمها المتلقي، لأن هنالك مقولة وأناساً يتلقون. ولكن إذا لم يعد هنالك متلَقّ فإن دور المقولة ينتهي، لأنها تموت أو تختفي، ولا يعود للحياة حاجة إليها، أو إذا فقدت الرسالة مدلولها.

والسؤال الرابع : هو لماذا تنحرف الرسالة عن خطها (المستطيل) في حالة

القول الأدبي؟! لماذا هذا الانحراف مع القول الأدبي، ولماذا لا يستقيم الأدب مع السنن في الحياة، ومع الحق، فلا ينحرف؟!. ولماذا (الخط المستطيل)؟! وكذلك لماذا تعكس الرسالة في حالة (القول الأدبي) حركتها وتثنيها إليها، إلى داخلها، بحيث لا يصبح المرسل باعثاً، والمرسل إليه متلقياً؟! **ثم يقول** : «ويتحول القول اللغوي من (رسالة) إلى (نص)، ولا يصبح هدفها (نقل الأفكار) أو المعاني بين طرفي الرسالة، ولكنها تتحول لتصبح هي غاية نفسها».

عندما كانت المقولة رسالة كان هدفها نقل الفكرة. ثم تحولت إلى (نَصّ) بطريقة عجيبة لا تكاد تمسك بطرف من هذه الطريقة: تنعكس وترتد (على نفسها)، ويموت المرسل والمرسل له، وتفقد غايتها لتصبح هي غاية نفسها! كيف تم الارتداد مخالفاً لسنن الكون والحياة، كيف تحول ارتداد الشيء إلى نفسه؟! أذلك شيء لا ضرورة لفهمه ولكن علينا التسليم به؟! ولماذا فقدت الرسالة دورها ووظيفتها؟! هل انتهى العالم؟! هل مات البشر؟! كيف يعيش النص على نفسه وغايته في نفسه؟! هل هذا هو الذي أشرنا إليه في فصول سابقة مما جاء به **(جوتيه)** **(ولوكنت دوليل)**؟! **فجوتيه** نادى بنظرية الفن للفن، **ودوليل** قال إن الأدب لا غاية له لأنه غاية في حد ذاته.

بمثل هذا التصور نكسر في الميدان أسلحتنا سلاحاً سلاحاً، حتى نكسر الكلمة واللغة والأدب، فلا يعود لهذا وذاك غاية في الحياة فهو غاية في نفسه، «انحرف وارتد على نفسه». فلنرمه من أيدينا، ولنجابه عدونا بدون سلاح، أما عدونا، اليهود مثلا، فقد أحيوا لغة ميتة وجعلوا أدبهم يخدم أهداف شعبهم، وأهداف سياستهم، على تاريخ طويل طويل، ينظمون القصائد، ويرددون الأناشيد من أجل صهيون، ويستغلون الأدب في لغتهم وفي سائر لغات العالم لينقلوا «الرسالة» إلى «المتلقي»، «إلى جميع شعوب الأرض»، الممتدة على عصور طويلة جداً حتى يومنا هذا، دون أن ترتد الكلمة إلى نفسها، ولكنها تمضي إلى المتلقي!

لماذا يراد لنا أن نفقد أسلحتنا؟! لماذا يراد لنا أن يفقد الأدب غايته؟! لماذا نظل

نخضع لهوس الغرب كأنه شيء مقدس، ولا نرسم لأدبنا وظيفته ومهمته ودوره من واقعنا، ومن ميدان معركتنا، ومن عقيدتنا، فأدبنا أعلى وأسمى، ولغتنا أعظم وأجل، ورسالتنا في الحياة أعز وأغلى.

ثم يقول بعد أن يتحدث عن السياق والشيفرة وغيرهما:

«ما رأيناه في المبحث السابق ليس حدثاً شعرياً، ولكنه بياني يحدث لكل نص أدبي مهما كان جنسه. ولقد تنوَّعتّ أسماء هذا الحدث الانحرافي الساحر. ففي العربية كانت له أسماء مثل «البيان» ومنه الحديث الشريف: **إنّ من البيان لسحراً**، وبه سمى الجاحظ كتابه «البيان والتبيين». وله أسماء أخرى كالفصاحة والبلاغة، وسمّاه (الجرجاني) «بالنظم». وهذا الأخير هو أرقى المصطلحات النظرية في دقته الفنية وأبعاده البيانية. أما الفلاسفة ..... فقد أخذو بمصطلح التخييل ... الخ»[1].

إن هذه الأسماء في اللغة العربية تدل على الوضوح، واستقامة المقصد، وعدم الانحراف والارتداد. إن أهم ما يميز هذه التعابير هي إفهام المتلقي، وبلوغ فكره وقلبه، وإقناعه. ولكل لفظةٍ معنى وظل يختلف عن اللفظة الأخرى، ولكنها كلها تركز على وجود غاية لها ومهمة تؤديها، دون أن ترتد على نفسها. وعندما يبلغ تأثير البيان في المتلقي درجة عالية، شبّه الرسول ﷺ سرعة هذا التأثير وقوته بالسحر، دون أن يكون سحراً. فهذا من أساليب اللغة العربية. واستخدام الفلسفة للفظة «التخييل»، كما أورده الكاتب، لا ينسجم مع سياق المصطلحات الأخرى التي أوردها، كالبيان سواءً أكان شعراً أم نثراً. أما لفظة «التخييل» فقد جعلها السياق خاصة لتخص الشعر وحده من ناحية، كما هو واضح من تعريف (القرطاجني): «... أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر المخيل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه». ومن ناحية أخرى فقد جعلها نص الكاتب عامة، فوقع التضارب.

ويظل البيان والفصاحة والبلاغة تحمل مدلولات بيِّنة، أو مدلولات فصيحة،

---

(١) المصدر السابق: ص (١٦).

أو مدلـولات بليغة تبلغ بها النفس والقلب، سواء في الشعر والنثر. وتظل المعاني واضحة جلية لكل لفظة، فإن لم يدركها السامع فإنه يبحث عنها ما دام لها دور في مهمة النص ووظيفته. ولا يمكن أن تكون الكلمات تائهة مفرغة من معانيها.

يقول الدكتور الغذامي:

«وعـدم معـرفة السياق الأدبي، ومعه نظرية الأجناس الأدبية، أوجدت في ثقافتنا اليوم أناساً يقرأون الشعر (والحديث منه خاصة) مثلما يقرأون المقالة. ويطلبون في الشعر سياقاً مثل سياق الحديث الصحفي. فيطلبون فهم كل كلمة في الشعر وكل جملة فيه بمعنى محدد مثل ما يجدون في معاجم اللغة....»[1].

نعم كل رجـال العـربية يريدون أن يفهمـوا ما يقرأون نثراً أو شعراً، فإذا أعجزتهم لفظة عادوا إلى القاموس. هذا هو أدبنا وخلافه ليس أدباً أبداً. لا نريد أن نخدع الناس ولا نريد أن يخدعنا الناس. نريد أن نفهم، فنقبل أو نرفض، وأن نزن الكلام كله بميزان أمين، حتى نطمئن إلى أن الأدب يؤدي وظيفته في بناء الأمة، وبناء حياة الإنسان. لماذا إذن تنشر الصحف اليومية شعراً أو نثراً؟! هل هو للخاصّة فقط الذين لا يريدون أن يفهموا، أم للناس عامة لكل من يريد أن يفهم؟! إننا نريد أن نفهم الكلمة والجملة والنص كله. وحق الإنسان أن يفهم ما يقرأ، حق منحه الله إياه وواجب فرضه عليه.

أمـا عنـاصر القول الستة فليست أمراً جديداً. ولكن المفهوم الذي تطرحه الحداثة هو الجديد. وربما اختلفت التسميات من عصر إلى عصر، ومن شعب إلى شعب. فلابد دائماً من قائل، ومن مقول له، ومن مادة القول، ومن مناسبة أو وسط أو جو يسير فيه أو بيئة، ولابد من أسلوب يختص به هذا القول أو ذاك. ولكن هذه أو غيرها إلى أين تقودنا؟! وكيف سترتبط أجيالنا كلّها في نموها الصاعد، وتطورها البنّاء، دون أن تنقطع الوشائج والروابط التي أمر الله بها أن توصل؟! وهذه مهمة أساسية للكلمة واللغة والأدب.

---

(١) المصدر السابق: ص (١٢).

﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (البقرة : ٢٧)

وفي سورة الرعد مقارنة جلية بين تصورين، وبين مذهبين في الحياة، فلنتأمل ولنتدبر خاشعين لله :

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾

(الرعد : ١٩ ـ ٢٢)

هذا فريق، أما الفريق الآخر فيصفه الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الرعد : ٢٥)

نريد الأدب الـذي يصـل أجيال الأمـة بروابطها الإيمانية، يربط عصورها وشعوبها وأمجادها. نريد الأدب الذي يعيش مع الأمة كلها يصل ماضيها بحاضرها ومستقبلها. كلمة «Poetics» يرد تعريفها على أنها «إتحاد الأسلوبية والأدبية، حين يتضافران لتكوين مصطلح واحد يضمهما ويوحدهما ثم يتجاوزهما»[٢]. ولقد اختار (الدكتور الغذامي) لفظة «الشاعرية» ترجمة أو مقابلة للكلمة الأجنبية، ليأخذ بها «لتكون مصطلحاً جامعاً يصف اللغة الأدبية في النثر والشعر»[١].

إن في هذا المصطلح مزالق كثيرة. وأهمها هو ما كنا نخشاه من أثر «الشعر الحرّ» حين يستدرجنا قبوله إلى اعتبار كثير من نصوصنا الأدبية شعراً، في الوقت الذي

(١) المصدر السابق. (ص: ١٨).
(٢) المصدر السابق: ص (٩ ·

يقرر أدبنا وتاريخنا أن هذا النص أو ذاك ليس بشعر، ويقرر ذلك أيضاً ديننا وعقيدتنا.

والاستخدام الشعبي مهما امتدَّ لا يجوز أن يفرض نفسه على أدبنا حين يصطدم مع العقيدة. وهنالك تعابير أولى بالاستخدام وأقرب للمعنى وأصح في الاتجاه. والتسمية الأجنبية ذاتها (Poetics) ليست موفقة في غايتها. ولكنها قد لا تصطدم مع عقيدتهم، بالرغم من أنها تعمم شيئاً خاصاً. وكما نفهم فإن البحث يدور حول «اللغة الأدبية في النثر والشعر». فتعميم اللغة الشعرية واصطلاحها على الأدب كله، لا يحمل دقة الاتجاه العلمي وعدالته. ولقد سبق في الفصل السابق أن ذكرنا أن للنثر جماله الخاص به، وللشعر جماله الخاص به، وليس من الحق أن نعتبر لفظة «الشاعرية» تصف اللغة الأدبية في كليهما، لتكون الشاعرية هي التي تجعل «الرسالة» أو «النص» عملاً فنياً. ويمضي تعريف الشاعرية في الكتاب بأساليب مختلفة نورد هنا أهمها: «فالشاعرية إذن هي الكليات النظرية عن الأدب، نابعة من الأدب نفسه، هادفة إلى تأسيس مساره فهي تناول تجريدي للأدب مثلما هي تحليل داخلي له»(١).

ثم يقول: «يعتمد النص الأدبي ـ في وجوده كنص أدبي ـ على شاعريته، على الرغم من أن النص يتضمن عناصر أخرى، ولكن الشاعرية هي أبرز سماته وأخطرها(٢).

وفي النهاية يقول الدكتور الغذامي:

«ولذا فإن الشاعرية انتهاك لقوانين العادة، ينتج عنه تحويل اللغة من كونها انعكاسات للعالم أو تعبيراً عنه أو موقفاً منه، إلى أن تكون هي نفسها عالماً آخر، ربما بديلاً عن ذلك العالم. فهي إذن (سحر البيان) الذي أشار إليه الأثر النبوي الشريف. وما السحر إلا تحويل للواقع وانتهاك له، يقلبه إلى (لا واقع). أو هو (تخييل) على لغة القرطاجني، أي تحويل العالم إلى خيال»(٣).

---

(١) المصدر السابق: ص (٢١). (٢) المصدر السابق: ص (٢٢). (٣) المصدر السابق. (ص: ٢٦).

لقد بدأت الفكرة بمحاولة اختيار لفظة مناسبة، لا يكاد القارىء يشعر بأي خطر منها. وربما أثرت اللفظة في نفسه فأحبها ورضي عنها. ثم تصبح اللفظة عامة للشعر والنثر، ويكاد يقنع نفسه بأن النثر يحمل أحياناً ما يحمله الشعر من خصائص أدبية، وينسّى أن كلمة الشعر في اللغة العربية بخاصة وفي اللغات الأخرى بعامة، لها خصائص مميزة لها من النثر، وينسى أن تمييز النثر من الشعر قاعدة رئيسية في أدبنا وفي فكرنا وفي لغتنا وفي ديننا. ثم تمتد الخصائص حتى تصبح «الشاعرية» هي أهم الخصـائص الأدبية في النثـر والشعر، وإذا هي الكليات النظرية للأدب، تؤسس مساره وتحلل وتقيم وتضع وتفعل ما تشاء.

ثم تأتي الخطوة الأخيرة، وهي التي كنا نحذرها منذ البداية، والتي كنا نود أن لا نستدرج لها، ألا وهي أن تصبح «الشاعرية»، ومن ثم الأدب كله، ومن ثم النثر والشعر، يختلطان حتى لا تكاد تميز أحدهما من الآخر، فكلاهما أصبح : «انتهاكاً لقوانين العادة»، . . . . تصبح «اللغة عالماً آخر» «ربما تصبح بديلاً عن العالم الذي نحن فيه». هي غيبوبة، وخدر، وجرعة من المخدرات القوية تسري في العروق حتى يغيب الإنسان عن هذا العالم كله، فيحلّق في عالم جديد. سَلُوا جميع الخبراء من أطباء، وعلماء نفس، وأدباء، وعلماء، سلوهم جميعاً: ماذا يسمى هذا التحول والتبدل؟! أليست هي غيبوبة (أدونيس) التي عرفناها في الفصول السابقة؟! أليست هي غيبوبة وخدر (كمال أبو ديب)؟! أليست هي الخيال اللاسلكي الذي دعا إليه (المستقبليون) أليست هي الكلمات الحـرة التي دعوا إليها، الكلمات المتفلّتة؟! من كل قيد وقاعدة.

وإذا استطاع القارىء الكريم أن يجمع في قلبه ما قرأه في الفصول السابقة، ليوفر علينا الإعادة والتكرار، إذا استطاع ذلك فسيرى شدة الأمر، حتى يكاد يصاب بالذهول. غياب وغيبوبة، وخدر وسكر، فلماذا يفرض هذا علينا كله، في وقت تكاد المآسي وحدها تطير بالقلوب والأكباد.

هذه الغيبوبة، والخروج من هذا العالم إلى عالم آخر تصوره الأوهام والأحلام،

يجعله (الـدكتـور الغـذامي) كأنـه هو سحـر البيان الذي أشار إليه الأثر النبوي الشريف. لابد من وقفة. لابد من وقفة أمينة صادقة مع أنفسنا أمام جلال الحق في أحاديث رسول الله ﷺ. **فالنبي الكريم ﷺ لم يقصد السحر ذاته بكلامه هذا. لم يقصد** أن البيان سحر حقيقي، وهو الذي نهى عن السحر في أحاديثه ﷺ. **إن الذي عناه الرسول الكريم هو أنه من البيان ما يبلغ به وضوحه وقوته وجماله وصحة معانيه درجة عالية تقنعك بقبوله وقبول حجته، دون أن تجعلك تفقد وعيك، أو تغادر العالم إلى عالم الغيبوبة.** إن هذا التعبير أسلوب من أساليب اللغة العربية. ولذلك لم يكن الرسول ﷺ يعني أن البيان تحويل للواقع وانتهاك له، أو أنه يقلبه إلى (لا واقع)، أو هو (تحويل العالم إلى خيال)!

وحين نـعـرف المنـاسبـة التي قـال فيها رسـول الله ﷺ قـولـه هـذا تنجلي الأمور عن حقٍّ أبلج:

عن عبدالله بن عمر قال: قدم رجلان من المشرق (هما الزِّبْرقان وعمرو بن الأهتم) فخـطبـا - فعجب الناس لبيانهما - فقال رسول الله ﷺ: «**إنّ من البيان لسحراً، أو إن بعض البيان لسحر**». (رواه أبو داود)[1]

ويروي لنا الجاحظ في كتابه البيان والتبيين تفصيل ذلك: «.... لأنّ النبي ﷺ لما سأل عمـرو بن الأهتم عن الـزبرقان بن بدر قال «مانع لحوزته، مطاع في أدنيه». فقال الزبرقان: «أما أنه قد علم أكثر مما قال، ولكنه حسدني شرفي» فقال عمـرو: «أما لئن قال ما قال فوالله ما علمته إلا ضيق الصدر، زمر المروءة (أي قليلها) لئيم الخال حديث الغنى». فلما رأى أنه خالف قوله الآخر قوله الأول، ورأى الإنكار في عيني رسول الله قال: «يارسول الله! رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت، وما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الثانية. فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «**إن من البيان لسحراً**»[2]

(١) سنن أبي داود: كتاب الأدب (٣٥). باب (٩٤) حديث (٥٠٠٧) ج٥ (ص: ٢٧٥).

(٢) البيان والتبيين. ج١ (ص: ٤٤).

فواضح أن قول رسول ﷺ يصف قوة الحجة وسلامة المنطق، وبيان المعنى، وتبيين الغاية، دون أن يكون هناك انتقال من عالم إلى عالم، ودون أن يكون هنالك لا وعي، وغيبوبة!!

والعرب ترى بلوغ المعنى وإبلاغه هو البيان، وهو الجمال، وهو أعلى درجات الأدب، ومن أجل ذلك تقوم الأساليب، وتدور الألفاظ، وتنهض التعابير. ولنسمع إلى ما يقوله العرب في ذلك:

يقول ثمامة بن أشرس فيما يصف جعفر بن يحيى: «.... ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك»[٢].

ويقول الجاحظ في كتاب البيان والتبيين:

«والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ... لأن مدار الأمر والغاية التي يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع»[٣].

ولذلك كان حديث رسول الله ﷺ يثبت هذا المعنى حتى يظل الكلام يصل الناس ويربطهم بالوضوح والإفهام.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من تعلم صرف الكلام ليسبي به قلوب الرجال أو الناس، لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً»**. (رواه أبو داود)[١]

إذن غيبوبة الشاعرية أمر نهى عنه الإسلام نصاً.

والقرطاجني لم يقصد بالتخييل مفارقة العالم إلى عالم آخر، ولا تحويل الواقع وانتهاكه. وإذا جاز انتهاك الواقع، فهو الواقع الباطل الفاسد، لا لنهرب منه إلى

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص(٧٩).

(٢) المصدر السابق: ج ١ ص (٥٥).

(٣) سنن أبي داود: كتاب الأدب (٣٥). حديث رقم (٥٠٠٦).

«خيال»، ولكن لنحوله إلى واقع الصدق والخير والحق والجمال.

يقول الدكتور الغذامي:

«النص الأدبي وجود عائم . . . . !»

هذه الاصطلاحات والتعابير تقودنا مباشرة، أو على صورة تدريجية، إلى فياف وآفاق مظلمة، نكاد نفقد فيها ذاتنا، ووجودنا، وقدرتنا على الإدراك:

«وجـود عائم»، «لا بداية ولا نهاية»، «ارتـداد الرسـالـة على نفسهـا»، «انحراف»، «انتهاك الواقع وتحويله إلى لا واقع»، «تحويل العالم إلى خيال»، وتعابير أخرى لا تكاد تقع تحت حصر. . . . . !

لم يكن هدف هذا البحث استعـراض تاريخ الحـداثـة ومنـاقشـة نظرياتها وامتدادها. ولكن الهدف كان استجلاء اتجاه الحداثة، والأسس التي تقوم عليها، والأهداف التي تسعى إلى بلوغها، على أن يتم ذلك كله من كتب الحداثة ذاتها وكتب رجالها، لا مما يكتب عنهم غيرهم، وكذلك على أن يتم رد ذلك كله إلى منهاج الله قرآناً وسنة، إلى التصور الإيماني.

ونهدف كذلـك إلى أن نعـرض نقاطاً أساسية في التصور الإيماني عسى أن تلمس قلوب بعض رجـال الحـداثة، فتلين قلوبهم فيعيدون الحساب والتقدير والله هو المولى وهو الحفيظ.

اللهم إنا نعوذ بك من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، نستغفره ونستعين به، ونلجأ إليه في يقين ورهبة وخشوع. والحمد لله رب العالمين.

الباب الرابع

امتداد الحداثة
بين الشرق والغرب

الفصل الأول

ركائز أساسية في الحداثة والبنيوية

كان الفكر الشيوعي في الأربعينات يجاهر بالكفر والإلحاد ومحاربة الدين. كان يحمل ويعلن اتجاهاً واضحاً. وبعد عشر سنين تقريباً أصبحت تشعر أن أسلوبهم أخذ يتغير في بعض ديار المسلمين على الأقل. لقد أصبح بعضهم يقول إننا نظام اقتصادي لا علاقة لنا بالدين، بحيث يمكن أن تكون شيوعياً مسلماً. لقد خدمهم هذا الأسلوب أمام الرأي العام الذي لا يعرف حقيقة الشيوعية، حين تبهره ألفاظ العدالة الاجتماعية، والطبقة العاملة، والظلم الاجتماعي. ولقد خدمهم كذلك واقع اجتماعي سيء، وظروف سياسية مؤلمة، وجدوا فيها فرصة واسعة لتغطية جزء واسع من جذور فكرهم. ولقد خدمهم كذلك جهل واسع بين المسلمين بحقيقة دينهم، وبالتصور الإيماني الشامل، وبالعلاقات الإيمانية وروابطها، وبالميزان الإيماني الذي يجب أن توزن به قضايا الفرد والمجتمع والأمة. كل ذلك خدم النشاط اليساري حتى خطفوا الشعارات الوطنية والفكرية في مواقع كثيرة، فانساق وراءهم أعداد وأعداد، يشدهم إليهم آلام نفسية، وردود فعل حقيقية، جعلتهم لا يدركون خطورة الاتباع أو لا يحسون بأنهم يجرون وراء شر مغطى.

إن الفكر الشيوعي فكر إلحادي في جذوره وساقه وفروعه وثماره. إنه كفر من رأسه إلى أخمص قدميه. إن المادية الجدلية ذاتها تقوم كلها على أساس إنكار وجود الله، إنكار وجود الخالق. وفي حالة الإقرار بوجود الله الواحد بأسمائه الحسنى، تنهار المادية الجدلية كلها، وتنهار المادية التاريخية، وتنهار المثالية معهما كذلك.

إن البيان الشيوعي (المانفستو) ينص نفسه على إلغاء الدين من حياة الإنسان. وإن الممارسة الشيوعية الواقعية كانت برهاناً أوسع على ذلك كله.

ولا نقـول إن الحداثة والبنيوية تنحصر في فكرها في منطقة معينة تتبع لها. فالمادية الجدلية كما سنرى دفع بها أناس محدودون، وانطلقت في تطبيقها من أرض محددة ثم انتشرت. ولكن الحداثة كانت ملتقى كل مذهب منحرف، كل مذهب يحارب الإسلام، كل عدو مجاهر بعدائه. وحملت هذا التنوع في المظهر بصورة جلية في بلادنا، حيث تجاوزت الإقليمية في ظاهرها، وتجاوزت القومية، وتجاوزت الدين، واجتمعت كل مظاهرها على حرب واضحة على الإسلام.

فالرأسمالية التي يحسبها الناس عدوة للشيوعية والمادية الجدلية، لا تخرج كثيراً عن الشيوعية في محاربتها للتوحيد والإسلام. إنها تحمل من مظاهر الشرك شيئاً كثيراً جداً. لقد ألغت الدين في بلادها، ونصت على أنها بلاد علمانية في دساتيرها، ولكنها ظلت تستغـل الـدين خارج بلادهـا لدعم عدوانها وظلمها وفسادها. إنها كذلك أبـاحت في بلادها وفي الأرض كلها جميع المنكرات والكبائر والفواحش، وجعلت الفكر والأدب يحمل هذه الفوضى والظلم، ويدعو لها تحت شعار براق كاذب هو حرية الفرد. هناك في عالم الرأسمالية يسحق الإنسان سحقاً، تسحق آدميته، تحت شعار الديمقراطية وحرية الفرد المقدسة. وهناك في الشيوعية يسحق الإنسان تحت شعـار حقـوق الـطبقة العاملة وديكتاتوريتها. يسحق الإنسان هناك وهناك، فلا عجب إذا كانت الهجمة الشرسة على الإسلام تجمع ما يعتبره الناس ضدين.

ولكننـا نركـز على المـادية الجدلية لأنها كانت أكثر وقاحة في محاربتها للدين وإعـلانها الكفـر والإلحـاد، ولم تتخـذ لنفسها غطاءً يستر قبح سوءاتها، إلا حين يضطرها الواقع لبلوغ شر أكبر. أما الرأسمالية فقد حاولت أن تضع خرقا بالية لتستر عوراتها وسوءاتها، ولكنها ما أفلحت. وبقي في هذه زخرف كاذب يغري النفوس المريضة، ويظل الإشراق الجلي، والطلعة الصادقة هنا في النبوة العظيمة والإسلام العظيم، طهراً خالصاً، وصفاء نقياً.

لقد وجد الشيطان جنوده هناك وهناك، في الشرق والغرب، ينفث الضلال والفتنة، وينفخ الكبر والغرور، وينشر التيه والظلام، وامتد جنوده في الأرض كلها،

ابتلاء من الله سبحانه وتعالى ليمحص الله بذلك قلوب الناس وهو أعلم بهم، ولتقوم عليهم الحجة من كلمتهم، ونجواهم، وخطوتهم، وعملهم، فلا يفتن إلا مريض القلب، ولا يزيغ إلا من غلبه هواه، ولا يسقط في الشراك إلا من دفعته نفسه إلى الهلاك.

ونجا من آمن واتقى، وصدق الرسل واتبع، وبذل لله وأعطى، وجاهد في سبيل الله جهاداً حقاً، ودق أبواب الجنة في سعيه دقاً. فما بعث الله نبياً برسالته فبلغها الناس وتلاها عليهم، إلا هب الشيطان وجنوده يلقون من الفتنة ما يرجون به إضلال الناس. ولكن الله أرحم بعباده المؤمنين، فينسخ الله سبحانه وتعالى برحمته ما يلقي الشياطين، ويحكم آياته وهو الحكيم العليم، فيفتن المفتونون، وينجو المتقون.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٤ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥﴾

(الحج : ٥٢ ـ ٥٥)

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝١١٢ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ۝١١٣ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝١١٤ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١١٥﴾

(الأنعام : ١١٢ ـ ١١٥)

فيمكن أن تجد في الحداثة نَفَساً من الغرب أو نَفَساً من الشرق، ولكن جذورها تظل متصلة بالانحراف.

ليس الهدف هنا أن أتحدث عن الشيوعية، ولكن الهدف أن أبرز أسلوباً واحداًمن أساليب الشيوعية اعتمدته في مرحلة من مراحل عملها، في عدد من البلاد والأقطار، استغلت من خلاله سوء الأوضاع، واضطراب الواقع، وحلول النكبات والمصائب لتدافع عن باطل تخفيه الشعارات. ولا عجب فهذا أحمد محفل في حوار نشرته مجلة الوطن العربي في العدد ٦٩ ـ ٥٩٥ يوم الجمعة ١٩٨٨/٧/٨ م في الصفحة (٢٧)، يقول الحوار:

«هل أنت ملحد؟» «أنا مؤمن!» «بمن؟ بماركس ولينين؟»« «مؤمن بالله وكتبه السماوية ورسالته. ولا يوجد هناك ما يمنع الشيوعي أن يكون مؤمناً ومسلماً يمارس الفروض جميعاً».

نقول: إما أن السيد أحمد محفل لم يدرس الشيوعية ولا يعرفها، وإما أنه لم يدرس الإسلام والقرآن والسنة فلم يدر ما معنى الإيمان بالله، وإما أنه يجهل هذا وذاك! وإما يناقض نفسه. ولو كان حقاً يؤمن بالله واليوم الآخر لكانت إجابته خلاف ما ذكر، لكانت أكثر وضوحاً وأكثر دقة. فالإيمان بالكتب السماوية هكذا على إطلاقه لا يحمل صفاء الإيمان ووضوحه. فالمؤمن يؤمن بأن التوراة والإنجيل في أصلهما من عند الله، ولكن يؤمن كذلك بأن القرآن وحده هو الذي تعهد الله بحفظه، وبأنه مهيمن عليها كلها، وأنه بعد نزوله هو وحده الذي يعمل به.

ولن يكون غريباً أبداً أن يلجأ كثيرون ممن يحاربون الإسلام إلى مثل هذه الأساليب. والرد الأقوى على مثل هذه الأساليب هو بناء المسلم الواعي، المسلم المتمسك بقرآنه وسنّة نبيه إيماناً وعلماً وتدبراً. المسلم الواعي لواقعه وعياً نابعاً من إيمانه الصادق وعلمه الثابت، فلا يخدع بقول عائم، ولا يفتن بكلام منمق.

فمن أول مظاهر نشاط ميشيل عفلق في سوريا محاضرة ألقاها في مدرج الجامعة السورية عن محمد ﷺ.

لقد تحدث عن محمد العربي العبقري (ﷺ)، وأفاض في شرح مظاهر عظمته وعبقريته، ولكنه لم يتحدث عن محمد النبي الأمي، الرسول الذي بعثه الله رحمة للعالمين. لقد تحدث عن محمد البشر، دون أن يطرق أبواب عظمة النبوة.

ولقد ساق كلامه بأسلوب منمق، مثير للعواطف، محرك للرأي العام، حتى ما كاد يشعر أحد أنه أغفل النبوة. فمن خلال ضباب العاطفة الكثيف، من خلال الحماسة والانفعال، ضاعت الرؤية وانسلت فتنة واسعة.

فانبهر عدد غير قليل من الناس في ما قال ميشيل عفلق عن محمد ﷺ، واندفع عدد غير قليل بهذه العاطفة الساذجة ينضمون إلى فكر بعيد عن الإسلام، عدو للإيمان.

وقبل أن يغادر ميشيل عفلق سوريا، نشرت الصحف له تصريحاً واضحاً يقول فيه ما معناه: إن اشتراكية الحزب العربي الاشتراكي هي الاشتراكية العلمية، هي اشتراكية كارل ماركس.

ابتدأ إذن ميشيل عفلق نشاطه بالإيحاء للناس أنه يؤمن بمحمد ﷺ، دون أن يقول ذلك، ولكن من خلال مدح عبقريته البشرية. وختم نشاطه في سوريا، بعد أن أنهى مهمته، بالانتهاء إلى كارل ماركس، بوضوح وجلاء، لا بإيحاء مزيف.

إن تقدير الأمر على ضوء الظروف التي تحيط به، يجيز هذه الميكيافيلية ويدفعها بين الناس دفعاً. إن استباحة تزوير الحق وإغفاله، وتحويره وتبديله، أسلوب مارسه الفكر اليساري بصورة واسعة سبقت غيرهم وزادت عليهم.

نستطيع أن نستفيد من تجارب أمتنا في تاريخها العظيم ونحن نرسم خطوات المستقبل إلى مجد عظيم من أمجاد الإيمان، وعظمة الإسلام.

حتى نرى مدى العلاقة بين فكر وفكر، نعتقد أن أصدق الأساليب وأعدلها هو أن نضع النصوص جلية من أصول هذا الفكر وذاك، فعندئذ يتضح مدى الافتراق أو التلاقي.

نعود هنا لنورد نصوصا من كتب رجال الحداثة مما سبق لنا أن عرضناه وشرحناه وعلقنا عليه. نعود نعرض بعضها هنا دون تعليق واسع، عسى أن يكون في تقارب النصوص ما يعين القاريء على أمانة المقارنة وعدالتها.

يقول أدونيس:

«فان القصيدة الجديدة..... من هذه الناحية تركيب جدلي رحب وحوار لا نهائي بين هدم الأشكال وبنائها.......»[١].

«والشاعر يطمح أن يكون وأن يبقى ثورة دائمة ضد التقليد ـ الثبات..... يقتلع الإنسان ويرميه في بوتقة التحول حيث لا يعود له يقين إلا يقين الإنسان ـ الكل الكون.... يقتلع الإنسان وطنه الشعري، والتحول يفترض الذروة الهاوية، كل ذروة جزء من الهاوية.... الذروة الهاوية، الماء النار، الرفض القبول..... هذا ما يعطي لهذه الغنائية نفس النبوة.......»[٢].

«تجاوز الماضي..... الأشكال والمقاييس والمفاهيم التي نشأت عن أوضاع وحالات مرتبطة بزمانها ومكانها وبات من الضروري أن يزول فعلها......»[٣].

«الله في التصور الإسلامي نقطة ثابتة، متعالية، منفصلة عن الإنسان. التصوف ذوب ثبوت الالوهية، جعله حركة في النفس في أغوارها. أزال الحاجز بينه وبين الإنسان. وبهذا المعنى قتله (أي الله) وأعطى للإنسان طاقاته.... وهذا السكر نابع من قدرته الكامنة على أن يكون هو والله واحدا. صارت المعجزة تتحرك بين يديه»[٤].

«لقد انتهى عهد الكلمة ـ الغاية .... فتفرغ الكلمات من معانيها الموضوعة، الموجودة مسبقا في المعاجم أو على الألسنة .....»[٥]

هذه نماذج علقنا عليها في صفحات سابقة. هي لأدونيس سادن الحداثة

---

(١) مقدمة في الشعر العربي: ص (١١٤).
(٢) المصدر السابق: ص (٢١).
(٣) المصدر السابق: ص (١٣٤).
(٤) المصدر السابق: ص (١٣١).
(٥) جدلية الخفاء والتجلي: ص (٧ ، ٨).

وكاهنها الكبير. وكل نص لم يعد بحاجة الى تعليق فهو يكشف عن خباياه بنفسه.

ومن النصوص التي سبق عرضها للدكتور كمال أبوديب:

«ليست البنيوية فلسفة ولكنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود. ولأنها كذلك فهي تثوير جذري للفكر وعلاقته بالعالم وموقعه منه وبازائه . . . . ولأنها كذلك تصبح البنيوية ثالث حركات ثلاث في تاريخ الفكر الحديث يستحيل بعدها أن نرى العالم ونعاينه كما كان الفكر السابق علينا يرى العالم ويعاينه. مع ماركس ومفهومي الجدلية والصراع الطبقي، بشكل خاص، أصبح محالا أن نعاين المجتمع كما كان يعاينه الذين سبقوا ماركس. ومع الفن الحديث وبعد أن رسم بيكاسو كراسيه ـ كما يعبر روجيه غارودي ـ أصبح محالا أن نرى كرسياً كما كان يراه الذين سبقوا بيكاسو. ومع البنيوية ومفاهيم التزامن، والثنائيات الضدية، والإصرار على أن العلاقات بين العلامات، لا العلامات نفسها، هي التي تعني، أصبح محالاً أن نعاين الوجود ـ الإنسان والثقافة والطبيعة ـ كما كان يعاينه الذين سبقوا النبيوية»[1].

ويقول كذلك:

«وبهـذا التصور أيضاً، فإن طموح هذا الكتاب ثوري تأسيسي، وفي الآن نفسه، رفضي نقضي»[2].

ويقول كذلك:

«. . . . . إذ أن هذا الشعر يجسد تجربة فذة في انغماسه المطلق في رؤيا الخمرة وإغراقه في الرفض المطلق للتراث الأخلاقي والديني. فأبو الهندي على النقيض من أبي نواس مثلاً شاعر نذر نفسه بكلية مدهشة لرؤياه المتفردة للوجود، لعالم الخمرة وما تمثله من قيم»[3]. وانظر إلى كلمة فذة، مدهشة، متفردة. . . !

(١) المصدر السابق: ص (٨).

(٢) جدلية الخفاء والتجلي : ص (٨)

(٣) المصدر السابق : ص (٨٥ ، ٨٦)

نحاول أن نجمع الآن أهم التعابير التي وردت عند أدونيس وكمال أبو ديب ليسهل علينا عمل المقارنة:

عند أدونيس ترد التعابير التالية: «تركيب جدلي»، «حوار لا نهائي»، «ثورة دائمة ضد التقليد ـ الثبات. . .»، «الله في التصور الإسلامي نقطة ثابتة «وبهذا المعنى قتله (أي الله»، «فتفرغ الكلمات من معانيها. . . .».

وعند كمال أبو ديب: «البنيوية . . . . . منهج في معاينة الوجود. . .»، «تثوير جذري للفكر. . .»، «ومع البنيوية أصبح محالاً أن نعاين الوجود ـ الإنسان والثقافة والطبيعة ـ كما كان يعاينه الذين سبقوا البنيوية. . .».

أصبحت المقارنة جلية، والارتباط وثيقاً، والهدف بيناً واضحاً.

ومن كتاب الخطيئة والتكفير نأخذ نماذج من نصوص:

عن مثال لرولان بارت «شبه في النص بفص البصل . . . . حيث لا بداية ولا نهاية. . . .»[١].

ويرد كذلك النص:

«ونحن لسنا بحاجة إلى الوجود العيني للشياطين كي ننفعل بهذه الآية . . . وهذه النظرة التكاملية في تصور الوحدة تخدم في تقديم العمل الأدبي لا على أنه ناقلة للمعنى ولكن على أنه قيمة جوهرية التولد ذاتية التحول»[٢].

ويقول كذلك عن «ليفي شتراوس»:

«حيث يأخذ بمبدأ النسبية لآينشتاين ويترجمه إلى مصطلح إنساني يقوم على أن قيمة الشيء ليست في جوهره، ولكنها في وظيفته، أي في تفسيرنا له ونظرتنا إليه»[٣]

وبالإضافة إلى تعليقنا السابق على هذه النصوص، فتقاربها في الموضع هنا

(١) الخطيئة والتكفير: ص (١٥) (٢) المصدر السابق: ص (٣٢) (٣) الخطيئة والتكفير: ص (١٥٠).

يكشف لنا ملامح من التناقض بينها.

ويقول كذلك:

«وأهم ما فعلته البنيوية هو الانطلاق من مبدأ العلاقة . . . . وبذلك تبرز كأكبر تحول أدبي في هذا القرن مس وجوه الفكر الإنساني»[١].

ويقول كذلك:

«. . . وهذا يلغي الوجود للكلمة. . . .»[٢].

«فاللغة إذن . . . . هي الأمانة كما ورد في الآية الكريمة. . . .»[٣].

ويقول كذلك:

«ولذلك فإن حالة الوعي تصبح أسوأ حالات التلقي للشعر، وأحكامها على الشعر ظالمة. . . .»[٤]

ويقول كذلك:

«إن الشاعر يحرر الكلمة من معانيها مما علق بها من غبار السنين فيطهرها ويغسلها. . .»[٥].

من هذه النصوص الموجزة، ومن العرض السابق في الفصول الماضية، نستطيع أن نجد الركائز الأساسية في الفكر الحداثي والبنيوي، أو بعضها على الأقل.

أولاً: إن الحداثة والبنيوية لا تنحصران في الأدب وحده، كما يحب أن يوهمنا بعض من يودون الدفاع عنهما أو التخفيف من شرهما. ربما ابتدأ العرض والمسرح بالأدب واللغة والكلمة، ولكنها مع عرضها كشفت على لسان أصحابها بنصوص واضحة أنها تمثل نظرة شاملة للحياة كلها، نظرة تعتبرها جديدة وما هي بجديدة.

(١) المصدر السابق: ص (٤١).
(٢) المصدر السابق: ص (٣٩).
(٣) المصدر السابق: ص (١٦٠).
(٤) المصدر السابق: ص (٢٦٢).
(٥) المصدر السابق: ص (٢٦٩).

فأدونيس سبق معنا قوله: «الطريق التي يرتسمها الإبداع حدسية إشراقية رؤياوية، وهي تبحث عن الحلول في فيض الحياة وغناها، في تفجر ممكناتها وتنوعها، وهي تتبنى الإنسان بجحيمه وجنته. . . .»[1]. ويقول: كمال أبو ديب: «البنيوية طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود فهي تثوير جذري للفكر وعلاقته بالعالم». ويقول الدكتور الغذامي: «. . . . وأهم ما فعلته البنيوية هو الانطلاق من مبدأ العلاقة . . . . وبذلك تكون أكبر تحول أدبي في هذا القرن مس وجوه الفكر الإنساني» إننا لا ننكر اختلاف أساليب التعبير، ولا ننكر كذلك استخدام كلمات عامة تستطيع أن تحملها أكثر من وجه. ولكن ترابط المعنى بين النصوص، واعتماد نص هنا على نص هناك، يبرز الهدف والامتداد.

ثانياً: الحداثة، ومعها البنيوية، تلغي القديم كله، وتلغي الثبات، وتأخذ بصورة واحدة من الحياة فقط: الحركة الدائمة والتغيير المستمر. فأدونيس مازالت نصوصه تدوي: «. . . . . يقتلع الإنسان ويرميه في بوتقة التحول. . . .» ويقول: «والاتجاه إلى الممكنات ثورة دائمة ضد التقليد والثبات»[2]. وعند كمال أبو ديب: «البنيوية . . . تثوير جذري . . . رفضي . . . نقضي . . . » وعند الغذامي: «إن الشاعر يحرر الكلمة من معانيها مما علق بها من غبار السنين فيطهرها ويغسلها». ونجد هنا كذلك اختلافاً في الأسلوب واتحاداً في المنحى لا يمكن إخفاؤه في ظلال بعض الكلمات العائمة.

ثالثاً: وإذا ألغت الحداثة القديم والثبات، فقد تتراجع في موقف طارىء، أو لحظة معينة، ولكن رفض الدين وما يبني عليه من تراث أخلاقي هو رفض ثابت لا تراجع عنه. وربما يكون هذا الرفض هو المحور الأساسي لرفض القديم ولرفض الثابت. وتتركز الثورة وينصب الرفض على: الدين واللغة والتاريخ. يقول أدونيس: «. . . . هذه الثورة تعني بالمقابل التوكيد على الباطن، أي على الحقيقة (مقابل الشريعة). وتعني الخلاص من المقدس والمحرم وإباحة كل شيء للحرية. الله في

(١) مقدمة في الشعر العربي: ص (١١٨).

(٢) المصدر السابق: ص (٣٩).

التصور الإسلامي نقطة ثابتة متعالية منفصلة عن الإنسان. التصوف ذوب ثبات الألوهية... أزال الحاجز بينه وبين الإنسان وبهذا المعنى قتله (أي الله) وأعطى طاقاته للإنسان» أي أعطى طاقات الله للإنسان. تعالى الله عما يقول المجرمون علوًا كبيراً. كفر واضح صريح، مع تحد غبي، ينفخ فيه الشيطان كبر الغرب وغرور الشيوعية، وهبوط المادية الجدلية والمادية التاريخية، كما سنعرض بعد قليل.

وعند كمال أبو ديب: ... إذ أن هذا الشعر يجسد تجربة فذة في انغماسه المطلق في رؤيا الخمرة وإغراقه في الرفض المطلق للتراث الأخلاقي والديني». أما الغذامي فيقول: «إن الشاعر يحرر الكلمة من معانيها مما علق بها من غبار السنين فيطهرها ويغسلها».

رابعاً: تقوم الحداثة والبنيوية على قاعدة «التناقضات». ومن التناقضات الثنائية تحاول أن تبني مفهومها الأدبي والفكري الممتد. يقول أدونيس: «التحول يفترض الذورة الهاوية، الماء النار، الرفض القبول، هذا ما يعطي لهذه الغنائية نفس النبوة» مع بعض غموض وإبهام متعمد في السياق، فإن المعنى واضح من أن التحول (كما عرضناه في الفقرات السابقة) يقوم على التناقضات الثنائية الرفض القبول، الذروة الهاوية... الخ. ولكن النبوة أجل من هذر أدونيس وصحبه. ويقول كمال أبو ديب: «.... ومع البنيوية ومفاهيم الزمن والثنائيات الضدية والإصرار على أن العلاقات والطبيعة ـ كما كان يعاينه الذين سبقوا البنيوية» ويقول الغذامي: «الشيفرات الرمزية وهي تقوم على أساس التصور البنيوي في أن الدلالة تنبثق من خلال مبدأ (التعارض الثنائي) الذي يقوم على الاختلاف بين العناصر المكونة للنص .. أو التعارض الثنائي الذي ينشأ بين الجنسين»[1]. وكذلك يقول: «وهكذا يدخل آدم ومن بعده بنوه في صراع دائم بين قطبين أزليين هما الخطيئة والتكفير»[2].

خامساً: تقوم الحداثة في دراستها للأشياء على مبدأ العلاقات بينها، مع إهمال الشيء ذاته في مجال وظيفته ودوره. فالكلمة والنص الأدبي لا قيمة جوهرية له

---

(١) الخطيئة والتكفير: ص (٦٦).

(٢) المصدر السابق: ص (١١٢).

إلا من حيث التـولد والنشأة. عند أدونيس في كتابه مقدمة في الشعر العربي تكاد التعابير تطمس العلاقات. يقول «وفي الإبداع الشعري يصل غنى هذه اللغة إلى أوجه وتصبح غابة شاسعة كثيفة من الإيقاع والإيحاء والتوهج لا حد لأبعادها فتفرغ الكلمات من معـانيهـا المـوضوعة الموجودة مسبقاً في المعاجم أو على الألسنة وتنوع دلالاتهـا، وتختزن ممكنات من المعاني تكثر أو تقل بحسب سياقها وترابطها بغيرها وارتباطها بالحدس الشعري» يجب أن لا نتيه في ضباب الغموض فنفقد ما يهدف إليه أدونيس. فالتناقض والغموض يجب أن لا يفقدنا القدرة على ربط هذا النص مع غيره من نصوصه لندرك الهدف. أما التناقض عنده فواضح إذ كيف يمكن أن ندرك ما يريده، وكيف يمكنه هو إدراك ما يريده، من كلماته هذه إذا أفرغت من معانيها في المعاجم أو على الألسنة. لقد حكم هو بنفسه على ضلالة كلامه، وضياع معانيه.
أما كمال أبو ديب فيقول: «. . . تثوير جذري للفكر وعلاقته بالعالم، والإصرار على أن العـلاقـات لا العلامات هي التي تعني. . .» والغذامي يوضح القضية أكثر، فيقول: «ويلعب ليفي شتراوس دوراً مهماً هنا أيضاً حيث يتمدد مبدأ الصوتيم الى مبدأ العلاقة»[(١)]. ويقول كذلك: «وهذه النظرة التكاملية في تصور الوحدة تخدم في تقـديم العمل الأدبي لا على أنه ناقلة للمعنى، ولكن على أنه قيمة جوهرية ذاتية التولد وذاتية التحول»[(٢)]. أي أنه لا يحتاج لشيء خارج عنه من أجل وجوده وتحوله، فهو مستقل بذاته مستغن عن غيره، في وجوده وتحوله. أما من حيث العلاقات فإنها تلغي الـوجود الجوهري للكلمة. فيقول: «ولذا فإن الكلمة في البنية لا تكتسب قيمتها إلا من بروزها كمعارض لكل ما هو سابق لها أو لا حق لها ـ أو لمعارضتها لهما معاً ـ كما يقول سوسير. وهذا يلغي الوجود الجوهري للكلمة ويؤسس العلاقة كقيمة أولى لنشوء وظيفة لها»[(٣)].

سادساً: تربط الحـداثة نفسها، والبنيوية كذلك، بالجدلية وبالماركسية. يقول أدونيس: «يطرح التصوف فكرة الإنسان الكامل. ربما أمكن أن نقابلها بفكرة

---

(١) المصدر السابق: ص (٣٢). (٢) المصدر السابق: ص (٣٥). (٣) المصدر السابق: ص (٣٩)

الإنسان الكلي في الماركسية ـ الشيوعية»[١] ويقول: «فإن القصيدة الجديدة . . . تركيب جدلي رحب»[٢] ولابد من أن يستمر الغموض، ولكننا بتعاضد النصوص نكشف الغطاء. وكمال أبو ديب ربط البنيوية كما سبق معنا بالماركسية وبأعمال بيكاسو لتقدم نظرة جديدة للعالم تلغي القديم كله. ويستخدم ألفاظاً، مع غموضها، تحمل دلالات الجدلية بوضوح. إنه يقول: « . . . . ذلك أن ما يؤسس هنا هو منهج للاكتناه يرى البنية بما هي آلية الدلالة وديناميكية لتجسيد الدلالة . . . وفي هذا التجسيد للرؤيا الشعرية ينبع وجود كل عنصر ومعناه وخصائصه من طبيعة العلاقات التي فرضت اختياره والتي تشده وتشجعه إلى العناصر الأخرى، ثم من فاعليته في هذه العناصر. وتختفي تحت هذه التفاعلية جدلية عميقة هي التي تؤسس المعنى. ذلك أن العلاقات بين الثنائيات قد تكون علاقات نفي سلبي وتضاد مطلق»[٣] لقد جمع هذا النص معظم القضايا التي عرضناها سابقاً والجدلية بينها، ولا ننسى قوله: «فإن طموح هذا الكتاب ثوري تأسيسي . . . . »[٤]. أما الغذامي فإن مبدأ «التعارض الثنائي» لديه يمثل صورة من صور الجدلية. ولقد سبق أن ذكرنا ما كتبه عن الشفرات الرمزية وما بينها من «أن دلالاتها تقوم على مبدأ (التعارض الثنائي) . . . ». وسنعرض لهذا بعد قليل.

هذا الارتباط نعرضه هنا عن طريق نصوص ومصطلحات وردت هنا وهناك. ولكن الارتباط الأكبر هو في الاتجاه الفكري العام، والخط الذي يربط هذه النصوص كلها، سواء أهاجمت الدين أم لم تهاجمه

ونحاول الآن أن نلخص الركائز الأساسية للحداثة والبنيوية بعد العرض السابق بنقاط كما يلي:

١ ـ الحداثة، ومعها البنيوية، تمثل منهجاً عاماً في رؤية الحياة والكون، ولا تنحصر في الأدب.

(١) مقدمة في الشعر العربي: ص (١٣٣).
(٢) مقدمة في الشعر العربي: ص (١١٤).
(٣) جدلية الخفاء والتجلي: ص (٩).
(٤) المصدر السابق: ص (٨).

٢ ـ إنها تلغي القديم والثبات وترى الحياة والكون حركة دائمة وتغيراً مستمراً.

٣ ـ رفض واضح للدين والتراث القائم على الدين، رفض تجده في النصوص، وتجده في المنحى الذي يربط النصوص.

٤ ـ تحطيم اللغة بنحوها وصرفها، وبلاغتها، وبنثرها وشعرها.

٥ ـ الثنائيات المتضادة، أو التعارض الثنائي، هي أساس من أسسها.

٦ ـ لا ترى الحداثة، والبنيوية معها، قيمة للشيء وجوهره إلا من حيث تولده. وبعد ذلك تقوم قيمة الشيء بالعلاقات مع غيره ومع ظروفه، ثم هي بعد ذلك تلغي الوجود الجوهري.

هذه أهم الركائز التي تقوم عليها الحداثة والبنيوية. ولابد من أن نستجمع في ذهننا هنا ما نستطيعه من التعابير المتميزة التي تظل تعمق من مفهوم الحداثة والبنيوية ويتيسر لنا مقارنتها مع غيرها. ولذلك نورد هنا أهم هذه المصطلحات لتساعد على التصور الأدق:

اللامحدود واللانهائي، اللاحقيقة، اللاواقع، الهيام من المحدود إلى المطلق، انعتاق من كل القيود، المرئية، التموضع الزمكاني، الثنائيات الضدية الأساسية، رؤيوية، العمل المغلق، اعتباطية الإشارة، النحن، الفحص الاستبدالي، الحركة الدائمة والتغير المستمر، إلغاء القديم والثبات، الثنائيات الضدية، ومن القضايا المثيرة أيضاً التعابير والجمل التي تعوم فيها الألفاظ في غموض وإبهام. مما يجعلك تؤمن أن الكاتب نفسه لا يعي حقيقة ما يكتب، وحق له ذلك بعد أن أفرغ هو نفسه الكلمات من معانيها، وبعد أن ألغت البنيوية من الكلمة جوهرها الذاتي، وبعد انطلقت الكلمات وانعتقت في اللامحدود واللانهائي.

أردنا من تحديد هذه الركائز، ومن عرضها مع نصوصها لدى الكتاب الحداثيين، أن نبين امتداد خط الحداثة الواحد. فإنك لو قرأت لأي شاعر أو ناثر

حداثي ستجد الخط الواضح الممتد، أردنا توضيح ذلك حتى لا يقول حداثي: أنا لي حداثيتي الخاصة التي تختلف عن حداثية أدونيس أو كمال أبو ديب. ركائز الحداثة واحدة، وخطها العام واحد، وبعد ذلك يمكن أن يقع اختلاف في الأسلوب في الطرق التالية:

١ - يقترب بعضهم من الدين باستخدام بعض ألفاظه أو معانيه استخداماً خاطئاً، أو غير دقيق، أو في غير مناسبته، وينسل التعبير مع ذلك في جو كثيف من الغموض والإبهام، ليحمل فرجة من جدل ودفاع.

٢ - قد لا يتردد بعض الحداثيين عن إعلان إيمانهم، أو عن عدم كفرهم، بهذا الأسلوب أو ذاك. ولكن تبقى النصوص الواضحة والاتجاه الفكري الواضح يحتاج إلى التوفيق والتنسيق. ويحتاج كذلك إلى التبرؤ من كل نص هذا أو ذاك، أساء فيه إلى الدين وصراطه المستقيم.

٣ - يعنف بعضهم في هجومه على الدين وإعلانه الكفر والإلحاد، ويرق بعضهم، على حسب الموقع الذي هو فيه. وقد تؤثر الرقة في بعض المواقف لتقدم حجة من تدين.

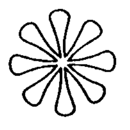
لا ننكر أنّ مجتمعاتنا الإسلامية تضم ما يمكن بأن نسميه «وسطاً عائماً»، تخلط فيه الأفكار والسلوك والمناهج. وفي هذا «الوسط العائم» تستطيع مبادىء كثيرة أن تنسل، ثم تمتد لتؤثر في واقع المسلمين وحياة المؤمنين.

لذلك نهيب بكل مؤمن أن يكون واعياً على الثغر الذي هو فيه، ليدافع عن حمى وأمة، ودين ورسالة، وإيمان وتوحيد. فمن كان صادقاً في إيمانه فليظهر صدقه في كلمته وجملته، وفي خطوته وسعيه، وفي جهاده وعمله.

من هذا العرض السريع لركائز الحداثة لدى حداثيي بلادنا، وبمقارنة هذه الركائز مع ما سبق أن عرضناه من أسس وركائز الحداثة وحركاتها في أوروبا الرأسمالية وأمريكا الرأسمالية، وروسيا الشيوعية، من هذا كله نجد التشابه الواسع، والشبه الدقيق، والتبعية المكشوفة، حتى كأن حداثيينا يعرضون أفكار الرأسمالية والشيوعية لإفساد العالم، ولقتل أُمتنا ومحق الخير فيها.

لقد رأينا كيف أن أسس الحداثة في جميع حركاتها كالرمزية والانطباعية والمستقبلية الإيطالية والمستقبلية الروسية والتعبيرية والدادائية والسريالية كلها جعلت محاربة القديم والثبات والدين واللغة خطاً عاماً أساسياً فيها.

وكما رأينا التناقض والغموض والإبهام هناك، والحيرة والشك والغرور، رأينا هذا كله في فكر حداثيي بلادنا، حتى كأنهم نسخة مشوهة عن أولئك، ينقلون أفكار أولئك إلينا نقلا ممسوخاً، كأنها أفكارهم.





الفصل الثاني

الحداثة والمادية الجدلية

يظن كثير من الناس أن «المادية الجدلية» و «المادية التاريخية» وأمثالهما مما ظهر في العصر الحديث هو كفر وإلحاد جديد يفاجيء الإنسانية بظهوره. أو أنه عمل جديد ونظرية جديدة، مثلها كمثل نظرية علمية في الهندسة أو الطب أو غيرهما. وربما انبهر بعضهم بما وصل إليه من صور الكفر فقرنها بالعلم وسماها «الاشتراكية العلمية». ولكن الاشتراكية امتدت وأصبحت لباساً يفصَّل على قياس كل راغب: فمن اشتراكية ديمقراطية، إلى اشتراكية مسيحية، إلى اشتراكية إسلامية، إلى اشتراكية تجمع هذه الألقاب مع ألقاب القومية والإقليمية، فتضعها في بوتقة واحدة تحاول أن تخرج مركباً كيماوياً جديداً، أو خليطاً كيماوياً.

لاشك أن الفلسفة المادية هي أوسع راية للكفر والإلحاد في عصرنا الحديث. ولكنها ليست شيئاً جديداً أبداً، وإنما هي نموذج متكرر في حياة الإنسان منذ أقدم الأزمنة. إن الذي يتبدل هو كمية الطلاء والأصباغ التي يحملها، والزخرف الذي يزين نفسه به، والقناع الذي يتخفى به. أما من حيث الجوهر والحقيقة فالكفر واحد ينكر وجود الله، أو يشرك بالله، أو يجعل للناس أصناماً يعبدونها من دون الله: هوى ينصبونه إلهاً، رجلاً يقدسونه تقديس المؤمن لله، حجراً يرفعون له شعائر العبادة.

كان الناس أمة واحدة على الإيمان والتوحيد، يعبدون رباً واحداً لا شريك له، وقد يقعون في أخطاء أو آثام ومعاص، حتى برز الكفر، فبعث الله للناس نبيين منذرين ومبشرين:

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ .... ﴿٢١٣﴾ ﴾ (البقرة : ٢١٣)

إن الله سبحانه وتعالى خلق الكون كله على سنن أرادها. ولو أراد الله أن يخلق الكون على سنن أخرى لفعل. فهو الخالق وهو على كل شيء قدير. ومع كل سُنَّة في الكـون حكمة يعلمها الله. وجهل الإنسان المخلوق بهذه السنة أو تلك، وجهله بحكمة السنة هذه أو تلك، لا ينفي وجود السنة وقيام الحكمة.

ومن هذه السنن التي قضاها الله في الحياة الدنيا هي أن يولد الناس كلهم على الفطرة، فطرة الإيمان، والدين القيم. ثم قضى الله بحكمته أن يهدي أناساً فيثبتوا على الإيمان جزاءً ورحمة وعدلاً منه سبحانه وتعالى، وأن يُضـــل أناساً فيموتوا على الكفر عدلاً منه سبحانه وتعالى لا ظلم معه أبداً. أما ماذا فعل هؤلاء أو أولئك، فاستحق هؤلاء رحمـة الله وهـدايتـه، واستحق أولئـك عقـاب الله فأضلهم عدلاً وحكمة، فهذا مالا يمكن للإنسان أن يعلمه، وإنما هو علم الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى كلها.

ليست قضيتنا إذن أن نفزع لظهور حركة كافرة في الأرض. ولكن قضيتنا التي نسأل عنها: هي ماذا قدمنا لهؤلاء من دعوة صادقة، ومثل كريم، وعلم غني، وجهد مبذول حتى نفتح لهم أبواب الإيمان، ونوصد أبواب الكفر. ان قضيتنا هى كيف نقيم في الأرض دعوة الله على أسس مشرقة واضحة، لا يكون فيها « وسط عائم» يعيش فيه الكفر بأقنعته، أو ينفذ منه لضرب المؤمنين.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (يونس: ٣٣)

ويتكـرر هذا المعنى على صور متعددة في منهاج الله، حتى نعلم آيات الله وسننه في الكون، فتوقن النفس المؤمنة أن الله عادل حق حكيم، خبير له الأسماء الحسنى، فتمضي مشيئته على الناس جميعا مشيئة عادلة: فمنهم من آمن ومنهم من كفر، يهدي الله لدينه من يشاء ويضل من يشاء. وهو عادل مع هؤلاء ومع هؤلاء

سقنا هذه المقدمة الموجزة السريعة لنؤكد أن قضية الكفر في الأرض قديمة.

وكذلك ليدرك المؤمنون حقيقة مهمتهم التي يحددها لهم منهاج الله فينهضوا لها بعزيمة وقوة.

ويوضح الله سبحانه وتعالى لنا قدم الكفر في الأرض مع أولئك الذين صدوا عن سبيل الله وحاربوا رسلهم وأنبياءهم. ويعرض لنا القرآن الكريم نماذج من كل ألوان الكفر والالحاد والشرك: فرعون، وهامان، وقارون، وأصحاب الأيكة، والمؤتفكة، وعاد، وثمود، وقوم نوح....... ! ويعرض لنا جدل الكافرين الممتد الى قرون طويلة، حتى لا تجد فيما يقولونه اليوم جديدا، مهما كثرت الأصباغ والزخارف والأقنعة. ولنأخذ نموذجا من آيات الله نخشع عندها وهى تقرع القلوب بالحق البين:

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الجاثية: ٢٣-٣٣)

وسيظل الناس بالنسبة لآيات الله فريقين: فريق تهزه الآيات فيزداد إيمانا ويرى الحق الأبلج. وفريق في قلبه مرض:

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ

ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ (التوبة: ١٢٤، ١٢٥)

وسيظل الكافرون يقولون: «وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر...» والله سبحانه وتعالى له الحجة البالغة فيقول سبحانه وتعالى: «.... وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون».

أما بالنسبة لأوروبا فقد عرض لنا التاريخ مرحلة من مراحل حياة الناس. عرض لنا الكفر والوثنية اليونانية والرومانية يتخللها بصيص سرعان ما يغيب في الظلمات. وحين أتت المسيحية اليها لا تحمل معها صفاء كلام النبوة، سيطر الدين المسيحي بما حمل من تثليث، وبما أدخل عليه مما حسبه بعضهم نظريات علمية، حتى ظهر الصدام بين الدين والعقل. ولم تستطع حركة الإصلاح الديني التي قادها لوثر (١٤٣٨م - ١٥٤٦م)، وكلفن من بعده (١٥٠٩م - ١٥٦٤م) أن تعالج هذه القضية. وامتد الصراع حتى بدأت تظهر الفلسفات والمذاهب في الفكر والأدب. ولكن كانت كل فلسفة تأخذ جانبا من جوانب الحياة كرد فعل لفلسفة سابقة لها، فتبنى مذهبها على ذلك، وتدعي أنه حق كامل، وما هو بحق. لم يكن لدى الناس في أوروبا صورة واضحة عن حقيقة الدين والألوهية بعد أن خلطت الكنيسة المفاهيم، وشوهت التطبيق، ودفعت الناس لمحاربتها دفعا، وبعد أن توقف المد الإسلامي من الغرب والشرق، وظل تأثير الوثنية اليونانية يعمل في الفكر الأوروبي. وإذا سادت الوثنية مرحلة في تاريخ أوروبا فقد ظهر سلطان الكنيسة والدين الكاثوليكي على النحو الذي عرضناه مرحلة تالية كأنه رد فعل للمرحلة الوثنية. ولما اشتدت نقمة الناس على سلوك الكنيسة وفكرها المتناقض المضطرب ظهر رد الفعل لذلك في ما يسمى بعصر التنوير في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، حيث أخذ يدعو فلاسفته في ألمانيا وانكلترا وفرنسا الى سياسة العقل ليزيل عبودية الانسان للكنيسة، وليخضع كل حدث تاريخي للعقل، ولينشىء العقلُ الدولةَ والجماعة والاقتصاد والقانون والدين وسائر مظاهر الحياة إنشاء جديدا. ومثل ذلك: «ولف» و«لسنج» الألمانيين، و«لوك» الانجليزي، و«فولتير» وغيره في فرنسا. ومع ذلك فقد

استمر للدين والكنيسة أنصارها، مثل «يالانش». وانطلق صراع الدين مع العقل على صورة ردود فعـل لم تجد بينها النظرة الهادئة الشاملة. وظهر الفيلسوف الألماني فشـته (١٧٦٢م ـ ١٨١٤م) يصارع من أجل سياسة العقل ضد الكنيسة وما تمثله من دين. وقد كان فيشته أول من وضع في فلسفته مبدأ «النقيض» منطلقا من «تصور الإنسـان لنفسـه»، ليضـع من ذلك: الشيء، ومقابل الشيء، وثم جامع الشيء ومقابله. لقد كان الخطأ الرئيسي عند فيشته هو الخطأ ذاته الممتد في الفكر الأوروبي، ذلك حين تأخذ فلسفة ما مظهرا من مظاهر الحياة، أو فكرة واحدة تدور في النفس، فتجعلها الفلسفة حقا مطلقا يسود الحياة كلها بكل مظاهرها.

وجاء هيجل بعد ذلك ليأخذ عن فيشته مبدأ النقيض ويصوغه على صورة الدعوى، ومقابلها، وجامع الدعوى ومقابلها، ليصور «الفكرة» ويسميها في حالتها المطلقة «بالعقل المطلق»، الذي هو الله، ومنه تنبثق «الطبيعة» لتكون «الطبيعة» هي مقابل «العقل المطلق»، ثم جعل ما سماه «بالعقل المجرد» هو جامع الطبيعة والعقل المـطلق. وهنا أكد هيجل سيادة العقل على الطبيعة لا على الدين. ولقد تناقض هيجل مع نفسه هنا. فحين اعتبر «العقل المطلق» هو «الله»، ووحيه وكلمته هي أساس المعرفة، فقد اعتبر من ناحية ثانية قوله هو كبشر ورأيه حقا مطلقا في نظريته المثالية التي يدعو اليها، وهي ليست كلمة الله ولا وحيه. وكانت فلسفة هيجل نوعا من الرد على سيادة العقل التي دعا لها «فيشته». فكان أن اعتبر الله «عقلا مطلقا» ليمثـل الألـوهية في حدود بشرية، وتصور بشري ضيق، وتعابير بشرية. وأدخل هيجل من حيث لا يدري بذور الإلحاد في نظريته عن النقيض، حين اعتبر النقيض قانونا مطلقا في الكون كله، واعتبر أن كل شيء يحمل الشيء ونقيضه، وأن الشيء يصير الى نقيضه في لحظة ما، فالعالم كله ناشيء عن التعارض والتناقض، وكل شيء متغير.

لا شك فإن الحياة ـ فيما نراه نحن وندركه ـ تحمل أشياء لها نقيضها. ولكن هنالك متمماتها ومساعداتها. والحياة ليست صراعا فقط بين الشيء ونقيضه، ولكنها

أيضا تآلف بين الشيء وقرينه ومساعده ومتممه. فالحياة ـ وان حملت صراعا ـ ولكنها تحمل تعاونا وتآلفا من ناحية أخرى. والمثل الذي استخدمه هيجل لم يكن شاملا في حقيقته ولا مصورا عادلا. فقد اعتبر البخار نقيض الماء. وهذا اعتبار غير سليم. فقد يجوز اعتباره كذلك من حيث الشكل فقط، أما من حيث التركيب فليس بنقيضه، وتغير الماء الى بخار لا يمثل جميع مظاهر وحقائق التغيرات في الكون. فاستمر الخطأ الرئيسي للفكر الأوروبى نافذا في فلسفة هيجل، حين يجعل من المثل الضيق البسيط، ومن النظرة البشرية المحدودة، قانونا مطلقاً يريده أن يحكم الكون كله. ولا تنس أن هيجل أدخل عنصرا جديدا لميدان الصراع وهو «الطبيعة».

كان من المتوقع اذن، اذا استمرت أوروبا في خطها، أن يظهر رد الفعل للفلسفة المثالية التي دعا اليها هيجل على صورة فلسفة «مادية» تنكر العقل المطلق، وتنكر الدين، ولكن تأخذ «الطبيعة» وحدها، تأخذ ما يسميه لودفيج فيورباخ (١٨٠٤م ـ ١٨٧٢م) بعلم الواقع. فعنده جوهر الواقع هو الطبيعة الشاملة، والحقيقة والواقع والحس كلها سواء. فأعاد جذور الفلسفة المادية ليقيم لها إلها جديدا هو الإنسان نفسه. كانت الفلسفة المادية هذه تكشف بصورة جلية ردود الفعل في الفكر الأوروبي، وتكشف التناقض الرئيسي فيه، حين تجعل كل فلسفة من نظرتها المحدودة قانونا مطلقا يحكم الكون كله.

ولابد لنا هنا من وقفة. ان هذه الظاهرة في الفكر الأوروبي، كان يرافقها ظاهرةأخرى في نفس الوقت، ظاهرة ممتدة كذلك في الحياة البشرية، كانت تمثل هذه الظاهرة نمو فكر آخر في حياة الإنسان، نمو ما يمكن أن نسميه «العلم البشري»، أو «العلوم الفنية التطبيقية»، بما يشمل من نظريات الرياضيات والفيزياء والكيمياء والكهرباء وسائر ما شابهها من علوم. كان نمو هذه العلوم يمثل خطا آخر مغايرا للخط الذي رأيناه فيما يمكن أن نسميه «بالفكر»، أو «العلوم الإنسانية». لم تكن النظريات العلمية تمثل ردود فعل للإنسان في تعامله معها، ولم تكن تمثل صراعا وحربا، وإنما كانت تمثل نموا وتطورا يحمله التآلف أكثر من الصراع، وترتبط كل نظرية يثبت صلاحها مع النظرية السابقة واللاحقة، لتمثل خطا ناميا. ولم يكن

التغير يُمثِّل صراع الشيء مع نقيضه ليقدم جامع الشيئين. لقد تبنت النظرية النسبية لأنشتاين النظريات السابقة التي تعنيها، دون أن تهدمها أو ترفضها، ولكنها وسعتها ومدت من آفاقها في الكون، وثبة جديدة في كون ممتد. وكانت النظريات العلمية تحمل معها التواضع فلا تدعي لنفسها أنها قانون مطلق يحكم الكون. ولا تزال النسبية لا تمثل القانون المطلق في الكون.

وتابعت أوروبا صراعها «الفكري» على النحو الذي عرضناه يحمل في طياته ظاهرتين ملازمتين: وهم لا يقين معه وغرور، وتناقض واستكبار. فجاء كارل ماركس (١٨١٨ م ـ ١٨٨٣ م)، وفريدريك إنجلز ١٨٢٠ م ـ ١٨٩٥ م)، فيلسوفان ألمانيان، تعاونا كثيراً في فكرهما ـ وكان كارل ماركس يهودياً من أب يهودي ـ فأخذا عن فيورباخ النظرية المادية، وأخذا عن هيجل النظرية الجدلية. (الدعوى ومقابلها وجامع الدعوى ومقابلها)، وخرجا من ذلك بالنظرية المادية الجدلية. وجاءا كذلك بالمادية التاريخية لتدرس، حسب ظنهما تاريخ الإنسان، فتجعل من ملاحظاتها المحدودة قانوناً مطلقاً، أخذ أصحابه اليوم يشعرون بتناقضه واضطرابه مع الحياة وضرورة تعديله، كما أخذوا يرون ذلك من خلال اضطراب الممارسة وتناقضها خلال أكثر من سبعين عاماً. وانهارت خلال ذلك نظريات كانت تقوم دعامة للفكر المادي الجدلي: كالداروينية، ونظريات فرويد وغيرهما.

ونوجز النظرية المادية الجدلية بعرض أهم ركائزها:

أولاً: تعتبر المادية الجدلية نقطة انطلاقها وجوهرها وامتدادها من وجود تناقضات داخلية في الأشياء، والصراع بينها هو المحتوى الداخلي للتطور. وحين تجعل المادية الجدلية هذا قانوناً مطلقاً في الكون، تتناقض مع نفسها حين تقرر أنه لا ينبغي أن نحكم على أي حركة اجتماعية من ناحية عدالة أبدية مطلقة، لعدم وجود العدالة المطلقة، والقانون المطلق. وتنسى المادية الجدلية أنها جعلت من كلامها هذا قانوناً مطلقاً. فكانت الحقيقة إذن ليست إلغاء العدالة المطلقة، ولا مبدأ القانون المطلق، وإنما استبدلوا بذلك شيئاً جديداً ابتدعوه من عند أنفسهم بأسماء جديدة ما

أنزل الله بها من سلطان. وأغرب من ذلك كله هو ممارسة قانونها المطلق في تبرير الحركات الاجتماعية في تشيكوسلوفاكيا والشرق وأفريقيا وأفغانستان وغيرهما من بقاع الأرض. وكأننا نرى «الميكيافيلية» تبرز في ثوب فكري جديد تحميه فلسفة وفكر. ولا تضع المادية الجدلية قانوناً مطلقاً واحداً، وإنما قوانين عدة لا تحمل معها برهانها وحجتها، ولكنها تحمل زخرفاً عاطفياً يستفيد مما يعانيه الناس من ظلم اجتماعي، لينقلوه إلى ظلم اجتماعي آخر. ولنأخذ نماذج من القوانين المطلقة عندهم. «كل شيء يتعلق بالظروف، بالزمان والمكان»، «لاجتناب الخطأ يجب أن ننظر إلى الأمام لا إلى الوراء». «يجب أن يكون الإنسان ثورياً لا إصلاحياً» «يجب اتباع سياسة طبقة برولتيارية حازمة». ومن السهل أن ندرك الآن مواطن الخطأ هنا: فالظروف عنصر هام في التقدير ولكنها ليست العامل الوحيد، إذ لابد من عقيدة تعينك على فهم الظروف وتقديرها، فهي أمر يختلف الناس في تقديره دائماً. وكذلك نوافق على أننا يجب أن ننظر إلى الأمام ونحن نسير ونبني، ولكننا ننظر إلى الوراء كذلك لنعتبر ونتعلم، ولترتبط الأجيال بجهود مثمرة متواصلة. تقع الثورة أحياناً ويقع الإصلاح. فلو فرضنا شكلا واحداً لألغينا دور الظروف والزمان والمكان وتناقضنا مع أنفسنا.

والذي يهمنا هنا كذلك ما يتعلق بدراستنا الأساسية في موضوع الحداثة والبنيوية. ألا نرى أن مبدأ النقيض ـ كما سبق أن مر معنا ـ قد عرضته الحداثة والبنيوية قانوناً مطلقاً على صيغة جديدة هي الثنائيات الضدية، والتعارض الثنائي، علاقات نفي سلبي وتضاد مطلق . . إلخ. وإذا رجعنا إلى نصوص الحداثة وتحليلنا لها نشعر بشكل يقيني مدى الترابط بينها وبين المادية الجدلية، في هذه القضية هنا.

فلابد من عرض سريع لأهم النصوص حتى تسهل المقارنة هنا: يقول أدونيس : «التحول يفترض الذروة الهاوية، الماء النار، الرفض القبول، هذا ما يعطي لهذه الغنائية نفس النبوة».

يقول الدكتور كمال أبو ديب: «ومع البنيوية ومفاهيم الزمن والثنائيات الضدية. . . .» ويقول الدكتور الغذامي : « . . . . في أن الدلالة تنبثق من خلال

مبدأ التعارض الثنائي الذي يقوم على الاختلاف بين العناصر المكونة للنص».

وكذلك: «وهكذا يدخل آدم ومن بعده بنوه في صراع دائم بن قطبين أزليين هما الخطيئة والتكفير».

وبالرغم من اختلاف الألفاظ ونماذج التعبير: «الذروة الهاوية، الرفض القبول....»، «الثنائية الضدية»، «التعارض الثنائي»، «الصراع بين قطبين أزليين»، بالرغم من هذا الاختلاف نشعر بمدى التقارب مع المادية الجدلية. فمن أهم تعريف الجدلية هو دراسة التناقضات. والتحول كما يسميه أدونيس، والثورة كما يسميها الدكتور كمال أبو ديب، والصراع كما يسميه الدكتور الغذامي، يؤدي هذا كله إلى نفس التصور المادي الجدلي والمادي التاريخي. والنظرة المادية الجدلية لا تنحصر في إطار فلسفي، ولكنها تمتد إلى جميع نواحي الحياة: الفكرية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية من خلال قواعد وأسس لا يمكن عزلها عن بعضها.

إن مبدأ النقيض الذي انتقل من فيشته إلى هيجل ثم إلى ماركس، تسعى المادية الجدلية إلى تطبيقه على جميع ميادين الحياة. والحياة والنشاط الأدبي من أبرز هذه الميادين. سيقوم الصراع بين الطبقات في المجتمع، سيقوم الصراع بين المتناقضات، وسيبقى هذا الصراع هو الصورة الوحيدة للحياة، للتطور، للتحول.

والإسلام حين لا ينكر وجود المتناقضات، فإنه ينكر أن يحكم الصراع بينها الكون كله. فمن ناحية يبين لنا الإسلام أن الحياة ميادين غير ميادين الصراع، ميادين التعارف والتعاون والتآلف. واسمع إلى حديث رسول الله ﷺ يعرض على البشرية والأجيال سنة من سنن الله في الكون:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»** (رواه الشيخان)[1]

والاختلاف لا يعني الصراع دائماً. فربما قاد الاختلاف إلى نوع من التعاون والبناء.

ثانياً: تعتبر المادية الجدلية أنه عند دراسة أي حادث فلابد من دراسة الظروف والعلاقات فهي التي تهم. وسبق أن قلنا إن دراسة الظروف والعلاقات ضروري لفهم الحادث ولكنه عامل غير كاف. فلابد من عقيدة لفهم الظروف والعلاقات المحيطة على ضوئها وأساسها. ويختلف الناس في فهم الظروف على مقدار وسعهم وقدراتهم، وعلى مقدار اهتمامهم ومشاركتهم، وعلى مقدار علمهم وتجاربهم. والقضية الثالثة بالنسبة للظروف المحيطة هي أن نظرة الإنسان مهما اتسعت تظل محدودة ضيقة، لا تخرج عن حدود طاقات الإنسان. ولكن الحادث والظروف مرتبطان بميدان أوسع من الإنسان، مرتبطان بسنن كونية ربانية، قد يعلم الإنسان طرفاً منها ويجهل طرفاً، أو تكون باباً ممتداً للإنسان، للبحث والتأمل والتدبر. وقد ضرب لنا القرآن الكريم مثلاً عن ذلك في سورة الكهف، حين فسر النبي موسى عليه السلام الأحداث التي تقع أمامه على الأسس البشرية المحدودة: فمع حادثة السفينة:

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ ﴾ (الكهف : ٧١)

ومع حادثة الغلام:

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾ (الكهف : ٧٤)

ومع حادثة الجدار:

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾ (الكهف : ٧٧)

وظاهر الحدث وعلاقاته المادية تؤيد رأي موسى عليه السلام. ولكن الغيب الذي يعلمه الله هو الذي يوجه الأحداث في الحياة الدنيا على حكمة غالبة لله

(١) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة (٤٥). باب الأرواح جنود (٤٩). حديث رقم (٢٦٣٨).

سبحانه وتعالى. وقد جاء ذلك على لسان الخضر ليعرض الله لنا قبساً من الغيب نتعلم بين يديه:

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (الكهف : ٨٢)

وكان الخضر عليه السلام يعلم أن موسى عليه السلام بطبيعته البشرية قد يتأثر أولاً بالظواهر المادية تأثراً غير مكتمل للرؤية والحقيقة الكاملة. فقال له الخضر:

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ (الكهف : ٦٨)

عرض الله سبحانه وتعالى طرفاً من سننه في الكون، في الحياة، مما قد يغيب إدراكه علينا، حين لا نأخذ الأحداث إلا بظواهرها، وحين لا نربط الأمور برب العالمين. وأكدت لنا آيات كثيرة هذا المعنى:

﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (الروم : ٧)

وكذلك:

﴿ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ ﴾ (الحديد : ٥)

ولقد عرض لنا القرآن الكريم سنة الولادة والموت، وعرض علينا خلق آدم، وربط سبحانه وتعالى ذلك كله بعلمه المطلق، وحكمته الغالبة، وسننه الماضية. فكيف تستطيع المادية أن تدرس الظروف والعلاقات لتفسِّر ذلك؟! وأي علم بلغته حتى تدعي القدرة على تفسير هذه الأحداث. فالمادية تدعي أنه من الممكن معرفة العالم، ولا يوجد شيء لا يمكن معرفته. والمعرفة التي يعنونها هي معرفة التجربة والأبحاث.

مع التاريخ البشري تجتمع علوم الإنسان في هذا الباب وفي ذلك. وفي علم

الفلك اجتمع العلم البشري، فماذا قال عن الشمس بعد أن درس العلاقات والظروف، وبعد أن وصل القمر وطاف في السماء الدنيا؟!

هذه الجهود كلها لم تستطع أن تقدم الحقيقة المطلقة، والنظرة الكاملة العادلة الأمينة المطلقة، فجاء القرآن الكريم وعرض الحق المطلق الذي لا يمكن أن يخرج عن بشر أبداً:

﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾ (يس : ٣٨)

فهو إذن ليس تقدير الإنسان ولا علمه ولا حسابه، ولا تقدير ما يراه من ظروف، ولكنه تقدير العزيز العليم، تقدير الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى.

ولو استعرضنا نظريات الناس وما قدموه خلال تاريخ طويل، بناء على دراستهم للظروف المحيطة بالشمس، لرأينا كم وقع الإنسان في تناقضات وأخطاء إذا اعتبر دراسته حقاً مطلقاً. ولكنه إذا اعتبر دراسته جهداً بشرياً محدوداً، وأقر بوجود الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأقر بخضوعه لهذا الحق، وخضوع الكون كله له، عندئذ ترتبط جهود الإنسان في مختلف العصور عبادة لله، وأداء للأمانة التي حملها، ووفاء بالخلافة التي جعلت له في الأرض، وعمارة للأرض كما أمره الله، على ابتلاء منه سبحانه وتعالى وتمحيص، حتى يدخل الإنسان الجنة في الآخرة أو النار. عندما يحمل الإنسان في سعيه وفي دراسته للظروف هذه النظرة، يصبح له هدف مشرق، ويصبح لحياته وسعيه معنى كريم وغاية كريمة، وترتبط الأجيال المؤمنة بسعيها، ماضيها وحاضرها ومستقبلها. وبدون ذلك تكون حياة الإنسان كحياة الأنعام بل أضل:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾
(الأعراف : ١٧٩)

وهنا نعود كذلك لموضوعنا الرئيسي: الحداثة والبنيوية، لنرى مدى ارتباط فكرها بالمادية الجدلية. ولقد سبق أن عرضنا النصوص من ذلك من أقلام رجالها، حتى تسهل المقارنة.

ثالثاً: ترى المادية الجدلية أن «الطبيعة» في حالة حركة دائمة وتغير مستمر. وتنطلق من هذا المبدأ وغيره لتقرر مبدأ آخر: «ليس من شيء لا يقهر ولا يغلب إلا الشيء الذي يولد ويتطور» وبذلك يعنون الإنسان بأنه لا يقهر ولا يغلب. ذروة في الكبر والغرور، وتيه مظلم في الوهم والظن، دون أي أساس من علم أو نور من برهان. ولكنها كلمات ينفخون بها غرور الإنسان وكبره وتناقضه. فالذي يولد ويتطور يخضع لقوانين التطور، وهو مقهور لها خاضع لها، وهو بذلك مقهور لمن وضع القانون، لله وحده فهو القاهر الغلاب. لقد نسي هؤلاء الموت الذي يقهر الله به عباده، كما يقهرهم بسائر سنن الكون الثابتة التي لا يستطيعون منها فراراً:

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ (الأنعام: ١٨)

إن الحركة في الحياة واضحة في نواح عديدة مما ترى، والتغير واضح كذلك، ولكن نرد على المادية الجدلية ورجالها بمنطق المادية الجدلية ومبدأ النقيض الذي تقوم عليه. فوجود شيء متحرك يقضي بوجود شيء مناقض له، أي ثابت لا يتحرك. ووجود شيء متغير يقضي بوجود شيء غير متغير. ومن ناحية أخرى كيف تجعل المادية الجدلية هذا قانوناً مطلقاً دون أن تشعر بتناقضها وظلمها، وهي لا ترى من الحياة كلها إلا جزءاً محدوداً وعصراً محدوداً وبشراً محدوداً وفكراً محدوداً، ثم تخرج من ذلك لتضع قانوناً مطلقاً ينفي وجود الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. من خلال غرور ووهم، وجهل واسع وعلم مخنوق ضيق، ودون حجة أو برهان، ولكن بأسلوب من المغالطة الواضحة ينسل الكفر والإلحاد انسلال الشيطان إلى دم الإنسان.

يعرض القرآن الكريم لنا نماذج من الحركة في الكون ليكشف لنا آيات الله البينات الدالة على وجوده، ليبين لنا هذا النظام الذي سنّه الله في الحياة الدنيا، فثبته

وأقره حتى يكون عوناً للإنسان على تجديد إيمانه بالله. فالحركة في الحياة آية دالة على وجود الله لا على عدم وجوده، والتغير آية بيِّنة في الحياة لتدل على وجود الخالق. ولما أضل الشيطان فيورباخ، وماركس، وإنجلزا، وأضرابهم، عميت أبصارهم فلم تر الآيات البينات.

وانظر إلى هذه الحركة التي يعرضها القرآن الكريم آية بينة وحجة قاطعة، نقف أمامها بخشوع وإنابة لنرى جلال الآيات وجمال الإيمان:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (إبراهيم: ٣٢ - ٣٤)

انظر إلى تنوع الحركة في الحياة وجمالها ونظامها وآثارها: نزول الماء من السماء، خروج الثمرات، جريان الفلك في البحر، جريان الأنهار، حركة الشمس وحركة القمر دائبين، والليل والنهار. الخ وكل حركة في جمالها خاشعة لله تسبح الله وتسجد له، فأصبحت الحركة عبادة لله وطاعة، سجوداً وتسبيحاً، خشوعاً وإنابة في نظام ثابت إلى ما شاء الله:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ﴾ (الحج: ١٨)

وحركة أخرى هائلة في الكون، آية من آيات الله، لم يكن محمد ﷺ يراها ولا يعرفها، ولا كان أصحابه، ولا كان الناس آنذاك. ولكنه علم أوحى به الله إلى عبده ونبيه محمد ﷺ:

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (النمل : ٨٨)

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ (النبأ : ٢٠)

حركة هائلة يوم القيامة، تقوم على الإتقان فإنها من صنع الله، لا من صنع البشر وأوهامهم إنه الحق!

ولكن هل كل شيء في حركة لا سكون معها أبداً. من يستطيع أن يدعي ذلك عن علم ويقين؟! لا ! إن من يقول ذلك فقوله ظن لا علم معه، ووهم لا حق فيه. فمن عرف الكون كله؟! من استطاع أن يرى «كل شيء» حتى يضع قانوناً «لكل شيء». إن هذا هو الجهل والغرور والوهم.

ولكن الحق المطلق يأتي من عند الله وحده علماً يقينا لا وهم فيه ولا ظن. فاستمع إلى آية الله في الكون :

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾ (الأنعام : ١١ ـ ١٣)

نعم وله ما سكن! وكذلك له ما تحرك. فذكر ما كان بعلمه أوقع في قلب الإنسان ليدل على خلقه كله، فله المخلوقات كلها ما سكن منها وما تحرك، وهو السميع والعليم.

ولقد جعل سبحانه وتعالى في الحياة حركة وسكوناً سُنَّة في خلقه وآية منه.

فالريح تتحرك فتسير السفن، أو تهدأ وتسكن فتركد السفن على ظهر الماء:

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ (الشورى : ٣٣)

وتقف حركة الإنسان! تقف في الليل ليسكن ويهدأ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ (يونس : ٦٧)

نعم! إنها آيات لقوم يسمعون، يسمعون الحركة فيدركون السكون. أما من أطبق الله على سمعه فيرى الحياة لوناً واحداً يحسبها حركة، أو يحسبها سكوناً.

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ (الأنعام : ٩٦)

هذا من حيث الحركة والسكون. أما من حيث التغير فقد جعل الله كذلك التغير في الحياة آية من عنده تدل على عظمة الخالق، وتدل على الحياة الآخرة. ويضرب القرآن الكريم نماذج عدة من ألوان التغير، ومع كل لون آية:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ (الكهف : ٤٥)

ففي هذه الآية إعجاز يحس به الذي يتدبر فيها مثل واضح على التغير الذي جعل النبات هشيماً، وضربه الله مثلاً لمتاع الحياة الدنيا، وآية منه سبحانه وتعالى.. ولقد كانت الحياة الدنيا قليلة الشأن في ميزان الإيمان، قصيرة المدة قليلة العطاء، دار تمحيص وابتلاء، حتى تجاوزت الآية الكريمة ذكرها، فانتقلت إلى نتيجتها مباشرة: «فأصبح هشيماً». وفيها كذلك عرض لنظام ثابت لا يتغير وسُنّة قائمة من سنن الله، ليراها الإنسان فيعتبر المؤمن ويخشع وينيب. ويراها الكافر فيدبر، فتكون عليه

حجة يوم القيامة، فيدخل النار بكفره:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (الأعراف : ٥٧)

نحتاج إلى أن نعيد تلاوتها مراراً حتى يمتدَّ المعنى في نفوسنا ونتدبّر ما جمعته من آيات بينات، ومن مثل يضربه الله لنا حتى نؤمن بالبعث وبقدرة الله على إحياء الموتى. تكونُّ السحاب تغيّر، ولكنه آية تدل على وجود الخالق المبدع، ونزول المطر آية كذلك، خروج الثمرات تغير ولكنه آيات بينات. وكما يُخرج الله الثمرات بعد موتها، فكذلك هو يخرج الموتى.

فالتغيرات إذن آيات بينات. وكل هذه الأشياء تولد وتنمو وتتطور. وكذلك الإنسان يولد وينمو ويتطور. وكل المخلوقات خاضعة لسنن الله في الكون، مقهورة بها، مستسلمة لها حتى النبوة العظيمة، حتى خاتم الأنبياء محمد ﷺ، خاضع لسنن الله:

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾
(الأنعام : ٣٥)

سنن ثابتة لا تتبدل ولا تتحول. ولولا ثبات هذه السنن، ولولا خضوع الإنسان وسائر المخلوقات لهذه السنن لفسد الكون واضطرب، ولما كانت حياة:

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (غافر : ٨٥)

أما الحياة والموت فلا تتعرض لهما المادية الجدلية إلا كما تعرض لهما

الكافرون من قبل : « . . . . نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر . . . » .

والإنسان يولد ويتطور فهو في نصّ المادية الجدلية لا يُغلب ولا يُقهر. واسمع إلى هذا الحوار بين إبراهيم عليه السلام والنمرود:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾
(البقرة : ٢٥٨)

ويبيّن الله سبحانه وتعالى لنا أن التغير والتحول هما بيده وحده. فهو يغير ما يشاء، وهو القادر على كل شيء. ويجعل الله سبحانه وتعالى من التغير آية للناس، ومن الثبات آية:

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ (البقرة : ٢٥٩)

ويبيّن الله سبحانه وتعالى أنْ ليس النظام وحده هو ثابت، فالنظام نفسه يقوم على مقادير وكميات. وقد أعطى الله في الكون كل شيء خلقه وقدره:

﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾
(القمر : ٤٩)

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾
(طه : ٥٠)

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ

مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝﴾ (يس : ٣٨ - ٤٠)

ونعود هنا كذلك للحداثة فهي موضوعنا الرئيسي، نعود لنرى مدى التقاء أفكارها مع المادية الجدلية في هذه القضية الخطيرة. ولابد من أن نتذكر من أن المادية الجدلية حين أخذت بجزء من سنن الكون وهو الحركة، وبجزء من سننه وهو التغير، ألغت الثبات كله، وألغت الدين كله، وألغت التراث، ودفعت بالكفر في أوضح صوره.

والحداثة نصَّت على هذه القضايا في أسسها وركائزها. فهي ترى الحياة والكون «حركة دائمة وتغيراً مستمراً». إنها نفس النصوص. ولكنها الحداثة، وهي تنشط حيناً في جانب واحد كالأدب، حسب ما تتطلبه الظروف والحاجة، لا تتابع استنتاجات الفلسفة كلها، ولكنها تطبقها على اللغة والدين والكلمة. فتفرغ الكلمات من معانيها ويأتي الانطلاق في اللامحدود، وتلغي القواميس. إنها تنص نصاً على أنها تلغي القديم والثبات إلغاء كاملاً، فتفقد الكلمات معانيها وتصبح في غيبوبة وعالم ثان. وهذه القضية تكاد تكون أقوى قضية تربط الحداثة بالمادة الجدلية، فهذه القضية تستغل من حيث لا يدري الكثيرون للقول بعدم وجود إله، ولتزين الكفر في زخرف لا حجة فيه، ووهم لا علم معه، وعواطف تخدر العقل وتبطله. إنهم يريدون إلغاء العقل وإبطال دوره عن طريق الشعر. ألم يقولوا : «.... فإن حالة الوعي هي أسوأ حالات التلقي للشعر وأحكامها على الشعر ظالمة»؟!

فنرى هنا إذن تطابق الحداثة والمادية الجدلية تطابقاً لا يجعل إحداهما تابعة للأخرى، ولكن يجعلهما كأنهما شيء واحد.

رابعاً: تعتبر المادية الجدلية أن التطور هو حركة تنتقل من تغيرات كمية ضئيلة وخفية إلى تغيرات ظاهرة كيفية، سريعة فجائية، وهي ضرورية، ويستشهدون على ذلك بنظريات داروين التي سقطت اليوم، والفيزياء، وحرارة الماء، وبعض الظواهر الكيميائية.

لاشك في أن هناك تغيرات بسيطة هادئة خفية، يمكن أن تنقلب فجأة إلى تغيرات سريعة تغير الكيفية. ولكن كيف نستنتج من هذه الظواهر عدم وجود خالق؟! إنه انسلال للفكر هادىء، ربما لا يحس به بعضهم حين يسلم بالمقولة الأولى، وهي ليست حقيقة مطلقة في الكون. إن مثل هذه التغيرات تمثل جانباً من الأحداث، ولكن ليس كل الأحداث في الكون. والمادية الجدلية تريد أن تطبق هذا على شيء في الكون، وفي حياة الإنسان: التاريخ، القانون، الاقتصاد، التربية، العلوم ... إلخ. إن العلم الحقيقي يفرض على الإنسان التواضع والخشوع أمام آيات الله. فلو جمعنا كل علوم البشر في جميع فروع العلم في جميع العصور، منذ آدم عليه السلام حتى تقوم الساعة، يظل هذا العلم البشري علماً قليلاً.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ (الإسراء : ٨٥)

كلما أوغل الإنسان بأبحاثه في الكون، فلا يقل عدد المجهولات لديه بل يزيد. فلو كان أمام الإنسان في مجال ما من مجالات العلوم مجهولان يبحث عنهما، فحينما يكتشف واحداً ينفتح امامه مجهولان جديدان مثلاً. فيصبح عدد المجهولات لديه أربعة. وإذا استمر في أبحاثه فإنه يعرف شيئاً وينكشف أمامه جهل أوسع. فمن هذه الناحية يمكن أن نقول إن الإنسان باتساع علومه تزداد معرفته بجهله الواسع. فأنى لإنسان هذا حاله الحق في أن يضع من عند نفسه، ومن أبحاثه، قانوناً مطلقاً؟! إذا لم يكن هذا هو الغرور والكبر والوهم فما هو إذن؟!

والنمو والتطور في مختلف نواحي الحياة لا يتم كله على هذا النحو الذي تعرضه المادية الجدلية. فالشجرة تظل تنمو وتمتد وتزداد فروعها وثمارها وحجمها دون أن يحدث انفجار مفاجىء والإنسان ينمو على قواعد وسنن وضعها الله في الكون وعرضها القرآن الكريم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ

ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ (الحج : ٥ ـ ٦)

تعرض الآيتان الكريمتان أكثر من صورة للنمو والتطور. وكل مرحلة وحدها تكاد تكون علماً واسعاً لم يبلغ الإنسان إلا طرفه، ومازالت ميادينه ساحة أبحاث ودراسات. وكل حالة تمثل تطوراً ونمواً يحمل من الخصائص الجديدة ما يمكن وضعه في نموذج خاص. إن الخلق بدأ من تراب ثم من نطفة، فأنىّ للمادية الجدلية أن تعلم شيئاً عن هذه النقلة العظيمة الهائلة في حياة الإنسان؟! ولا تسل عن سائر المراحل، حتى يتوفاه الله. وهذه النقلة الضخمة الهائلة في حياة الإنسان تتم أمامنا وتحت أبصارنا ونقف أمامها جاهلين عاجزين إلا مما علمنا الله. فلنستمع إلى جلال الخلق في إنابة، وإلى جلال الموت في رهبة وخشوع، بين يدي العلم الحق:

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (الواقعة : ٥٧ ـ ٦١)

﴿ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ (الواقعة : ٨١ ـ ٩٦)

نعم! «إن هذا لهو حق اليقين» وما عداه فهو وهم وضلال مبين. وتريد المادية الجدلية أن تطبق نظرية التطور هذه على المجتمعات، لتشير إلى الحركات الخفية في الكميات وعدد الأتباع، ثم تنتقل إلى تحول مفاجىء في الكيفية. إنه تطبيق للثورة، للرفض، للقبول، لكل ما جاءت به الحداثة والبنيوية. ألم تقل الحداثة والبنيوية: «ولأنها كذلك فهي تثوير جذري للفكر وعلاقته بالعالم...». وكذلك تقول البنيوية: «... إن طموح هذا الكتاب ثوري تأسيسي، وفي الآن نفسه، رفضي نقضي...».

وهذا اللون من التطور الجدلي تريد البنيوية فرضه على اللغة العربية، وفرضه على الشعر. تقول البنيوية: «وهكذا يكون تطور الإيقاع فاعلية بنيوية تنبع من شبكة العلاقات المتكونة ضمن البنية وجدليتها. ويختفي وراءها التراث الشعري في اللغة بتاريخه المعقد الطويل»[1].

فهذا هو التطور الكيفي المفاجىء الذي يلغي القديم، يلغي التراث الشعري في اللغة بتاريخه المعقد الطويل.

هكذا تلتقي الحركتان في مفهوم التطور على أساس جدلي، كأنهما حركة واحدة. وهذا يطبقها في المجتمع وهذا في التشريع، وهذا في الاقتصاد، وهذا في الأدب.

خامساً: المادية الجدلية تجعل الكون ذاتي الجوهر مستغنياً عن خالق أو موجد له. أما الحجة على ذلك فلا داعي عندهم أن تتوافر. يكفي أنهم وضعوا هذه الفرضية التائهة وبنوا عليها جدليتهم، أو بنوها على جدليتهم. يقول لينين أو يعيد قول هيراقليط اليوناني القديم: «العالم واحد لم يخلقه أي إله أو أي إنسان وقد كان ولا يزال وسيكون شعلة حية إلى الأبد تشتعل وتنطفيء تبعاً لقوانين معينة». ويقول إنجلز: «إن الفهم المادي للعالم يعني بكل بساطة فهم الطبيعة دون إضافة غريبة».

---

(١) جدلية الخفاء والتجلي. (ص: ١٠٥).

وفهم الطبيعة هو كما يفهمها هو نفسه لا كما يفهمها غيره. وكأن الإضافة الغريبة لا تأتي إلا من عند غيره. وكلام «لينين» و «هيراقليط» و «ماركس» و «إنجلز» يحمل التناقض في ذاته ويهدم نفسه بنفسه. فكيف يكون العالم شعلة حية إلى الأبد، ثم في الوقت نفسه تشتعل وتنطفي تبعاً لقوانين معينة. ما هي هذه القوانين؟! وكيف تقبل الأمانة العلمية أن تضع مثل هذا الفرض قانوناً لا برهان عليه، ثم تدعي أنه يخضع لقوانين معينة لا يعرفها أحد، وما أوجدها أحد. هو قول الكافرين منذ الأزمنة القديمة: «. . . **نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر**» دون حجة ودون برهان.

وتأتي البنيوية والحداثة لتقول: «وهذه النظرة التكاملية في تصور الوحدة تخدم في تقديم العمل الأدبي لا على أنه ناقلة للمعنى، ولكن على أنه قيمة جوهرية ذاتية التولد ذاتية التحول».

نظرة واحدة، وفكرة واحدة، وكلٌّ تعمل في ميدانها ومجالها.

التقت الحداثة مع المادية الجدلية في نقاط خمس كلها تمثل ركائز أساسية في الحداثة وفي المادية الجدلية. ثم يأتي اللقاء الأخير في النص والتسمية والكلمة.

سادساً: نص كتاب الحداثة على ارتباط فكر الحداثة بالمادية الجدلية والشيوعية. ولقد سبقت معنا هذه النصوص في الفصل السابق. ونعيدها هنا للتذكير:

«. . . فإن القصيدة الجديدة تركيب جدلي».

«. . . وتختفي تحت هذه التفاعليات جدلية عميقة. . . .»[1].

وكذلك، حين يحاول أدونيس أن يختفي أو يحتمي بالصوفية متجنياً على كل شيء: «يطرح التصوف فكرة الإنسان الكامل. ربما أمكن أن نقابلها بفكرة الإنسان الكلي في الماركسية ـ الشيوعية. ويمكن أن يشار في هذه المقارنة إلى تصور الحضارة

---

(١) جدلية الخفاء والتجلي. (ص: ٩).

والإنسان والكون في الحدس الصوفي أصلاً لكن الذي يفعل الآن فعله الكبير، متأثراً بالماركسية، في الشعر العربي الجديد»[١].

سابعاً: ارتباط العدد الكبير من رجال الحداثة ارتباطاً عضوياً بالحزب الشيوعي، والولاء الواضح للفكر الماركسي، والعمل الدائب للفكر اليساري، فهم دائماً في الصف المعادي للإسلام. عدد كبير في الشيوعية أو هناك مع الصليبية، أو مع أي حركة في الأرض تحارب الإسلام .هنا يجب على كل مسلم أن لاينزلق، وليتدبر وليتأمل، أفلا يدفعه هذا العدد الهائل إلى الحذر، أو لا يحيط نفسه بالشبهة، أو يعرضها للتهمة الواضحة: عبدالوهاب البياتي ماركسي، بدر شاكر السياب شيوعي لسنين طويلة، يقال إنه تاب عام ١٩٦٠ م، أدونيس علوي قومي سوري فينيقي يساري ملحد، لويس عوض قبطي قلبه وقلمه مع اليهود وكل ما يحارب الإسلام، سعيد عقل ماروني فينيقي صليبي يساري، عبدالعزيز المقالح، محمود درويش، معين بسيسو، سميح القاسم، حسين مروة، عبدالله العروي، محمد عابد الجابري، وعدد ما شئت.

إن هذا الارتباط لا يعقل أن يكون مصادفة، وهذه الهجمة الواحدة لا يعقل أن تكون عفوية. إن هذا الارتباط يفرض علينا أن نربط ذلك كله بالمخطط الواسع في حرب الإسلام، حيث تلتقي الشيوعية والصليبية، حيث تلتقي الماركسية والرأسمالية، حيث يلتقي الشرق والغرب. هنا يجب على المسلم أن يتدبر فيصحو. ومن أبي واستكبر فقد ضرب أمته سواء أعرف ذلك أم لم يعرف!.

من هذا نرى أن الحداثة في جذورها ونموها هي امتداد واضح للمادية الجدلية بكل نفس من أنفاسها.

وعلى المادية الجدلية والمادية التاريخية قامت المصطلحات الأخرى مما نسمع كالشيوعية والاشتراكية العلمية والماركسية واللينينية وغير ذلك.

---

(١) مقدمة في الشعر العربي. (ص: ١٣٣).

في عام ١٨٤٨ م أصدر (ماركس) و (إنجلز) البيان الشيوعي «المانفستو»، ومن أهم نصوصه وبنوده محاربة الدين وإعلان خلاصة مبادئهم. وقد أصدر إنجلز الجزأين الثاني والثالث من كتاب رأس المال لكارل ماركس، حيث يعرض الكتاب النظرة الاقتصادية قائمة على نفس الأسس الفكرية للمادية الجدلية والتاريخية. ولا تنفصل فكرة عن فكرة.

لاشك أن الدين الذي كانوا يتصورونه هو الدين المسيحي ونشاط الكنيسة وما جرَّ ذلك من مآس في حياة أوروبا. ولما بدأت تظهر لهم حقائق الدين الإسلامي في فكره وتطبيقه، أذهلهم فشل النظرية المادية التاريخية والجدلية في تفسير ذلك. فكانت الرسائل المتبادلة بين ماركس وإنجلز حول هذا الموضوع تكشف مدى الاضطراب والتناقض، وكذلك مدى الجهل بالإسلام. فقد ورد في رسالة من (إنجلز) إلى ماركس سنة ١٨٥٣ م نصوص تكشف هذا الجهل والاضطراب. فقد اعتبر (إنجلز) الفتوحات الإسلامية غزوات بدوية دورية، فيقول: «فيما يتعلق بالفتح العربي الكبير الذي تحدثنا عنه سابقاً كان البدو يقومون بغزوات دورية شأنهم شأن المغول...» أي جهل أوسع من هذا، وأي مجانبة لأمانة العلم أكثر من هذا؟!. ويقول: «يبدو أن ثورة محمد الدينية شأنها شأن كل ثورة دينية كانت من الوجهة الشكلية ردة، رجوعاً معلناً نحو القديم...».

وجاء تطبيق الشيوعية في بلادها حتى اليوم يقدم الدليل بعد الدليل على فشل النظرية المادية الجدلية والمادية التاريخية، واضطرار رجالها لمراجعة حساباتهم وتعديل نظرتهم وآرائهم وممارساتهم، على جثث الملايين ومآسي المظلومين، لا يختلفون عما قدمه الغرب من مظالم ونكبات وويلات. وربما اشترك العالمان الشرقي والغربي في تنفيذ هذه المأساة أو تلك، أو اقتسام الشعوب كأنهم قطعان تساق إلى مجازرها.

إن العالم كله اليوم بحاجة ماسة إلى الإسلام. وإن المسلمين في الأرض بحاجة ماسة إلى الإسلام. ذلك لأن العالم اليوم كما هو دائماً، لا تكفيه النظرية ولكنه بحاجة إلى أن يرى النموذج والقدوة، بحاجة إلى أن يرى الإسلام المشرق في قلوب

الناس، وعلى ألسنتهم، وفي أمانة ممارستهم وصدقها وصفائها. إن العالم اليوم لا يحتاج إلى لافتات فقد قتلته اللافتات، ولا إلى شعارات فقد دمرته الشعارات. إنه يتلفت اليوم ليرى المؤمنين الصادقين، المؤمنين الصادقين مع ربهم، ومع أنفسهم، ومع إخوانهم، ومع الناس جميعاً. إنه يتلفت اليوم يبحث عن المؤمنين الصادقين ليقودوه في الفكر، والعلوم، والاقتصاد، والأدب والكلمة، والخطوة والعمل والسعي. إنه يبحث عن السعادة التي تتحرق نفسه شوقاً إليها، ليدفع بها عن نفسه القلق والخوف من الإنسان، من أخيه الإنسان، بعد أن جعلته حضارة القرن العشرين وحشاً جباراً مفترساً، يريد أن يدمر نفسه ويدمر الحياة كلها، ويدمر الآخرين.

ويمضي نداء الله إلى الناس جميعاً ممتداً إلى يوم القيامة:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾ (الكافرون: ١ - ٦)

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۝١٥٧ ﴾ (النساء: ١٦٧)

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥٨ ﴾ (الأعراف: ١٥٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢ ﴾

(آل عمران: ١٠٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾
(التوبة : ١١٩)

اللهم اجعلنا من عبادك المسلمين التوّابين الصادقين المتقين المفلحين!

ولا نستطيع أن نرد أذى الفكر الإلحادي، بكتاب نؤلفه، ومحاضرة نلقيها، وصيحة نعلنها، فحسب. إن هذا كله مجدٍ ومفيد، حين يكون جزءاً من نهج محدد واضح لأمة استيقظت، ونهضت لتبني وتعلي البناء. إن هذا الجهد من الكتابة والصيحة يضيع هباء حين لا يصبُّ كله في مجرى غنيّ، ودرب رويّ، يجمع الجهود على وعي وإيمان وعلم.

إن أهم قواعد البناء هو بناء الإنسان المسلم، الإنسان المؤمن، الإنسان الذي وعده الله النصر إذا استوفى الخصائص الإيمانية التي حددها الله في منهاجه. إن بناء الإنسان المؤمن من أعظم الأعمال عبقرية في الحياة الدنيا، لتحطم الأغلال الجاهلية عنه، ولتغنيه بالإيمان وغذائه وروائه.

وإن من أهم أسس البناء قواعد ثلاثاً :

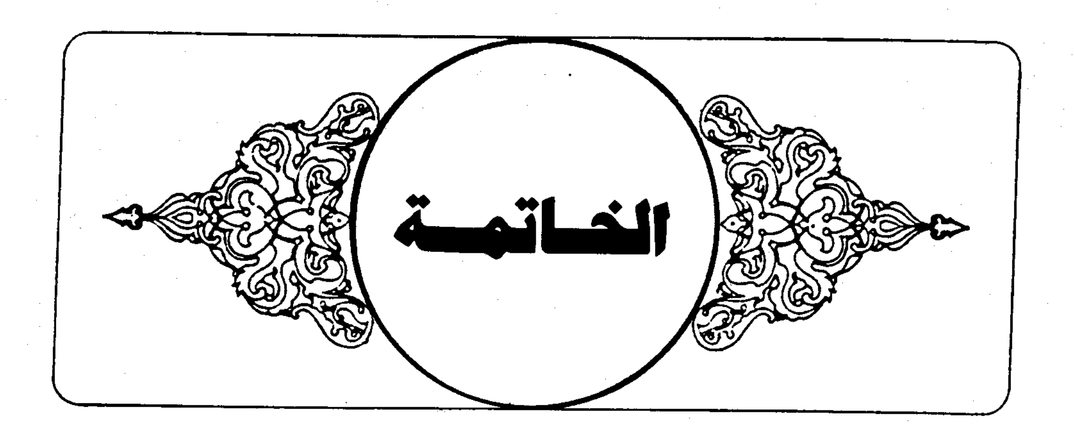
أولاً: مصاحبة منهاج الله قرآناً وسُنّة مصاحبة منهجية، مصاحبة عمر وحياة.

ثانياً: فهم الواقع فهماً إيمانياً، فهماً يصاحب دراسة منهاج الله وتدبره.

ثالثاً: التدريب الإيماني على صدق ممارسة منهاج الله في الواقع البشري.
ذلك حتى نستطيع أن نقدم للبشرية الجيل المؤمن الذي يستطيع أن يحمل دعوة الله إلى الناس جميعاً: إيماناً مشرقاً، وعلماً بيناً، وممارسة حية نقية، فيقبل الناس على دين الله أفواجاً، وتنهار عندئذ نظريات النقيض والتناقض، والصراع الطبقي، وغير ذلك من أسماء.

وإنها لمسئولية كل مسلم، وسواء أدرك ذلك أم لم يدرك، فإنه محاسب يوم القيامة بين يدي الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.





لقد تحدثنا في الأبواب والفصول السابقة عن ملامح الحداثة والبنيوية، وعن بعض إفرازاتها في واقعنا اليوم. ولكن هذا الحديث لم يتعرض إلى قضايا أخرى رئيسية تمس الحداثة وأخطارها.

فما زال هنالك سؤالان على الأقل يحتاجان إلى دراسة مستفيضة وعناية كبيرة، حتى تؤتي الدراسة ثمارها وبركة عطائها في واقعنا اليوم، وحتى تتمكن الأمة من تحصين نفسها ضد غزوات متتابعة ماضية مع الأيام لا تتوقف.

لقد سبق أن ذكرنا في بعض الفصول أن ما تدفعه الحداثة اليوم ليس شيئاً جديداً في تاريخ الإنسان، ولا في تاريخنا. ولكن التسمية حملت ظلالها الجديدة، وإيحاءاتها المضللة. إلا أن جوهرها قديم في حياة الإنسان، قديم في حياتنا، وسيظل مثل هذا الغزو الفكري يظهر في المستقبل، على لافتات جديدة.

إن السؤال الأول الذي نطرحه هو: لماذا ظهرت الحداثة في واقعنا نحن اليوم؟! إذا كان ظهورها في ديار الغرب والشرق استجابة لردود فعل في مجتمعاتهم المضطربة فكرياً، القلقة نفسياً، البعيدة عن أجواء الإيمان، وأنداء التوحيد، فلماذا تظهر في العالم الإسلامي، في ساحات الإيمان والتوحيد؟!

لابد من دراسة هذه القضية حتى نعرف الثغرات المفتوحة في ديار المسلمين فنحاول حمايتها وسدها.

والسؤال الثاني الذي نطرحه كذلك هو : أين بلغت الحداثة في واقعنا اليوم، في ديار المسلمين؟!

ولابد من دراسة هذه القضية دراسة علمية أمينة، حتى نعرف حقيقة الخطر في حياتنا، والخطر داهم، وحتى نعرف حجمه وقدره، فنكون أقدر على رسم نهج وحماية أمة.

إن دراسة الحداثة ذاتها، وكشف أخطارها وشرورها عمل ضروري ولكنه لا يكفي في طريق البناء، وفي سبيل الحماية. فلابد من أن تمضي الدراسة، لتتقصى حقائق الواقع، ولتجيب على كافة الأسئلة الضرورية من أجل تحقيق المعاني الواسعة للعبادة، والوفاء الأكبر بالأمانة.

ولا نهدف هنا أن نجيب على السؤالين السابقين فكل سؤال يحتاج إلى إجابة واسعة وتقص دقيق، لا يتسع له هذا البحث. ولكننا نستطيع أن نضع كلمات قليلة في هذا السبيل، وخطوطاً عامة تنير الطريق.

إن من أهم أسباب انتشار أفكار مثل أفكار الحداثة وغيرها في العالم الإسلامي هو الجهل الممتد بالمنهاج الرباني قرآناً وسنة في عدد كبير من أفراد العالم الإسلامي. وقد ينهض بعضهم في صحوة عاجلة فيأخذ كلمة من هنا وكلمة من هناك عن هذا الدين، أو يتلو القرآن تلاوة التبرك لا يصحبها تدبر ولا التزام، ولا نهج يجمع الأمة ويوحد جهدها، في جميع ميادينها وديارها. مع توافر وسائل الاتصال اليوم، أصبحت الأفكار كلها معروضة في سوق دولية هائجة، تتلقّف كل ما يرمى إليها. ومن خلال وسائل الاتصال هذه، والسوق الدولية تلك، فإن شبابنا يتلقفون كذلك أكواماً هائلة من بضاعتها، فإن لم يجدوا تحصيناً ذاتياً واعياً، فإن كثيراً من السموم ستنساب مع الدماء.

لا نستطيع أن ننكر براعة الذين يصوغون أفكار الضلالة، فإنهم يزينونها بكل الزخارف الممكنة، يعكف على صياغتها شياطين الإنس والجن. فالشاب حين يقرأ

تختلط لديه التصورات وتضطرب الرؤية، وقد يسقط هنا أو هناك ولا ينفع في مثل هذه الحالة إلا أن يكون القرآن والسنة علماً يملأ القلوب، ونوراً يغسل الصدور والأحناء. إن المعلومات المتقطعة والثقافة العامة السطحية لاتفيد في هذه الحالات. إنه الإيمان والهداية من عند الله، والعلم الذي يعكف المؤمن على أخذه أخذاً منهجياً صحبة عمر وحياة، هو الذي ينفع ويقبل.

الناحية الثانية هي عدم فهم الواقع الذي يعيش فيه المؤمن في هذا العالم فهماً إيمانياً، من خلال منظور إيماني، ترد فيه الأحداث إلى قواعد الإيمان على تماسكها وتناسقها وتكاملها.

لذلك نرى أن هذين العاملين يجب أن يكونا أساس النهج والتخطيط، ومحور العمل والبناء، حتى يتزود المسلم بزاد يحميه في طريق طويل انتشرت فيه الفتن والزخارف.

أما القضية الثانية فهي عن المدى الذي بلغته الحداثة في واقعنا اليوم. وهذه أيضاً تحتاج إلى دراسة موسعة، وقد كُتِبَ عنها كتابات جيدة نأمل أن تنمو من خلال دراسات علمية إن شاء الله. ولكننا نريد أن نشير إلى بعض ما استطاعت الحداثة بلوغه اليوم في نقاط محددة.

أولاً: لقد تسللت بعض أفكارها إلى مواقع كثيرة، حتى إن بعض من يعارضها بلسانه وقلمه، يقع دون أن يشعر في كبوات وزلات لا تتفق مع إعلان المعارضة. لذلك عجبت كثيراً حين قرأت كلمة جيدة عن الحداثة في إحدى المجلات المعروفة باتجاهها الواضح، تعارض فيها الحداثة وتنتقدها، وتمدح من نقدوا الحداثة وهاجموها. وبجانب هذا المقال الصارخ الواضح قصيدة حداثية، فلنسمع بعض مقاطعها:

أمتطي
صهوة أرض جردا (لاحظ جردا، مع حذف الهمزة، فما ضرورة ذلك)

أندب فيها
شجرا مثمر. (لاحظ تسكين الراء، فما ضرورة ذلك وقد ذهبت قواعد الشعر)
أنعي غصناً
يؤرق . . . يوماً. (لابدّ من شرح معنى النقط)

لا وزن، ولا قافية، ولا تعبير، ولا لغة عربية سليمة. والسؤال لماذا لا يكتب هذا كله سطراً واحداً: أمتطي صهوة أرض جرداءَ، أندب فيها شجراً مثمراً وأبحث عن غصن. أما السطر الأخير فلا هو نثر ولا هو شعر. ولا أدري معناه.

نعود لقضيتنا فنقول إن القضية ليست مهاجمة الحداثة ونقدها، ثم بعد ذلك نخضع لأسلوبها كله أو بعضه. إن هذا التسلل في حياتنا أخذ صوراً واسعة متعددة.

ثانياً: ذهب عدد ممن لا يقرون فكر الحداثة وأسلوبها، إلى بعض نواحي نهجها في أدبهم وشعرهم. فهناك عدد من الشعراء المسلمين أخذ يكتب الشعر الحديث، وهو يدري أو لا يدري، أن جميع أشكال الشعر المنثور هي بضاعة واحدة خطط لها نهج واحد لتحقيق أهداف واحدة. وقد سبق أن قلنا إن اعتراض نازك الملائكة على ما وصل إليه الشعر المنثور، جعلها تقع تحت طائلة الهجوم الواسع.

ثالثاً: استطاع عدد من أهل الفكر اليساري والحداثي أن يربطوا أنفسهم بشعار قريب من الإسلام، ليخفف عنهم الهجمة. ووجدوا من أجل ذلك فرصة ومتسعاً. فسميح القاسم يعلن: «أنا ابن الحضارة العربية الإسلامية». في إحدى مجلاتنا الواسعة الانتشار. ولكنه لم يقل هل كان ابناً باراً أم عاقاً. ولم يطالبه أحد بهذا البيان. فقد انطلق من حبه لفلسطين إلى حبه لقضية سبتة ومليلة بالمغرب، إلى حبه لكل الأجناس البشرية، دون أن يضع حدوداً أو شروطاً لهذا الحب. فإن كان ابن الحضارة العربية والإسلامية فكيف يمتد حبه إلى الأجناس التي مزقت حضارة يدعي انتسابه لها، وَفَتَّتْ دياراً غذته وربته، كيف لا يعلنها صرخة قوية كما أعلنها القرآن ليكون هواه تبعاً لما جاء به محمد ﷺ، حيث يقول ﷺ، عن عمرو بن العاص رضي

الله عنه: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[١].

وهذا أدونيس يقول: «ولا أعرف كيف تمت الإشارة إلى مسألة فهم التجاوز بهذا الشكل الخاطىء.... ولا أحد، يستطيع أن يستأصل نفسه من نفسه وجذوري بمثابة الأسس التي يرتكز إليها كل تفكير وكل تجاوز» ثم يتابع حديثه ليدافع عن انتمائه إلى جذور لم يحددها. وكأنه نسي ما كتبه في «الثابت والمتحول»، وما كتبه في «مقدمة في الشعر العربي» وذكرنا في صفحات سابقة كيف أن أمين سر الحزب الشيوعي السوري أعلن عن إيمانه بتعبيرات مزخرفة.

عجباً! أصبح جميع الناس كما يبدو يتقربون من الإسلام فالحمد لله. وندعو الله أن لا يكونوا ممن قال عنهم القرآن الكريم.

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (آل عمران: ٧٢ - ٧٣)

وكذلك يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (آل عمران: ٧٨)

وكذلك فإننا ندعو الله دعوة صادقة بأن يهدي عباده، ويثبت قلوبهم وينجي المؤمنين مما يكاد لهم، فهو الولي الحفيظ، وهو الولي الحميد، وهو العليم الخبير!

---

(١) الاربعون النووية.

رابعاً: تجاوزوا في فكرهم وممارستهم حدود القومية والإقليمية تحت شعارات متعددة لم يكن الإسلام منها. فلقد قرأنا قبل أسطر ما قاله سميح القاسم عن امتداد هواه. ورأينا ما وجده أدونيس من الحفاوة هنا وهناك، ورأينا غيرهما على مثل هذ الحال، حتى وددنا أن نرى الإيمان والإسلام أقوى رابطة وأوثق عروة في واقع المسلمين، إن شاء الله.

خامساً: لقد تسلل الفكر الحداثي بأسلوب دفع الكثيرين من المسلمين إلى أن يحملوا نفسية التنازل. لقد أخذت توحي بالتنازل التدريجي، في مسلسل طويل. لقد تنازل الأب عن مراقبة ابنته حين خلعت الحجاب، ثمَّ قَصرَّت الثوب، ثمَّ رفعت الأكمام، واستمر المسلسل حتى خرجت بعض الفتيات شبه عاريات. واستمر مسلسل التنازل عن القيم والسلوك والمواقف الإجتماعية حتى انتقل إلى التنازل عن القيم والمواقف في الحياة السياسية، فتنازلنا عن أمة الإسلام الواحدة، ودار الإسلام الواحدة، ثم تنازلنا عن ديار وأوطان!

وأخيراً نقول كم كلمة مؤمنة تتمنى أن تجد من المسلمين رعاية كما يجدون هم فيما بينهم.

ولا حق لنا أن نضع اللوم دائماً على أعداء الإسلام، وننسى أننا المقصرون:

مَا لي ألومِ عَـدُوّي كُلَّما نَزلتْ ... بي المصائِبُ أو أرْميه بالتُّهَمِ
وأدَّعي أبَداً أنّـي البَرِيء وما ... حَمَلْتُ في النَّفْس إلاّ زَلَّة اللمَمِ
أنَا المَلُومُ فَعَهْدُ الله أحْمِلُهُ ... وَلَيْسَ يَحْمِلُهُ غَيْري مِنَ الأمَمِ [1]

(١) من ملحمة «الغُرَباء» للمؤلف.



فهرس الكتاب

الحداثة في منظور إيماني

الباب الثالث

الحداثة بين الشعر والنثر

الباب الرابع

امتداد الحداثة بين الشرق والغرب ٢٣٧